المطرب

بمشاهير أولياء المغرب

تأليف

الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

دار الأمان
الرباط

المطرب

بمشاهير أولياء المغرب

الطَّبعَةُ الرَّابِعَةُ
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

دار الأمان
للنشر والتوزيع
4، زنقة المامونية
الهاتف 232.76 - الرباط

شركة دار البشائر الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

المطرب

بمشاهير أولياء المغرب

تأليف

الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

دار الأمان
الرباط

دار البشائر الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

[يونس: ١٠]

[قرآن كريم صدق الله العظيم]

«مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْب»

[حديث قدسي صحيح]

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين . . .

وبعد؛ فهذه هي الطبعة الثالثة لكتاب «المطرب بمشاهير أولياء المغرب» نقدمها لقرائنا الكرام، مضيفين إليها عدة تراجم لبعض الأعلام، مع زيادة تحقيق، نقدمها الآن بعد نفاد الطبعة الثانية من السوق منذ مدَّة، وبعد الطلبات الكثيرة المتوالية من عدة جهات له . . .

والله المسؤول أن ينفع بالكتاب من شاء من عباده، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . . .

وصلى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وزوجه وصحبه.

وكتب بطنجة

بتاريخ ٢١ صفر ١٤٢٠هـ

الشيخ عبد الله بن عبد القادر التليدي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نحمدك اللهم على ما أسديت وأنعمت ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك، أشرف من بعثته لخلقك، وعلى آله بدور الهدى ونماذج التقى، ومن تابع سيرهم ونهج نهجهم إلى يوم لقاك.

صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب ـ قبل ست سنوات ـ في ظروف عادية، ولم أشأ يومها أن أعهد بتوزيعه إلى مكتب للنشر أو حتى القيام بتوزيعه توزيعًا منظمًا؛ دفعت به للسوق وتركته لموضوعه ولقيمته، دون دعايات أو عروض، وتخطىٰ الشهور الأولى وتتابع النشر وتزايد الطلب، وكانت النتائج معبرة ومشجعة جدًا.. واليوم نعيد طبعه مرة ثانية، استجابة لكثير من الطلبات ولرغبة قراء الطبعة الأولى في معرفةٍ أكثرَ لرجال الصلاح والتقوى والإيمان المغاربة بالإضافات التي وعدتهم بها في الطبعة الأولى، ولسوف تليق ـ إن شاء الله ـ هذه الطبعة، بقشابة حلتها وجمال إخراجها، بالموضوع الذي يتناوله الكتاب.

ويسرني أن أرى جيلاً عاصر كتب الاستعمار وأطروحاته، ومؤسساته الفكرية والاجتماعية، يقبل بهذا الشغف على كتابات الترجمة والتاريخ للصادقين من مسلمي المغاربة المتقدمين، وهو إقبال تعرفه كتب المسلمين المختلفة، ويبعث على التفاؤل والمزيد من توعية الإنسان المسلم والعربي برسالته وبأصوله وبرجالات القدوة والتمثل الواعي والكامل بالإسلام، وربطه بالأجواء النفسية والروحية والتربوية لكثير من السابقين

في سيرهم الروحي إلى الله وإلى التحقق بالدرجة الأخيرة في سلم الإسلام، درجة القرب من الله والإحسان والشكر. ومثل هذه الأجواء يجدها كل إنسان حي الضمير مرهف النفس واقعي الفكر، ينشد لنفسه ولحياته الاستقرار والسعادة، واستعراض نماذج تاريخية حية تعرضت لذات الموقف وسارت سيرًا شاقًا إلى مستوى الاطمئنان والرضى عن الذات وواقع الحياة، مثل هذا الاستعراض والغوص في خبايا الشخصيات وتجاربها يحمل الكثير من المصداقية والضرورة، والإنسان يترك فيه الواقع والحياة العملية من الوقع والأثر ما لا تستطيعه الأفكار التجريدية مهما كانت قوية وملزمة.

من جهة ثانية للنتائج التي حملتها تجربة كتابي، أؤكد للإخوة الذين لا يرون في كتب تراجم الصالحين والأولياء مصدرًا لتاريخ المغرب، ويريدون تهميش هذه المؤلفات، وهذه الشخصيات ووراء هذا ما وراءه، أؤكد لهؤلاء أن المغرب نشأ في أحضان الإسلام ورجاله والذي صنع المغرب وساهم مساهمة كبرى في تقدمه وترقية عقليات المغاربة والارتفاع بهم من الوثنية والجاهلية والانحراف والاضطراب إلى عزة النفس وقوة الذات ووحدانية التوجه وعبودية الحياة وربانية الشخصية. إنما الذي تحمل عبء هذا، ليس غير الصادقين من المؤمنين ورثة رسول الله ﷺ.

فالمغرب مسلم بأصوله وتاريخه وسيرورته الحضارية، وإسلام المغرب يشكل عمودًا فقريًا في تاريخ المغرب، وليس دور الزاوية والصالحين في جهاد المستعمر وإصلاح المغربي ومطاردة دعاة الشر والفتنة أيام المرينيين والسعديين، بغريب عن القارىء المطلع.

إن محاولات الفصل بين إنسان هذا العصر ودينه، لهي محاولة مغرضة وفاشلة، كتلك التي لا ترى في مكونات التاريخ المغربي غير الأدب والسياسة والاجتماع.. مغالطة سخيفة هذه المحاولة! وفي واقع التاريخ ما ينقضها. ضروري أن أمة أصولها إسلامية وبناة تاريخها وحضارتها مسلمون، لا يسعها التنكر لهؤلاء البناة وهذه الأصول مهما كان الوضع وطبيعة العصر، والإنسان الذي يتخلل الإسلام تركيباته البنيوية العضوية والفطرية، ويمازج دماءه وأنفاسه، كيف لا يرى الإسلام وتاريخه امتدادًا لحياته وضرورة لاستمرارية هذه الحياة؟! الإسلام حقيقة كبرى، ورسالة إنسانية، تعانق الزمن والمكان، وهو روح الإنسان المغربي والعربي ورئتاه، ولن يجد الحياة والروح والرئة في غيره من

حضارات وأمم الأرض، لأن الإسلام كلمة الله عزّ وجلّ، وإرادته. والفهم الخاطىء لهذه العودة للتاريخ وللإسلام، يقيم هوة سحيقة بين الحقيقة والواقع، ولهذا محل آخر يتسع للقول والبيان.

وبعد، ليس هذا الكتاب أكثر من صور، فقط صور تمثل النخبة المؤمنة في مجتمعات وعصور تختلف في استقامتها وانحرافها، ومد الإسلام في جوانب حياتها وجزره. وتجارب هؤلاء الصادقين غنية بالدلالات ومعالم الطريق. . . في مسند البزار أن النبي ﷺ سئل: من أولياء الله؟ فقال: «الذين إذا رؤوا ذكر الله». ويروى عن سفيان بن عيينة: «عند ذكر الصالحين تتنزل الرحمة».

لم نقصد من كتابنا إثارة حساسيات قوم لا يؤمنون بما نقول، ولا إلى إحياء رواسب ظن ناس أنها أقبرت ولا يسمح لها العصر المتقدم بعودة وظهور، لم نقصد أكثر من بحث عن صفاء الفطرة واستقامة الإسلام وصحة النفس وموقف جدي ومتماسك من أنفسنا ومسؤوليتها أمام الله، لم نقصد أكثر من البحث عن حل لأزمات نفوسنا وحياتنا. . .

وفي التصوف حق وباطل، وفي الزاوية مد وجزر، ونؤكد لإخوتنا أننا نقتنع تمامًا أن الزاوية بعد سقوط الدولة السعدية ضعف أمرها ونشاط أهلها، حتى جاء عصر مولاي العربي الدرقاوي فأحياها بإخلاصه وصدقه وانتشرت الطريق وجددت الزوايا في سائر أنحاء المغرب وأصبح لها سوق نافقة حتى جاء عصرنا الحاضر وقبله بعهد قريب، فصارت إلى تقوقع وتواكلية وفساد، وصار أغلب أهلها إلى خمول وتدجيل واستغلال وعمالة. . . كل هذا لا ننكر منه أمرًا، ودعوتنا أن نكون منصفين وإنسانيين ننشد الخلاص الإنساني في النماذج الحية والتجارب الغنية في التاريخ، لا غير.

وأخيرًا إليك أخي القارىء هذه الطبعة المنقَّحة والمضافة بكثير من التراجم لم تكتب للطبعة الأولى. سبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك لذنبي وتقصيري وأستلهمك الصواب وأسألك النفع كما نفعت بالأصل، أنت ولينا ومولانا.

وكتب عبد الله التليدي

بتاريخ ٧ جمادى ١/ ١٤٠٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـدّمَة

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه. الحمد لله رب العالمين وصلواته وسلامه على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وإمام المرسلين وقدوة الأولياء والمتقين ورضي الله تعالى عن آله الطاهرين وصحابته الأكرمين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـد: فإن كل من قرأ سير الصوفية ودرس أحوالهم ووقف على تراجمهم وطالع كتبهم تحقق بأن التصوف هو روح الإسلام وسره وأنه ليس بشيء أجنبي عن المسلمين وعن دينهم كما قد يفهمه بعض أبنائه الجاهلين خطأ وإنما هو سر الدين ولبه الذي كان عليه الصحابة وسلفنا الصالح رضي الله تعالى عنهم.

فالصوفية حياهم الله تعالى لا يزيدون على كونهم يسعون في التحقق بمقام الإحسان الذي هو سر الإخلاص ويعملون للوصول إلى مقام المراقبة ثم المشاهدة المعبر عنهما الحديث الشريف بـ «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، حيث يصلون إلى التحقق بالعبودية الكاملة الخالصة التي جاء بالدعوة إليها نبي الإسلام، والتي كان أصحابه فمن بعدهم منصبغين بها، فمن فهم التصوف على غير ما ذكرناه فقد فهمه محرفًا، وهذه كتب القوم من ألفها إلى يائها لا تخرج عن الدعوة إلى التحقق بما ذكرناه؛ فحياة الصوفية هي عبارة عن سلسلة ذهبية من العهود

والتوجيهات والوصايا والإرشادات والتطبيق القولي والعملي والاعتقادي والحالي، وما أسست الزوايا وأقيمت إلاَّ لهذه المهمات؛ فليست الزوايا إلاَّ مدارس عملية وأخلاقية وتهذيبية يتخرج منها جماعات إثر جماعات من المؤمنين الصادقين المخلصين المحبين، بينما نجد المساجد العامة يتخرج منها أقوام غير مستقيمين أحيانًا.

وما يوجد من النظريات أو بعض الأقوال والأحوال عند القوم فذلك لا يكون مثارًا للطعن في أصل الطريق ولا حاملاً على التبديع والتضليل على الإطلاق فإن تلك الأشياء قد تكون لها محامل حسنة تناسبها وقد تكون لها أدلة اجتهادية صحيحة كما هو الواقع، فالمسارعة إلى الانتقاد ليس من شأن أهل الورع والإنصاف.

نعم إننا لا ننكر أن طريق القوم قد دخل فيها متطفلون، وظهر فيها أدعياء ودخلاء بعيدون عن أهلها الصادقين المخلصين بُعد ما بين السماء والأرض، ولكن ذلك لا يضر الطريق ولا يشينها ومن حاول انتقاد طريق الصوفية لما ظهر في أهلها من الانحراف والميوعة فلينتقد أصل الإسلام وليطعن فيه؛ لأن أهله المنتسبين إليه اليوم قد خرجوا عنه وانحلوا منه وكفى بذلك خطأ.

وإنني أتعجب كثيرًا وكثيرًا ممن ينكرون التصوف اليوم وهو من الدين، ويناصبونه وأهله العداوة ويرمونه من كل جهة ومكان ويوجهون إليه سهام المطاعين ويحملون عليه حملة شعواء لا يحملونها على الشيوعية واللادينية، وهذا وإن كان شيئًا يعد غريبًا في نفسه فإنه في الحقيقة والواقع لا غرابة فيه ما دام المسلمون قد انحرفوا عمومًا عن دينهم وظهر انحلالهم منه في جميع الطبقات، لا سيما والتصوف يدعو إلى التخلق بأخلاق القرآن الحقة بالمعنى الكامل، فهو ليس مجرد قول وتمشدق ودعاوى وجعجعة، ولذلك تجد الناس ينفرون منه وينكرونه لأنه شاق على النفوس مخالف لأهوائها غير ملائم لها.

وزاد الناس اليوم مساعدة على الإنكار طغيان المادة وغلبة الحس مع معاونة خصوم الإسلام وأعدائه الألداء والطاعنين والمنتقدين من المستشرقين والمبشرين

والشيوعيين والصهيونية العالمية الذين تحزبوا وتجندوا لمحاربة الإسلام والمسلمين محاربة لا هوادة فيها ولا سلم معها والذين لم يزالوا يكيدون للإسلام والمسلمين متحزبين للقضاء على هذا الدين الحنيف وقلع جذوره من القلوب وغزوه من جميع نواحيه فكريًا وأخلاقيًا وقضائيًا واقتصاديًا وسياسيًا، فهم في مقاومة متوالية وجهاد مستمر وإغارات متتابعة بنشر كل الوسائل والطرق من حضارة وثقافة مدنية وأنواع الملاهي والفجور والمغريات المتعددة والوسائل الهدامة التي قضوا بها على ديننا وأثروا بها على مجتمعنا تأثيرًا عظيمًا وأصبحنا مهددين في البقية المؤمنة الباقية.

ولذلك كان من واجب قادات المسلمين اليوم وعلمائهم ودعاتهم أن يتألفوا ويتكتلوا ويأخذ كل بيد صاحبه ويرفضوا التدخل في الخلافيات والنظريات الاجتهادية البسيطة بالنسبة إلى غيرها من الكليات، وأن يتسامحوا في الجملة ويتحابوا وأن لا يشدوا النكير إلاَّ على ما ليس له أدنى نصيب من قواعد الشرع، وذلك بحمد الله قليل بالنسبة لغيره وإذا أنكروا فبالحكمة وبالتي هي أحسن؛ فإننا في وقتنا الحالي نعاني تيارات إلحادية، ونقاسي موجات لادينية، ونحارب جهارًا في صميم عقيدتنا وجوهر ديننا وكلياته، فمن كان صادقًا في دعوته مخلصًا في نصيحته فليعطف على المسلمين وليغض الطرف عن اتجاهاتهم الاجتماعية وليقاوم هذه السيول الجارفة التي فاضت علينا من الشرق والغرب، وذلك أفضل بكثير، بل أوجب من الاشتغال بالانتقادات حول بعض الجزئيات الخلافية التي لا نجني من ورائها إلاَّ إيقاد نار العداوة وتفريق شمل المسلمين مع الأسف.

وههنا نشاهد الفوارق الشاسعة بين طبقات العلماء وطبقات الصوفية الذين سلكوا الطريق وتهذبوا حيث أن العلماء غير المهذبين لا يزالون من وقت لآخر في معارك مستمرة بينهم في مسائل فروعية خلافية بسيطة قد تفضي بهم إلى الهجران والتضليل والتكفير، بل والمقاتلة، كل ذلك انتصارًا للرأي والنفس، ودفاعًا عن الرئاسة ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا . . .﴾ الآية [الزخرف: ٣٥]، بينما نجد العارفين والعلماء المهذبين ــ جعلنا الله منهم ــ واقفين مع آداب الشريعة بعيدين عن

الانتصار للنفس والهوى متخلقين بالأخلاق، الكريمة والشمائل المحمدية في كل شؤونهم مقبلين على الله تعالى مهتمين بما يهمهم مشتغلين بما يعنيهم.

وستتجلى للقارىء الكريم هذه الأوصاف بأجلى مظهر في غضون هذا الكتاب الذي ضمّناه تراجم جملة من أكابر أولياء مغربنا ومشاهير شيوخه الذين كانت لهم الآثار العظيمة الخالدة في الإصلاح البشري والنهضة الروحية وتربية أجيال وأجيال من أبناء هذا القطر العزيز وغيرهم، وتهذيب أخلاقهم وإحياء أرواحهم. وسيجد القارىء خلال تراجمهم حكمًا رائقة ووصايا نافعة وتأييدات منعشة ونبذًا من سلوكهم ومجاهداتهم ورياضاتهم في طريق الله عز وجل وما إلى ذلك من معارفهم وأحوالهم وطرف حكاياتهم، وفي ذلك فوائد لا تخفى على اللبيب.

وقد نص سيدي عبد الكريم الجيلي رضي الله تعالى عنه في «مراتب الوجود» والعارف سيدي محمد بن جعفر الكتاني رحمه الله في «شفاء الأسقام» على أن مطالعة كتب القوم الصوفية تقوي الروح. والأمر كما قالا. وقديمًا قال سيد الطائفة الجنيد رضي الله عنه: «الحكايات جند من جنود الله تعالى يقوي بها أبدان المريدين».

وقال يونس بن محمد رحمه الله تعالى: «ما رأيت أنفع للقلوب من ذكر الصالحين». وذكر حجة الإسلام الغزالي في العزلة من «الإحياء» والقاضي عياض في «المدارك» وغيرهما عن سفيان الثوري رحمه الله تعالى؛ أنه قال: عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة[1].

وإتماما للفائدة ذكرت أمام الموضوع مقدمة هامة أوردت فيها بعض الجوانب الصوفية التي لها تعلق ومسيس بالكتاب، والله أسأل وبنبيه أتوسل أن يجعل كل ذلك خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعلني من خاصة أوليائه ومن المحبين الموالين لهم وأن يحشرني وإياهم في زمرة حبيبه ورسوله الكريم سيدنا محمد ﷺ وشرف وعظم ومجد وكرم.



---

(١) وقد أخطأ من ذكره حديثًا كما هو شائع بين كثير من الطبقات العلمية وغيرهم.

التصوُّف والصوفي والولي

بما أننا سنتكلم على الصوفية والأولياء وأحوالهم فلا يفوتنا أن نتعرض ولو إشارة لبيان الصوفي والتصوف والولي وما يتبع ذلك.

أما كلمةُ صوفي فقد تضاربت في أصلها الأقوال قديمًا وحديثًا، فقيل: إنه من أسماء النسب كالقرشي والمدني وأمثال ذلك، وقيل: إنه نسبة إلى أهل الصفة[1] لأن الصوفي تابع لهم في التحقق بما كانوا عليه من التجريد والانقطاع إلى الله تعالى، وفيما أثبت الله تعالى لهم من الوصف حيث قال: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: ٢٨]، وهذا القول اختاره كثير من القوم ورجال الطريق، وعليه مشى ابن البنا في المباحث الأصلية ومنظومته الرائقة التي وضعها في آداب الطريق والسلوك التي شرحها العارف أبو العباس ابن عجيبة رضي الله تعالى عنهما. وإن كان القياس اللغوي يخالف هذه النسبة.

وقيل: هو نسبة إلى الصف المقدم بين يدي الله عز وجل، لأن ذلك حالة الصوفي.

وقيل: نسبة إلى الصفوة من خلق الله تعالى، لأن الصوفية هم القوم المختارون من سائر البشر.

---

(١) أهل الصفة جماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم كانوا يسكنون الجانب الشمالي الشرقي من المسجد النبوي الشريف ولم يكن لهم أهل ولا مأوى وكانوا منقطعين لقراءة القرآن، وعبادة الله، وملازمة النبي ﷺ، والجهاد في سبيل الله.

وقيل: نسبة إلى الصفاء أي صفاء القلب من غير الله بإخلاص العبودية، والتجرد مما سواه.

وقيل: نسبة إلى صوفة.

وكل هذه الأقوال وإن كانت من جهة المعنى والواقع صحيحة فقد ردها المحققون من جهة اللفظ لأنها لا تتوافق ولغة العرب، والأقرب أنه منسوب إلى الصوف لأن القياس اللغوي يؤيده، ولأن لباس الصوف كان من شعار الأنبياء والنساك والمتعبدين، ورجح هذا الرأي واختاره السراج في «اللمع» (ص ٤٠)، والقشيري في «الرسالة» (٤/٣، ٤) بالشرح، والكلاباذي في «التعرف» (ص ٢٩، ٣٠)، وابن تيمية في «الصوفية والفقراء» (١٧/٢)، واليافعي في «نشر المحاسن الغالية» (٣٤٣/٢).

وذكر أبو نصر السراج وغيره أن هذه التسمية «صوفي» كانت موجودة زمن التابعين وفي أواخر أيام الصحابة؛ بدليل أن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قال: رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئًا فلم يأخذه. وأن سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه قال: لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء. ثم ذكر أن مكة المكرمة خلت في وقت من الأوقات قبل الإسلام حتى كان لا يطوف بالبيت أحد وكان يجيىء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف. قال: فإن صح ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الإسم وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح.

وقال الإمام أبو العباس أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى في رسالة «الصوفية والفقراء»: قد نقل التكلم به ـ يعني لفظ الصوفية ـ عن غير واحد من الأئمة والشيوخ كالإمام أحمد بن حنبل وأبـي سليمان الداراني وسفيان الثوري . . . إلخ.

وهذا البحث وما فيه إنما هو في أصل مادة صوفي فقط.

أما الصوفي في العرف، فهو: العارف بالله، المتحقق بمقامات اليقين، المتخلي عن الرذائل، المتحلي بالفضائل. وسيأتي عقبه بعض كلام فيه.

أما التصوف، فقد قال فيه الإمام الجنيد: هو استعمال كل خلق سَنِي وترك كل خلق دنيّ. وقال أبو الحسن الشاذلي: التصوف تدريب النفس على العبودية وردها لأحكام الربوبية. وقال العارف سيدي أحمد زروق في «قواعده»: التصوف علم قصد لإصلاح القلوب وإفرادها بالله تعالى عما سواه. وقال الشيخ زكريا الأنصاري في «شرح الرسالة القشيرية»: التصوف علم تعرف به أحوال تزكية النفوس وتصفية الأخلاق وتعمير الظاهر والباطن لنيل السعادة الأبدية. وقال أبو العباس العارف سيدي أحمد بن عجيبة في «معراج التحقيق»: التصوف هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك وتصفية البواطن من الرذائل وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علـم ووسطه عمل وآخره موهبة. قال سيدي أحمد زروق: وقد حد ورسم بوجوه تبلغ نـحـو الألفين. قال: ومرجع كلها لصدق التوجه إلى الله تعالى، وإنما هي وجوه فيـه. قلت: وانظر بعضها عند القشيري في بحث التصوف من رسالته، وإن شئت التوسع فاقرأ تراجم «حلية الأولياء» فقد ذكر مؤلفها الحافظ أبو نعيم في ترجمة كل شخص ما قيل في التصوف.

وزيـادة في إيضاح هـذا الموضوع ننقـل بعض نصوص أئمتنا وعلمـائنا في ذلك لعظيم فائدتها وكشفها عن مبدأ التصوف وأصله وهدفه وموقعه من دين الإسلام.

قال أبو القاسم سيدي عبد الكريم القشيري في رسالته المشهورة التي كتبها إلى جماعة الصوفية: اعلموا رحمكم الله تعالى أن المسلمين بعد رسول الله ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول ﷺ، إذ لا فضيلة فوقها، فقيل لهم: الصحابة. ولما أدركهم أهل العصر الثاني سمي من صحب الصحابة التابعين، ورأوا ذلك أشرف سمة. ثم قيل لمن بعدهم: أتباع التابعين. ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: الزهاد والعباد. ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعى أن فيهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله تعالى، الحافظون قلوبهم

عن طوارق الغفلة باسم: التصوف، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين هـ. (١/ ٦٨/ ٧٠).

وقال أبو حامد حجة الإسلام سيدي محمد الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» وهو يتحدث عن مراحله في البحث عن الحقيقة وطريق السعادة ما نصه:

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكر لينتفع به أنني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من االعلماء ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً، وأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

قال: وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة طهارتها ــ وهي أول شروطها ــ تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله... قال: ومن أول الطريق تبتدأ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء[1]، ويسمعون منهم أصواتًا، ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة االصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلاّ اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه... إلخ.

وهذا بيان منه لطريق القوم والتصوف بجميع المراحل بدايةً ووسطًا ونهايةً مع ثنائه الكامل على التصوف ورجاله، وذلك منه عن علم وسلوك ومعاينة وتجربة

---

(١) ولا يصل أحد إلى هذا المقام حتى يتطهر ظاهرًا وباطنًا من العيوب النفسانية ورعوناتها، فيتحلى ويتخلى.

طويلة، فهي شهادة صادقة عادلة منه يجب أن تكتب بسواد العيون.

وقال العلاَّمة المؤرخ الاجتماعي عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته المشهورة (ص ٤٦٧ ــ ٤٦٩) طبع دار إحياء التراث العربي بيروت وهو يتحدث عن أنواع العلوم:

وهذا العلم ــ يعني التصوف ــ من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عامًّا في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة . . .

إلى أن قال: صار علم الشريعة على صنفين، صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا، وهي الأحكام العامة في العبادات والعادات والمعاملات، وصنف مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدات ومحاسبة النفس عليها، والكلام في الأذواق والمواجيد العارضة في طريقها وكيفية الترقي منها من ذوق إلى ذوق، وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك.

فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم، فمنهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الأخذ والترك، كما فعله القشيري في «الرسالة» والسهروردي في كتاب «عوارف المعارف» وأمثالهما. وجمع الغزالي رحمه الله تعالى بين الأمرين في كتاب «الإحياء» فدوَّن فيه أحكام الورع والاقتداء، ثم بيَّن آداب القوم وسننهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة علمًا مُدونًا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط، وكانت أحكامها إنما تتلقى من صدور الرجال. كما وقع في سائر العلوم التي دونت بالكتب من التفسير والحديث والفقه

والأصول[1] وغير ذلك. انتهى كلام ابن خلدون رحمه الله تعالى.

وليكن مسك ختامنا لهذا البحث بكلمة هامة جامعة لمولانا الإمام شيخ الإسلام العارف الكبير أبي عبد الله سيدي محمد بن الصديق الغماري قدس الله روحه، فقد قال في جواب له عن سؤال وجه إليه حول هذا الموضوع ما نصه: وأما أول من أسس الطريقة وهل كان تأسيسها بوحي . . . إلخ.

فلتعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بيّنها واحدًا واحدًا دينًا، فقال: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم». فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان؛ ليحرز الداخل فيها والمدعو إليها مقامات الدين الثلاثة الضامنة لمحرزها والقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، والضامنة أيضًا لمحرزها كمال الدين، فإنه كما في الحديث عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بمقام الإحسان ــ الذي هو الطريقة، فدينه ناقص بلا شك ــ، لتركه ركنًا من أركانه. ولذا نص المحققون على وجوب الدخول في الطريقة وسلوك طريق التصوف وجوبًا عينيًا[2]. واستدلوا على

(١) فليقل الطاعنون في التصوف وأنه بدعة بأن هذه العلوم كلها بدع لم تكن في عصر النبوة ولا في عصر الصحابة والسلف، وإن كتابتها والاشتغال بها والسير عليها ضلالة، فإن فاهوا بذلك ــ ولا أخالهم يفعلون ــ فسيبينون عن جهلهم بقواعد الدين وأصوله كما فعلوا مع التصوف، وكفاهم بذلك سفاهة وضلالاً.

(٢) هو مسألة اتفاق بين الصوفية، فقد قال الطيبي: أجمع أهل الطريق على وجوب اتخاذ الإنسان شيخًا له. وقال الغزالي: الدخول مع الصوفية فرض عين؛ إذ لا يخلو أحد من عيب أو مرض. وقال أبو علي الثقفي: لو أن رجلاً جمع العلوم وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلاّ بالرياضة من شيخ مؤدب ناصح. وقال الشعراني: الشيخ في الطريق ضرورة لازمة بالغ ما بلغ علم المريد ولو حفظ آلاف الكتب والنقول. والنصوص بذلك كثيرة، وإنما جعلوا اتخاذ الشيخ فرض عين لأن التحقق بالإخلاص والعبودية الحقة واجب، ولا يصح ذلك إلاّ مع شيخ عارف، وما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب.

ذلك بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً، ولسنا الآن بصدد بيان ذلك.

وقد بيّن القرآن العظيم من أحوال التصوف والطريقة ما فيه الكفاية، فتكلم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة والذكر والفكر والمحبة والتوكل والرضا والتسليم والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة ومخالفة النفس، وتكلم على النفس اللوامة والأمارة بالسوء والمطمئنة وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيدين، وغير هذا مما تكلم فيه أهل التصوف والطريقة رضي الله تعالى عنهم.

قال: وإذا كانت من الدين، بل هي أشرف أركانه، وكانت بوحي كما قلناه، وكانت الصحابة بالحالة التي بلغتنا عنهم، تواترًا؛ من المسارعة إلى امتثال أمر الله تعالى كانوا بالضرورة أول داخل فيها وعامل بمقتضاها وذائق لأسرارها وثمرتها، ولهذا كانوا على غاية ما يكون من الزهد في الدنيا والمجاهدة لأنفسهم ومحبة الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة والصبر والإيثار والرضَا والتسليم، وغير ذلك من الأخلاق التي يحبها الله ورسوله ﷺ، وتوصل إلى قربهما، وهي المعبر عنها بالتصوف والطريقة.

وكما كانوا رضي الله تعالى عنهم على هذه الحالة الشريفة كان أتباعهم أيضًا عليها وإن كانوا دونهم فيها، وكذلك كان أتباع الاتباع وهلم جرًّا إلى أن ظهرت البدع وتأخرت الأعمال وتنافس الناس في الدنيا وحييت النفوس بعد موتها فتأخرت بذلك أنوار القلوب ووقع ما وقع في الدين وكادت الحقائق تنقلب، وكان ابتداء ذلك في أواخر المائة الأولى من الهجرة، ولم يزل ذلك يزيد سنة بعد أخرى إلى أن وصل إلى حالة تخوف منها السلف الصالح على الدين فانتدب عند ذلك العلماء لحفظ هذا الدين الشريف، فقامت طائفة منهم بحفظ مقام الإسلام وضبط فروعه وقواعده، وقامت أخرى بحفظ مقام الإيمان وضبط أصوله وقواعده على ما كان عند سلفهم الصالح، وقامت أخرى بحفظ مقام الإحسان وضبط أعماله وأحواله. فكان من الطائفة الأولى الأئمة الأربعة وأتباعهم رضي الله تعالى عنهم، وكان من الطائفة الثانية الأشعري وأشياخه وأصحابه، وكان من الثالثة الجنيد وأشياخه وأصحابه.

فعلى هذا ليس الجنيد هو المؤسس للطريقة؛ لما ذكرناه من أنها بوحي إلـهي، إنما نسبت إليه لتصديه لحفظ قواعدها وأصولها، ودعائه للعمل بذلك عندما ظهر التأخر عنها، وبهذا السبب نفسه نسبت العقائد إلى الأشعري والفقه إلى الأئمة الأربعة مع أن الجميع بوحي من الله تعالى. انتهى من «التصور والتصديق» لنجله الأكبر الحافظ أبـي الفيض رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ولدينا تحت اليد نُقول وشهادات أخرى للتصوف والصوفية من عدة شخصيات إسلامية بارزة، أضربنا عنها طلبًا للاختصار، ولها موضع آخر ولتحقق الملايين والملايين من كبار العلماء والأئمة عبر العصور من صحة طريق القوم الصوفية وفائدتها العظمى اللازمة انخرطوا فيها وسلموا أنفسهم لأربابها طلبًا منهم لتحقيق مقام الإحسان والتحقق بالعبودية الخالصة، ولم يتخلف عنها إلَّا المتكبرون وأصحاب الرعونات النفسانية. وسيمر بالقارئين عدة شخصيات من رجالات العلم وأئمته كانوا تلامذة لرجال التصوف، حتى العامة والأميين منهم كأبـي مدين الغوث مثلاً مع أبـي يعزى، وأبـي المحاسن سيدي يوسف الفاسي مع سيدي عبد الرحمن المجذوب، وسيدي أحمد بن المبارك مع سيدي عبد العزيز الدباغ، ممن كان فيهم الشيخ أميًا أو عاميًا والتلميذ عالمًا إمامًا عند الناس، وهذه وحدها من أعظم كرامات ومزايا الطريق.

وأما الولي: فهو في الأصل وصف من الولاء والتوالي، ومن الولاية والتولي، ويطلق على القريب بالنسب وبالمكانة والصداقة، وعلى النصير وعلى المتولي للأمر والحكم وغير ذلك، ويطلق على الرب عزَّ وجلّ كما يطلق على العباد. أما من جهة العرف الإسلامي فالولي خاص وعام، فالعام يطلق على كل المؤمنين لأنهم آمنوا به وناصبوا من كفر به العداوة والبغضاء، وكان هو وليهم فأيدهم وأمدهم بتأييداته وبنصره.

وبمناسبة ذكر كل المؤمنين بولاية الله تعالى نذكر هنا ما قاله سيدي محيـي الدين الحاتمي رضي الله تعالى عنه في وصاياه آخر «الفتوحات المكية» (٣/ ٤٤٨،

٤٤٩)، حيث قال: وإياك ومعاداة أهل لا إله إلاّ الله؛ فإن لها من الله الولاية العامة، فهم أولياء الله تعالى وإن أخطأوا وجاءوا بقراب الأرض خطايا لا يشركون بالله لقيهم الله بمثلها مغفرة، ومن ثبتت ولايته فقد حرمت محاربته، ومن حارب الله تعالى فقد ذكر الله جزاءه في الدنيا والآخرة، وكل من لم يطلعك الله تعالى على عداوته لله فلا تتخذه عدوّا وأقل أحوالك إذا جهلته أن تهمل أمره، فإذا تحققت أنه عدو لله ــ وليس إلاّ المشرك ــ فتبرأ منه كما فعل إبراهيم الخليل عليه السلام . . . إلخ.

أما الولي الخاص فهو الداخل في الوصف القرآني الذي أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ . . .﴾ الآية [يونس: ١٠]، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، وهم على مراتب متفاوتة ودرجات، حسب تحققهم بدرجات الاستقامة وإحرازهم على ما يمكن أن يصلوا إليه من الكماليات. وقد عرف لنا الإمام القشيري رضي الله عنه في «رسالته» الولي بهذا المعنى فقال: فإن قيل: فما معنى الولي؟ قيل: أمرين، أحدهما أن يكون فعيلاً مبالغة من الفاعل كالعليم والقديم وغيرهما، فيكون معناه من توالت طاعاته من غير تخلل معصية. ويجوز أن يكون فعيلاً بمعنى مفعول كقتيل بمعنى مقتول وجريح بمعنى مجروح، وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، ويديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الأعراف: ١٩٦]. انتهى كلام القشيري.

وفي «الكشاف» للزمخشري: أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة (٢/ ٣٥٥). وفي «التعريفات» للشريف الجرجاني (ص ٢٢٧)، و «شرح النسفية» للسعد (ص ١٧٥)، و «المحلى على جمع الجوامع» (٢/ ٤٢٠): والولي هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن، المواظب على الطاعات، المجتنب عن المعاصي، المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات. والعامة يطلقون على الأولياء أهل الله والصالحين والسادات. وهي إطلاقات صحيحة صادقة.

ثم إن الأولياء في هذه الأمة الولاية الخاصة قسمان: مقربون سابقون وأبرار مقتصدون. فالأبرار المقتصدون هم أصحاب اليمين الذين تقربوا إلى الله تعالى بالفرائض وفعلوا ما أوجب الله عليهم وتركوا ما حرم عليهم ولم يكلفوا أنفسهم بالمندوبات ولا الكف عن فضول المباحات. أما السابقون المقربون فهم الذين تقربوا إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض ففعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات، وزهدوا في فضول المباحات. وهذا القسم هم الذين تنخرق لهم العوائد ويكرمهم الله تعالى بعلوم ومعارف وحقائق وطرف من أنواع الكرامات.

وقد ذكر الله عز وجل كلا القسمين في كثير من السور القرآنية كقوله تعالى في أول سورة الواقعة ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾ [الواقعة: ٨]، وقال: ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢].

وقال في آخر السورة: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩١].

وقال في سورة الإنسان: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ. . ﴾ الآية [الآيتان: ٥، ٦].

وقال في سورة التطفيف: ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الآيات: ١٨ ـ ٢١].

وذكرهما الله عز وجل في سورة فاطر مع قسم ثالث آخر فقال تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [الآية: ٣٢].

فالقسم الأول من أهل الولاية العامة وهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين فخلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا عسى الله أن يتوب عليهم وهم الأكثرية الساحقة من الأمة اليوم الذين لا يزالون مسلمين، وقد يكونون منتسبين إلى طريق القوم على وجه التبرك ومتشبهين بهم في بعض رسومهم وأعمالهم ومحبين لهم فينتفعون بذلك نفعًا

جمًّا في الدنيا والآخرة، كما فصله السهروردي في «العوارف» والشريشي في «رائيته».

أما بالنسبة للدنيا فلما يتلقونه عنهم من الإرشادات وما يأخذونه عنهم من أنواع الهدايات،

وأما في الآخرة فإن كل مؤمن صالح له شفاعات في أقاربه ومعارفه وأصحابه، وأحوج الناس إلى هذه الشفاعات وأفقرهم إليها ذووا السيآت. وقد نص الصوفية والعارفون ـ منهم العارف الدباغ ـ أن الأولياء وأتباعهم سيحشرون يوم القيامة مع رسول الله ﷺ وكفى بذلك فخرًا ومزية للمنتسبين لأهل الله تعالى؛ فإن الناجي سيأخذ بيد صاحبه في ذلك اليوم العظيم، وذلك بعد أن يأذن الله بالشفاعة، وقد جاء في الحديث الصحيح؛ قيل: يا رسول الله الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم. فقال ﷺ: «المرء مع من أحب»، ولهذا الحديث طرق وألفاظ، وهو متواتر، وفيه بشارة عظيمة للمحبين لأولياء الله وأحبائه، فمحبتهم توجب الكون معهم، جعلنا الله تعالى منهم ومعهم في الدنيا والآخرة، آمين. فالمتشبه بالقوم والمنتسب إليهم وإن لم يكن في صفهم العالي كأكثر المنتسبين اليوم فهو لا يحرم من بركاتهم والكون معهم، وكفى بذلك فضلاً، وفي هذا المعنى يقول القائل:

«فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم　　　إن التشبه بالكرام رباح»

أما القسمان الأخيران فهما من أهل الولاية الخاصة، وهؤلاء هم أهل الاستقامة الذين أثنى الله عليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ...﴾ الآية [فصلت: ٣٠، ٣١]، وهم الطيبون الذين ذكرهم الله بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣١، ٣٢]، وذكرهم بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾ [النساء: ١٢٤]، وفي آية أخرى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]. وهم عباد الرحمن المذكورون بأوصافهم السامية أواخر سورة الفرقان.

ثم إن الولي بشر من جملة بني آدم يجري عليه كل ما يطرأ على جنسه فهو يأكل ويشرب، وينام ويتزوج، ويمرض ويموت ويعقل وينسى، ويجتهد ويخطىء ويصيب، وتصيبه نوائب الدهر وبلايا الحياة، ويدعو فلا يستجاب له أحيانًا، وقد يكون في أهله وأولاده الصالح والطالح، وقد يعصي ويخالف أحيانًا لأنه ليس بمعصوم بل العصمة خاصة بالأنبياء، وقد حكى غير واحد الإجماع على عدم عصمة الولي من الذنوب، نعم إذا صدر منه شيء لا يصر عليه بل يقلع عنه ويتوب من ساعته.

قال الإمام القشيري في «رسالته» (٤/ ١٥٥): فإن قيل: فهل يكون الولي معصومًا؟ قيل: أما وجوبًا كما يقال في حق الأنبياء فلا، وأما أن يكون محفوظًا حتى لا يصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات، فلا يمتنع ذلك في وصفهم، ولقد قيل للجنيد رحمه الله تعالى: العارف يزني يا أبا القاسم؟ فأطرق مليًا ثم رفع رأسه وقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝﴾. انتهى. قال الشيخ زكرياء: أشار إلى أن وقوع الذنب من الولي لا ينافي ولايته.

وقال القشيري أيضًا (٣/ ٢١١): ومن شروط الولي أن يكون محفوظًا، كما أن من شرط النبي أن يكون معصومًا. انتهى. قال الشارح: يكون الولي محفوظًا، أي يحفظه الله من تماديه في الزلل والخطأ إن وقع فيهما بأن يلهمه التوبة فيتوب منهما، وإلاَّ فهما لا يقدحان في ولايته . . . إلخ.

ولكون الولي محفوظًا قال أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه في قول بعض الصوفية: (لا يكون الصوفي صوفيًا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال شيئًا عشرين سنة): وليس معنى ذلك أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة، ولكن معناه إذا أذنب استغفر منه، والملك الموكل بكتب السيآت لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعله أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها قال له ملك اليمين: لا تكتب فعسى أن يتوب. انتهى من «لطائف المنن» لابن عطاء الله (١/ ١٩٧، ١٩٨).

وقال الشيخ زروق في القواعد (رقم ٢١٠): وقد يكون للولي الزلة والزلات والهفوة والهفوات لعدم العصمة وغلبة الأقدار، كما أشار إليه الجنيد رحمه الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ۝٣٨﴾. انتهى...

وقد رأيت كلامًا هامًا للعارف الدباغ رضي الله تعالى عنه في هذا الموضوع أحببت نقله لعظيم فائدته: في «الإبريز» لولي الله تعالى سيدي أحمد بن المبارك (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٦): وسمعته رضي الله تعالى عنه يقول: إن الذين ألفوا في كرامات الأولياء رضي الله تعالى عنهم وإن نفعوا الناس من حيث التعريف بالأولياء، فقد أضروا بهم كثيرًا من حيث أنهم اقتصروا على ذكر الكرامات ولم يذكروا شيئًا من الأمور الفانية التي تقع من الأولياء الذين لهم تلك الكرامات، حتى إن الواقف على كلامهم إذا رآى كرامة على كرامة وتصرفا على تصرف وكشفا على كشف توهم أن الولي لا يعجز في أمر يطلب فيه ولا يصدر منه شيء من المخالفات ـ ولو ظاهرًا ـ فيقع في جهل عظيم لأنه يظن أن الولي موصوف بوصف من أوصاف الربوبية وهو أنه يفعل ما يشاء ولا يلحقه عجز، ويوصف بوصف من أوصاف النبوة وهي العصمة..
إلى أن قال: والناس اليوم إذا رأوا وليًا دعا فلم يستجب له أو رأوا ولده على طريق غير مرضي أو امرأته لا تتقي الله، قالوا: ليس بولي؛ إذ لو كان وليًا لاستجاب الله دعاءه، ولو كان وليًا لأصلح أهل داره. ويظنون أن الولي يصلح غيره وهو لا يقدر على إصلاح نفسه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]. اهـ. فليراجع بقيته فإنه نفيس.

وإذا كان الولي بهذه المثابة والمكانة، فلا يمكن له بحال أن يصل إلى مقام النبوة ولا يحوم حولها فضلاً عن أن يفضل أصحابها، قال القشيري في «الرسالة»: رتبة الأولياء لا تبلغ رتبة الأنبياء؛ للإجماع المنعقد على ذلك، وقال أيضًا نقلاً عن النصراباذي: نهاية الأولياء بداية الأنبياء. وقال أبو يزيد البسطامي لما سئل عن هذه المسألة: مثل ما حصل للأولياء كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة، فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء، وما في الظرف مثل ما لنبينا ﷺ. اهـ. (٣/ ٢١٥).

وقال الطحاوي في «عقيدته»: ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء. وقال النسفي في «العقائد» (ص ١٨٨): ولا يبلغ الولي درجة الأنبياء أصلاً. قال شارحها السعد: فما نقل عن بعض الكرامية[1] من جواز كون الولي أفضل من النبي كفر وضلال. اهـ.

أما ما هو موجود عند الحكيم الترمذي وعبد الكريم الجيلي وابن العربي الخاتمي رضي الله تعالى عنهم في ذلك فمرادهم شيء آخر، وحاشاهم أن يقصدوا ذلك. والله تعالى أعلم.

ثم إن الأولياء بالمعنى المتعارف قد يكونون ظاهرين معروفين إذا كان العصر ملائمًا ومناسبًا لظهورهم كما وجد ذلك في كثير من العصور القديمة وبعض المتأخرة، وقد يكونون مختفين ومتسترين بين عامة الناس إذا فسد الوقت وكفر الناس بهم كما قال ابن عطاء الله في «اللطائف» (١/ ٢١)، فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله تعالى مؤثرين لما سوى الله تعالى لا تنجح فيهم الموعظة ولا تميلهم إلى الله تعالى التذكرة لم يكونوا أهلاً لظهور أولياء الله تعالى فيهم، ولذا قالوا: أولياء الله عرائس، ولا يرى العرائس المجرمون. ثم ذكر مع ذلك: لا بد وأن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة سالكون المحجة . . . إلخ.

وقال سيدي الحاتمي في أوائل «الفتوحات»: من أين لعامة الناس أن يعلموا أسرار الحق تعالى في خواص عباده من الأولياء والعلماء وشروق نوره في قلوبهم؟ ولذلك لم يجعلهم إلاّ مستورين عن غالب خلقه لجلالتهم عنده، ولو كانوا ظاهرين فيما بينهم وأذاهم إنسان لكان قد بارز الله . . . إلخ.

ولما ذكرناه من اختفائهم، كان أغلبهم في كل عصر يميلون إلى الخمول والانفراد، وخاصة في بداية أمرهم، كما قال ابن عطاء الله في «لطائفه» (١/ ٥٩):

---

(١) وكذا الإمامية الذين فضلوا أئمة أهل البيت على سائر الأنبياء غير نبينا عليه السلام.

فمبنى أمرهم في بدايتهم على الفرار من الخلق، والانفراد بالمَلِكِ الحق، وإخفاء الأعمال، وكتم الأحوال، تحقيقًا لفنائهم وتثبيتًا لزهدهم، وعملاً على سلامة قلوبهم، وحبًا في إخلاص أعمالهم لسيدهم . . . إلخ.

والأولياء ليسوا بمحصورين في صنف واحد من الناس ولا في هيأة خاصة ولا في صفة ظاهرة لا يكونون إلاَّ عليها بل قد يكونون في جميع أصناف المسلمين: من علماء، وفقهاء، وأمراء، وقضاة، وتجار، وفلاحين، وأصحاب المهن والحرف، وأهل الثروات ورغد العيش. وفيهم العباد، والزهاد، والعقلاء السالكون، وأرباب الأحوال المجاذيب الذين يسميهم ابن العربي الحاتمي وابن تيمية عقلاء المجانبين، ويوصف بعضهم بالأقطاب والأبدال والأوتاد، وغيرها من الأوسمة، وذلك اصطلاح منهم يعبرون بها عن أقوام بلغوا في الولاية مقامات عالية عزيزة، وقد جاء في السنَّة بعض هذه الأوسمة، ومن أصح ما جاء في ذلك حديث سيدنا علي كرم الله وجهه أنه ذُكِرَ عنده أهل الشام، فقيل له: العنهم. فقال: لا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الأبدال بالشام وهم أربعون رجلاً، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، يسقى بهم الغيث وينتصر بهم على الأعداء ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب». رواه أحمد (١/ ١١٢) بسند صحيح[١].

وفي الباب عن جماعة كثيرين جمعها الحافظ السيوطي في رسالة خاصة أسماها «الخبر الدال»، قال في أوله: وبعد، فقد بلغني عن بعض من لا علم عنده إنكار ما اشتهر عند السادات الأولياء من أن منهم أبدالاً ونقباء ونجباء وأوتادًا وأقطابًا، وقد وردت الأحاديث والآثار بإثبات ذلك فجمعتها في هذا الجزء . . . إلخ.

❊ ❊ ❊

---

(١) مع انقطاع فيه.

بحث في الكرامات

الكرامة في اصطلاح أهل السنَّة هي الأمر الخارق للعادة الذي يظهره الله عزَّ وجلّ على يد عبد مؤمن صالح غير مقرون بدعوى النبوة، وهي حق، وواقعة نطق بثبوتها القرآن الكريم وجاءت بها صحاح السنَّة، ووقع التعبد بتصديق وقوعها، وصدرت أنواعها من ألوف الصالحين من لدن عصر الصحابة حتى يومنا هذا، بحيث يعد منكرها مكابرًا من جهة ومبتدعًا ضالاً من جهة أخرى. ولموقعها من الإسلام ذكرها أئمتنا في كتب التوحيد والأصول، واحتجوا لها بأدلة نقلية وعقلية، وذكروا لها أنواعًا وأمثلة وأصبحت من لوازم عقائد أهل السنَّة.

قال الإمام الكلاباذي في «التعرف» (ص ٨٧، ٨٨): أجمعوا على إثبات كرامات الأولياء وإن كانت تدخل في باب المعجزات كالمشي على الماء وكلام البهائم وطي الأرض وظهور الشيء في غير موضعه ووقته. ثم أشار إلى أدلة ذلك.

وقال القشيري في «الرسالة» (٤/ ١٤٦ ـ ١٥١): ظهور الكرامات على الأولياء جائز... إلى أن قال: وبالجملة، فالقول بجواز ظهورها على الأولياء واجب، وعليه جمهور أهل المعرفة، ولكثرة ما تواترت بأجناسها الأخبار والحكايات صار العلم بكونها وظهورها على الأولياء في الجملة علمًا قويًا انتفى عنه الشكوك.

وقال إمام الحرمين في «الإرشاد» (ص ٣١٦): فالذي صار إليه أهل الحق جواز انخراق العادات في حق الأولياء، وفي «العقائد النسفية مع شرحها للسعد»

(ص ١٧٥، ١٧٦): وكرامات الأولياء حق، فتظهر الكرامة على طريق نقض العادة للولي من قطع المسافة البعيدة في المدة القليلة وظهور الطعام والشراب واللباس عند الحاجة إليها، والمشي على الماء، والطيران في الهواء وكلام الجمادات والعجماء وغير ذلك من الأشياء . . . إلخ.

وقال النووي رحمه الله تعالى في «بستان العارفين» (ص ٥٢): أعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار . . . إلخ.

وقال اللقاني في «جوهرة التوحيد»:

«وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه»

وقال السفاريني في «عقيدة أهل الفرقة المرضية»:

وكل خارق أتى عن صالحِ من تابع لشرعنا وناصحِ
فإنها من الكرامات التي بها نقول فاقف للأدلةِ
ومن نفاها من ذوي الضلالِ فقد أتى في ذلك بالمحالِ
لأنها شهيرة ولم تزلْ في كل عصر يا شقا أهل الزللْ

ونُقول الأئمة والعلماء في هذا كثيرة تخرج عن حد الحصر، ويدل لوقوعها في الإسلام أدلة كثيرة نجملها فيما يلي:

أولاً: قصة أصحاب الكهف الذين لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعًا من غير أن يحصل لهم أي تغيير في أجسامهم مع ما كان الله يقلبهم ذات اليمين مرة وذات الشمال أخرى، وغير ذلك مما نطق به القرآن الكريم في حقهم ابتداء من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ [الكهف: ٩]، إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟﴾ [الكهف: ٢٦]، ولم يكونوا أنبياء إجماعًا.

ثانيًا: قصة مريم البتول حيث قال الله عزّ وجلّ في شأنها: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٨]. فقد كانت وهي لا تزال طفلة صغيرة

في كفالة زكريا عليه السلام إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء أيام الصيف وفاكهة الصيف أيام الشتاء وهذه من أبهر الكرامات، كما أنها ولدت نبـي الله عيسى عليه السلام بدون تلقيح جنسي، ومن غير أن يمسها بشر، وهذا خارق غريب في شكله ووضعه، وبشرها جبريل عليه السلام بولدها وكلمها مقابلة، وعندما ولدت نوديت من تحتها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا. . .﴾ الآية، [مريم: ٢٤ ــ ٢٦]، وهذه خوارق وآيات، ومريم لم تكن نبية كما هو قول الجمهور، وإنما هي صديقة كما أخبر الله عنها، ومقام الصديقية أرفع مقام في الولاية قريب من النبوة.

ثالثًا: قصة صاحب نبي الله سليمان عليه السلام الذي كان عنده علم من الكتاب، والذي جاء بعرش بلقيس وقصرها الهائل من مسافة بعيدة، من اليمن إلى بيت المقدس، في أقل من لمحة البصر، قال الله عزّ وجلّ: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٣٩، ٤٠].

ولم يقل أحد إن هذا كان نبيًا، وإذا صح أنه رجل صالح فقط، وقد تصرف بإذن الله تعالى هذا التصرف العظيم بهمته وروحه وفاق العفريت في القوة الروحانية، ثبتت لدينا كرامات الأولياء ثبوتًا لا تردد فيها. فالعجب ممن ينكرون أمثال هذا من أولياء هذه الأمة وهم أجل وأفضل بكثير من أتباع الأنبياء الأقدمين، إن هي إلاّ مكابرة ومعاندة وبالتالي تلبيس على العامة والغوغاء.

رابعًا: حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فدعا اللَّهَ كلٌ بما صح عنده من صالح عمله فانفرجت عنهم الصخرة فخرجوا. والقصة في الصحيحين عن ابن عمر.

خامسًا: حديث الرجل الذي سمع صوتًا في سحابة (أسق حديقة فلان) فتبع الرجل السحابة حتى أمطرت حديقة، فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته. والحديث في صحيح مسلم وغيره.

سادسًا: حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يسوق بقرة له قد حمل عليها التفتت إليه فقالت: إني لم أخلق لهذا ولكني إنما خلقت للحرث»، فقال الناس: سبحان الله، فقال رسول الله ﷺ: «فإني أؤمن به وأبو بكر وعمر» وما هما، ثم رواه البخاري ومسلم.

سابعًا: حديث الراهب والغلام والساحر وما حصل من الغلام من الخوارق كإبرائه الأكمه والأبرص وما أيده الله تعالى به، وتكلم ذلك الصبي الرضيع مع أمه بقوله لها: يا أماه اصبري فإنك على الحق. والحديث في المسند وصحيح مسلم مطولاً.

ثامنًا: حديث البخاري عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فإنه عمر»، ونحوه في «صحيح مسلم» عن عائشة، وفيه، وفي «جامع الترمذي». قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون. وقد جاء في رواية للبخاري: يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء. انتهى. والمحدثون جمع محدث ــ بضم الميم وفتح الدال المشددة ــ هو الملهم المكلم في باطنه من قبل الله تعالى، كما قال الحافظ في «الفتح». وانظر: «الرسائل والمسائل» (٤/ ٦٢)، لابن تيمية، فإنه اعترف بحصول ذلك ووقوعه من الأولياء، وإن الله تعالى يحدثهم يعني في بواطنهم فاعجب لبعض الغلاة فلا العلماء والأئمة قلدوا ولا الدليل اتبعوا ولا الأدب مع هداة الإسلام سلكوا.

تاسعًا: حديث جريج المعروف وتكلُّم صبي المومسة الذي نسبته إليه، وقوله: إن أبي فلان الراعي. والحديث بذلك مبسوط في الصحيحين.

عاشرًا: ما في صحيح البخاري عن أنس أن أسيد بن الحضير ورجلاً من الأنصار تحدثا عند رسول الله ﷺ حتى ذهب من الليل ساعة في ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا وبيد كل منهما عصا فأضاءت عصا الآخر فمشى كل منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله.

فهذه وأمثالها وأضعافها كلها أصول وأدلة لإثبات الكرامات لا يمكن دفعها ولا ردها، وكل ما جاء فيها يصح أن يصدر من أي صالح وولي لله تعالى، كما قد وقع عمليًا في كل الأزمنة بحيث لا يمكن حصر ما جرى من الخوارق والكرامات، وهذه كتب تراجم الأولياء والصوفية والعلماء ملآنة تزخر بذلك، وقد جمع لنا الشيخ الصالح البركة سيدي يوسف النبهاني رحمه الله تعالى في «جامع كرامات الأولياء» أكثر من عشرة آلاف كرامة بجميع أنواعها عن نحو من ألف وأربعمائة ولي لله تعالى، منهم أربعة وخمسون من الصحابة رضي الله تعالى عنهم، وباقيهم من سائر طبقات الأمة، وهذه كشعرة بيضاء في الثور الأسود في الكثرة، ولذلك قال ابن تيمية بعد أن عد جملة من ذلك في «المعجزات والكرامات»: فإن تعداد هذا مثل القطر وإنما الغرض التمثيل.

ثم إن الكرامات قد تقع بجميع أنواع الخوارق كما اختاره جمهور أهل السنَّة، وهو الذي ارتضاه إمام الحرمين في «الإرشاد» (ص ٣١٧)، حيث قال: وصار بعض أصحابنا ــ يعني أهل السنَّة ــ إلى أن ما وقع معجزة لنبي لا يجوز وقوعه كرامة لولي فيمتنع عند هؤلاء أن ينفلق البحر وتنقلب العصا ثعبانًا ويحيي الموتى كرامة لولي، إلى غير ذلك من آيات الأنبياء، وهذه الطريقة غير سديدة أيضًا، والمرضي عندنا تجويز جملة خوارق العوائد في معارض الكرامة. انتهى.

وقال سيدي الحاتمي في «مواقع النجوم» (ص ٧٦، ٧٧): ومن هذا المقام ينتقلون إلى مقام كريم يقولون فيه للشيء كن فيكون بإذن الله تعالى(١). مقام كريم

---

(١) وراثة نبوية، فقد جاء في كتب السيرة أنه ﷺ لما كان بتبوك قال الناس: هذا راكب على طريق مقبل فقال ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله هو أبو خيثمة. ذكره ابن إسحاق وموسى بن عقبة. وحصل مثل ذلك في شأن أبي ذر أيضًا فقالوا: إن هذا رجل ماش على الطريق فقال ﷺ: «كن أبا ذر»، فلما تأمله القوم قالوا: هو والله أبو ذر. ذكره ابن إسحاق وحسنه ابن كثير في السيرة، أما الحكايات في مثل ذلك عن الصالحين فلا تكاد تحصى، ومن رجع إلى كتب الكرامات وجد العجائب في ذلك، والكل في الحقيقة راجع إلى الله، فما شاءه الله شاءوه، وما شاءوه يقضيه، كما في «هانية ابن بنت الميلق».

ومشهد عظيم قاله عيسى عليه السلام في إحيائه الموتى وإبرائه الأكمه والأبرص، كل ذلك بإذن الله تعالى.

قال: وليس في قضية العقل ببعيد أن يكرم الله وليًّا من أوليائه بهذه الكرامة ويجريها على يده، فإن شرفها راجع للنبي ﷺ فإنه باتباعه ووقوفه عند حدوده صح له ذلك الأمر، وهذه المسألة فيها خلاف بين العلماء، منهم من يثبت معجزة النبي ﷺ كرامة للولي، ومنهم من ينفي ذلك، ومنهم من يثبت للولي كل كرامة لم تكن معجزة لنبي، وأما أصحابنا فلم يتمكن لهم أصلاً نفيها لمشاهدتهم إياها في أنفسهم وفي إخوانهم، فهم أصحاب الكشف لها والذوق، ولو ذكرنا ما شاهدنا منها وما بلغنا عن الثقات منها لبهت السامع. انتهى.

وقال شارح «الدرة المضيئة» (ص ١٨٦): يجوز في الكرامة أن تقع بسائر وجوه الخوارق على اختلاف أنواعها، ولو كتقلب العصا حية وكوجود ولد من غير أب، لا بمثل ما اختص به النبي ﷺ مثل القرآن العظيم . . . إلخ.

وقال النووي: إن القول بالتقييد غلط وإنكار للمحسوس، وأن الصواب وقوعها بقلب الأعيان ونحوه. انتهى.

وقال التاج السبكي في «الطبقات» (٢/ ٣٣٧): وأما جمهور أئمتنا فعمموا التجويز وأطلقوا القول إطلاقًا.

وقال المناوي في «الطبقات»: الجمهور على الإطلاق، وقد أنكروا التفصيل على قائله.

وقال اليافعي في «نشر المحاسن» (١/ ٢٤): ويجوز أن تبلغ الكرامة مبلغ المعجزة في جنسها وعظمها على القول الصحيح المختار . . . إلخ.

ويؤيد هذا الإطلاق مع المشاهدة والواقع أحاديث نبوية، وهي:

عن حارثة بن وهب الخزاعي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. . .»

الحديث. رواه أحمد (٤/ ٣٠٦)، والبخاري في سورة ن من التفسير، ومسلم في كتاب الجنة، والترمذي (رقم ٢٤١٩) بتهذيبي، والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره». رواه مسلم في صحيحه من كتاب البر.

وعن أنس رضي الله عنه في قصة عمته الربيع، وقوله ﷺ: «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره». رواه البخاري في الصلح وفي التفسير. فقوله ﷺ: «لو أقسم على الله لأبره»، معناه أنه لو حلف على الله في تكوين شيء لأجابه الله تعالى، وقضى مراده وأبر حلفه ولم يحنثه؛ لكرامته عليه ومحبته لديه، والأحاديث مطلقة لا مقيد لها.

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه وإن استعاذني لأعيذنه». الحديث رواه البخاري في «الرقاق من صحيحه» وهو حديث صحيح خلافًا لمن طعن فيه أو حاول كما فعل الذهبي في الميزان، وقد صرح ابن تيمية في المعجزات بأنه أصح حديث في الأولياء. فظاهر هذا الحديث الشريف يقتضي أن الله عز وجل إذا أحب عبده الصالح كان له ناصرًا ومؤيدًا ومعينًا وحاميًا له كل جوارحه عما لا يرضاه وإنه قد يعطيه قوة في جوارحه يستطيع معها بإذن الله عز وجل أن يفعل ما يشاؤه الله ويجريه عليها من الكرامات والآيات اللائقة بها.

ونظرًا لهذا الحديث ومطابقته للواقع يذكر لنا سلطان العارفين سيدي محيي الدين الحاتمي رضي الله تعالى عنه في هذا الموضوع كلامًا هامًا وبحثًا رائقًا في كرامات الجوارح فيقول في كتابه «مواقع النجوم»[1] (ص ٧٦، ١٤٢) ما ملخصه:

---

(١) كتابه هذا أثنى عليه في الفتوحات، وقال عنه: إنه يقوم مقام الشيخ المربي.

العين: من كراماتها إذا استعملت في الطاعات وجنبت المخالفات المناسبة لها: رؤية الزائر قبل قدومه على مسافة بعيدة وخلف حجاب كثيف، ورؤية الكعبة عند الصلاة حتى يتوجه إليها وما أشبه هذا. ومن كراماتها مشاهدة العالم الملكوتي الروحاني والترابي من الملائكة والملأ الأعلى والجن والخضر عليه السلام والأبدال.

الأذن: من كراماتها إذا استعملت في الطاعات وجنبت المخالفات المناسبة لها: إثبات البشرى له بأنه من أهل الهداية والعقل عن الله تعالى وهي الكرامة الكبرى. قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ . . .﴾ الآية [الزمر: ١٧ ــ ١٨]. ومن كراماتها سماعها نطق الجمادات، فإذا تحقق به تطرأ عليه حالة لا يشاهد فيها شيئًا من الوجود إلاَّ مسبحًا بلسان ناطق كنطق زيد وعمرو.

اللسان: من كراماته إذا استعمل في الطاعات وجنب المخالفات التي تناسبه: مكالمته للعالم الأعلى ومحادثته لهم فإن العبد قد يتحقق بالسماع فيكون ممن ينادي ويهتف به، فإذا كلم لا يرد عليه، فإذا صحت المكالمة بينه وبينهم وتنازعوا الحديث فما كان من حديثه لهم فمن تحققه بلسانه وما كان من حديثهم له فمن جهة تحققه بإذنه وما كان من مشاهدته لهم فمن جهة تحققه ببصره، وهكذا في جميع الأعضاء المذكورة وذلك للمناسبة التي بينهم. ومن كرامته أيضًا نطقه بالكون قبل أن يكون، والإخبار بالمغيبات والكائنات قبل حصول أعيانها في الوجود.

اليد: من كراماتها إذا استعملت في الطاعات وجنبت المخالفات المناسبة لها: إدخال يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء كان هذا لموسى عليه السلام، ونبع الماء من بين الأصابع كان هذا لسيدنا محمد ﷺ، ورمي التراب في وجوه الأعداء فانهزموا، وقبض ما شاء الله من الأولياء في الهواء فيفتح يده عن فضة وذهب. إلى أمثال ذلك.

البطن: من كراماتها التي لا يدخلها مكروه الاستدراج إذا استعمل في الطاعات وجنب المخالفات المناسبة له: أن يحفظ عليه طعامه وشرابه ولباسه بعلامة يلقيها الله

تعالى له إما في نفسه أو في نفس الشيء الذي قامت به صفة الحرام أو الشبهة حتى لا يتناول شيئًا إلا طيبًا، كما ذكر عن الحارث المحاسبي رضي الله تعالى عنه: كان إذا قدم له طعام فيه شبهة ضرب عرق على أصبعه. وكأم أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنهما ما دامت حاملاً به ما تمد يدها إلى طعام حرام. وآخر ينادى، يقال له: تورع. وآخر يأخذه الغشيان. وآخر يصير الطعام أمامه دمًا. وآخر يرى عليه سوادًا. وآخر يراه خنزيرًا، إلى أمثال هذه العلامات التي خص الله بها أولياءه وأصفياءه.

ومن كراماته أن يشبع القليل من الطعام الرهط الكثير وهذا ميراث نبوي من فعل رسول الله ﷺ. ومن كرامته أيضًا: أن ينقلب اللون الواحد الذي في الصحن أنواعًا من الطعام في حاسة الأكل إن اشتهاه بعض الحاضرين.

ومن كرامته أيضًا: أن يأتي لصاحب هذا المقام الجن أو الملك بغذائه من طعامه وشرابه ولباسه، أو يعلق له في الهواء. ومن كرامات هذا المقام: الأكل من الغذاء الحلال إما بكسب أو بورع التوحيد الذي قال فيه بعض المشايخ: العارف من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه، فإن حصل الحلال فالتقليل منه، فإذا تحقق بذلك نشأت في باطنه همة فعالة قاضية يوجدها الله في نفس هذا العبد كرامة له وتصحيحًا لمقامه وصدقه، وعن تلك الهمة يصدر جميع ما ذكرناه وأمثاله. وكرامات أخر مما لم يخطر للعبد فيها خاطر.

الفرج: من كراماته إذا اتصف بفعل الطاعات وترك المخالفات المناسبة له: المشي على الماء وطي الأرض والمشي في الهواء، والحكايات في هذا المقام أشهر من أن تذكر، فلم نحتج إلى ذكرها هنا لشهرتها ولأن الدواوين مُلئت منها، وقد رأينا من أهل هذه الطريقة عالمًا كثيرًا ممن مشى على الماء وفي الهواء وطويت له الأرض عيانًا.

القلب: من كراماته إذا اتصف بالطاعات وترك المخالفات التي تناسبه: معرفته بالكون قبل أن يكون. ومن كراماته إطلاع الحق سبحانه له على ما أودع في العالم

الأكبر من الأسرار. ومنها أن يطلعه الله تعالى على العلة والسبب الذي لأجله وجد أمر ما أو عن أي كون كان من الأكوان في العالم روحانيًا أو غير روحاني على الجملة. قال: وجميع الكرامات التي جعلناها للأعضاء هي راجعة إليه، وله كرامات أخرى مختصة به. انتهى ما ذكره ابن العربي.

قلت: وبعض هذه الكرامات قد تقع لبعض المريدين في أوائل قدمهم في الطريق ليستَدلوا بذلك على صحة منهجهم، ولئلا يقعوا فيما بعد أسارى في أيدي الشياطين من الإنس والجن، فإن من شاهد كرامة من نفسه أو في غيره لا تتغير عقيدته أبدًا إلَّا من شاء الله إضلاله، أجارنا الله وأعاذنا من ذلك، آمين.

فائدة اختتامية:

وقد يتساءل بعضهم كثيرًا عن السر في صدور الكرامات بكثرة من غير الصحابة؟!

والجواب عن ذلك، هو ما قاله الإمام أحمد وغيره: أولئك كان إيمانهم قويًا فما احتاجوا إلى زيادة يقوى بها إيمانهم، وغيرهم ضعف الإيمان في عصره فاحتيج إلى تقويته بإظهار الكرامات، ذكره التاج في «الطبقات» واليافعي في «النشر» وغيرهما.

وقال العارف السهروردي في «العوارف» وخرق العوائد إنما يكاشف به لموضع ضعف يقين المكاشف رحمة من الله تعالى لعباده العباد، ثوابًا معجلاً، وفوق هؤلاء قوم ارتفعت الحجب عن قلوبهم...

ولهذا ما نقل عن أصحاب رسول الله ﷺ من ذلك إلَّا القليل، ونقل عن المتأخرين من المشايخ والصادقين أكثر؛ لأن أصحاب رسول الله ﷺ لبركة صحبة النبي ﷺ ومجاورة نزول الوحي وتردد الملائكة وهبوطها تنورت بواطنهم وعاينوا الآخرة وزهدوا في الدنيا وتزكت نفوسهم ... إلخ. أي: فلم يحتاجوا مع ذلك إلى خوارق؛ لأن ما كانوا فيه أعظم وأجل من كل آية وكرامة. ونحو ما ذكره السهروردي عند ابن تيمية في «المعجزات»...

ومع أن الكرامة هي نعمة من الله تعالى وثمرة أعمال الصادقين، فإن المحققين من أهل الطريق لا يعيرونها شيئًا كبيرًا من الأهمية بحيث يجعلونها منتهى قصدهم ومحط رحالهم، بل هي عندهم شيء إضافي يطرأ عليهم عند سيرهم تكون لهم كعلامة على صدق توجههم، أما الذي يأمرون به ويحضون عليه ويعتبرونه ويهتمون به هو الاستقامة والعبودية الخالصة، كما قال العارف أبو علي الجوزجاني: كن طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة. وقال الإمام القشيري: من أجلِّ الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعة والعصمة من المعاصي والمخالفات.

ولنمسك عنان القلم عن الاسترسال في هذا الموضوع الطويل الذيل ولنكتف بهذه النبذة اليسيرة المفيدة، إن شاء الله تعالى.



التصوُّف في مغربنا العربي

كان أول ظهور الصوفية في المائة الثانية من الهجرة النبوية، ثم انتشروا بعد ذلك انتشارًا واسعًا في الشرق الإسلامي، ونبغ فيهم رجال بين الأوساط العلمية وغيرها، وتكونت منهم عدة طبقات، ووجد فيهم أئمة كبار من أبرزهم الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، والسري السقطي، وشقيق البلخي، وذو النون المصري، وأبو القاسم الجنيد، وسهل بن عبد الله التستري، وإبراهيم الخواص، وأبو يزيد البسطامي، والحكيم الترمذي، والحارث المحاسبي، وأبو سليمان الداراني، وابن أبي الحواري، وأبو نصر السراج، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو القاسم القشيري وغيرهم من شيوخهم وتلامذتهم وأتباعهم ممن ضمنهم أبو نعيم كتابه «المطرب» «الحلية» والسلمي «الطبقات» والقشيري «الرسالة» والخطيب «تاريخ بغداد».

وعلى الرغم من هذا الظهور العام للتصوف والصوفية وقيام دولتهم وحركتهم في الشرق العربي والإسلامي بقي مغربنا بمعزل عنه لم ينصبغ أهله بصبغته ولم يعرفوه كما عرفه إخوانهم المشارقة إلاَّ في أوائل المائة الخامسة للهجرة أو قبلها بقليل، وذلك في عهد المرابطين، وعندما ظهر بهذه الديار لم يكن معروفًا بمعناه المتعارف فيما بعد، بل كان مبناه على الزهد والتقشف والنسك وحمل النفس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظواهر الشريعة دون تغلغل في علوم المكاشفات والحقائق، ولذلك لم يوجد في هذا العصر صراع بين المتفقهة والمتصوفة كما وقع بعد ذلك وكما حصل في الشرق قبل هذا العهد أيضًا بزمان لأنهم لم يأتوا بشيء جديد يخالف ظاهر الشريعة كما يراه الفقهاء على أن هذه الظاهرة كانت موجودة في القرون الأولى بكثرة وحتى في البلاد

الأندلسية وهذه العدوة المغربية فقد وجد فيهما كثير من الزهاد والنساك والمتقشفين منذ دخلهما الإسلام كما نرى ذلك جليًا في الطبقة العلمية في «تاريخ العلماء» لابن الفرضي و «الصلة» لابن بشكوال و «الديباج» و «المدارك» وغيرها.

نعم في وسط المائة الخامسة دخلت بعض كتب التصوف للمغرب، حيث كان قد جاء بها من مكة المكرمة أبو عبد الله محمد بن سعدون القيرواني نزيل أغمات من بلاد مراكش والمتوفى بها سنة ٤٨٥هـ، ولكن ذلك كما يظهر لم يحدث بين الأوساط العلمية والدينية أثرًا ولا حصل بين الفقهاء والمتزهدين بسبب ذلك تنافر ولا صراع، ولكنه في أواخر هذا القرن فوجىء العلماء بـ «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي فتصفحوها ورأوا فيها ما لم يألفوه فأفتوا بإحراقها وتحريم قراءتها، وكان الذي يتولى كبر هذا الحادث الخطير الذي لم يقع أشنع منه كما يقول صاحب «الاستقصا» في زمن المرابطين هو قاضي قرطبة عبد الله بن حمدين من طرف علي بن يوسف بن تاشفين، ثم تبعه كثير من فقهاء العدوتين، وكان العارف سيدي علي بن حرازم ممن شارك في ذلك ثم تداركه الله فرجع، وعقب هذا الحادث وقع انخرام في دولة المرابطين وجعل أمرها يتدهور ويضطرب وحصل انحلال فيها وانتشر الظلم والفجور وظهر منشىء دولة الموحدين المهدي بن تومرت الذي كان ابتداء ظهوره سنة ٥١٥هـ. وحصلت فتن وحروب ومعارك أهلية لم تهدأ إلاَّ باضمحلال دولة المرابطين وسقوطها والأمر لله وحده.

والمقصود أن أول ظهور التصوف كان أيام المرابطين، وفي أواخر دولتهم انتشر في المغرب والأندلس لا سيما بعد دخول «الإحياء» لهذه الديار، فإن هناك من كان قد شغف بالكتاب على الرغم مما كان حاصلاً من فتنة من يوجد عنده فهذا أبو الفضل ابن النحوي ذكروا عنه أنه كان قد كتب «الإحياء» في ثلاثين جزءًا واعتكف على قراءته وخاصة في شهر رمضان، فكان يقرأ كل يوم حصة منه وكان يقول: وددت أني لم أنظر في عمري سوى هذا الكتاب. رحمه الله تعالى وإيانا، آمين.

وهذا أوان ذكر ما أردناه، فنقول مستعينين بالله عز وجل:



سيدي أحمد بن العريف الطنجي

في أيام المرابطين بدأت حركة التصوف تسير في المغرب وتظهر بين الأوساط كما وقع ذلك أيضًا ببلاد الأندلس، ويعد ذلك من بركة هذه الدولة الميمونة.

وفي عصر الإمام العظيم يوسف بن تاشفين ثم عصر ولده علي بن يوسف كان يعيش مترجمنا ابن العريف.

وأبو العباس ابن العريف شخصية بارزة مشهورة قد ترجمته كثير من المصادر التاريخية وأثنى عليه الكثيرون، ويكفيه جلالةً ونبلاً أن يذكره ويستشهد بكلامه أمثال السادات ابن العربي الحاتمي وابن عباد والشعراني. وقد اتفقت المصادر على أن اسمه الكامل أبو العباس أحمد بن محمد بن عطاء الله الصنهاجي الأندلسي المري المعروف بابن العريف. أصله من طنجة، وكان والده من حرس[1] الليل بها. قرأ بالأندلس واستقر أمره أخيرًا بالمرية. من أشهر شيوخه وأجلتهم أبو علي الصدفي الحافظ[2]، ومن كبار تلامذته مولاي علي بوغالب القصري الآتي بعده. ومن

(١) جمع حارس.

(٢) هو الحسين بن محمد بن حيون السرقسطي المحدث الحافظ، إمام عصره وآخر أئمة الأندلس، كان عالمًا بالحديث ورجاله موصوفًا بالدين والعفة والصدق. له رحلة واسعة للشرق وأقام ببغداد خمس سنين، من شيوخه: أبو عمر بن عبد البر وأبو الوليد الباجي وأبو بكر الطرطوشي، ومن تلامذته: القاضي عياض وابن بشكوال والسلفي وغيرهم، ذكر عنه القاضي عياض أنه قال لبعض الفقهاء: خذ الصحيح ـ يعني البخاري ـ فاذكر أي متن أردت أذكر لك سنده أو أي سند أردت أذكر لك متنه. كانت وفاته سنة ٤٥٢هـ.

أصدقائه القاضي عياض السبتي، ومن معاصريه المشاهير حجة الإسلام الغزالي، ومحمود الزمخشري، والقاضي أبو بكر محمد بن العربي، والإمام المازري، وأبو الوليد بن رشد، وأبو بكر الطرطوشي وغيرهم.

كان ابن العريف رضي الله تعالى عنه مقرئًا محدثًا فقيهًا صوفيًا زاهدًا ورعًا ناسكًا منقطعًا إلى الله تعالى على طريقة السلف قليل النظير بعيدًا عن مصايد الدنيا وأبنائها متجافيًا عن رجال الدولة وولاتها، توفي شهيدًا بمدينة مراكش سنة ٥٣٦هـ.

ويعد ابن العريف من الصوفية الأوائل الذين وصلت إلينا معرفتهم بهذه الديار، ومولاي أبو يعزى وإن كان من السابقين أيضًا فإنه قد تأخر بعده مدة ولذلك أخرناه نظرًا لهذا المعنى.

نعم أقدم من عرفناه قبله بهذه الديار من العلماء الزهاد سيدي دراس بن إسماعيل الفاسي، كان فقيهًا له رحلة للديار الشرقية ودخل الأندلس مرارًا مجاهدًا، وكان من الزهاد وعباد الله الصالحين، توفي سنة ٣٥٧هـ بفاس وقبره خارج باب الفتوح معروف. وفي «ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع» (ص ١٦٢)، من ترجمة العارف سيدي أحمد البربيري التطواني أنه: زار مرة ضريح سيدي دراس هذا مع العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي وجماعة، فقال لهم صاحب الترجمة: ألا تسمعون ما يقول لكم هذا الشيخ؟ فقالوا له: لا، قال: إنه يقول لكم أحييتم قبري أحيا الله قلوبكم. انتهى.

أما المولى إدريس، فاتح المغرب، دفين زرهون، وخليفته ونجله الأزهر مولانا إدريس الأنور دفين فاس، فهما من طراز آخر فوق كل ما ذكرناه ههنا، وقد أفردهما الناس بالتآليف العديدة رضي الله تعالى عنهما.

ترجم ابنَ العريف ابنُ بشكوال في «الصلة» فقال فيه: كان متناهيًا في الفضل والدين منقطعًا إلى الخير يقصده العباد والزهاد ويألفونه، بينه وبين القاضي عياض مكاتبات حسنة وله كرامات ودعوات مستجابة، من أهل الجد والاجتهاد وملازمة الأذكار وصحبة العباد والزهاد، فحسده قاضي المرية ابن الأسود فكتب فيه للخليفة

علي بن يوسف بن تاشفين وخوفه من حاله فكتب لعامله أن ابعث إلينا ابن العريف فجعله في القارب ــ سفينة صغيرة ــ في البحر لسبتة، فأشار القاضي على العالم بقيده فأرسل رسوله فقيده وهو في البحر، فقال ابن العريف: روعنا روعه الله. فلقيه العدو في البحر فأسروه، فلما وصل لسبتة وافاه رسول السلطان بالأمان وحل قيده فقال: كنت لا أريد معرفة السلطان، وقد عرفني، فلا بد من رؤيته فوصل لمراكش فأقبل عليه السلطان وعظمه وأكرمه وسأله عن حوائجه، فقال: لا حاجة لي إلاَّ أن تخليني أذهب حيث شئت. فأذن له، ثم دس عليه القاضي بسم في باذنجان فمات بمراكش. قال: وندم السلطان على ما كان منه ثم أنهي إليه ما حصل له من ابن الأسود فحلف لأفعلن به مثل ذلك، فغرب وسم كذلك. انتهى.

وهكذا يتعرض الصالحون والدعاة إلى الله والمرشدون إلى البلايا بواسطة عملاء إبليس ووشاية الجواسيس والحسدة، وهذه الظاهرة لا يخلو منها عصر، فالله المستعان.

وترجمه ابن خلكان في وفيات الأعيان، وقال فيه: كان من كبار الصالحين والأولياء المتورعين، وله المناقب المشهورة، وله كتاب «المجالس» وغيره من الكتب المتعلقة بطريقة القوم، وله نظم حسن . . . إلخ.

وترجمه أحمد بابا في «نيل الابتهاج» وقال فيه: كان أحد الأولياء المتسمين بالعلم والزهد والورع والإيثار فأصبح من أعلام المتصوفة ورجال الكمال. انتهى.

ومن فوائده ما ذكره غير واحد من الأعلام عنه أنه قال: إذا أراد الله تعالى أن يهيِّىء عبدًا للإمامة والاقتداء شغله في أيام غفلته بعلم الظاهر من القراءة والعربية والفقه والحديث ثم ينقله إلى علم الأحوال والمقامات فعند ذلك يستحق الإمامة والتقدم. نقله الفاسي في «مرآة المحاسن».

ومنها ما ذكره المواق في سنن المهتدين بسنده إليه، قال: كنت جالسًا في مجلس أستاذي أبي علي الصدفي أقرأ عليه الحديث فقرأ يومًا الحديث ثم أغلق

الكتاب وجعل يحكي حكايات الصالحين فوقع في نفسي كيف يجيز الشيخ أن يقطع حديث رسول الله ﷺ ويحكي حكايات الصالحين، قال: فما تم لي الخاطر حتى نظر إلي الشيخ شذرًا وقال لي: يا أحمد الحكايات جند من جنود الله يثبّت الله بها قلوب العارفين من عباده، ثم قال: ومصداق ذلك من كتاب الله تعالى، قوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]. انتهى.

ومـن مكاشفاتـه:

ذكر ابن الزيات في التشوف أن أخا لابن العريف أراد حضور مجلس أخيه مع صاحب له فقال أحدهما للآخر: نتطهر لحضور مجلس الشيخ، فقال له الآخر: إنما نتطهر لله عز وجل، فذهبا إلى مجلسه فوجداه يتكلم، فلما رآهما قال: ولقد أحسن القائل منكم حيث قال: إنما نتطهر لله. انتهى.

وما أشار به الشيخ أراد به على سبيل اللزوم، أما على سبيل الاستحباب فالطهارة مستحبة في كل وقت؛ لحديث: «لا يحافظ على الوضوء إلاَّ مؤمن»، حديث صحيح رواه الدارمي وابن حبان وغيرهما. ويستأنس لوضوء لقاء العلماء والصالحين بحديثي أبـي هريرة وحذيفة في انخناسهما عن النبـي ﷺ وتحفظهما من ملاقاته على غير طهارة، والحديثان في الصحيح.

وذكـر ابـن الـزيـات أيضًـا أن بعـض أصحـاب الشيـخ كـان عقـد علـى نفسـه أن لا يتكلم وقت وضوئه إلاَّ بذكر الله عز وجل، ولا يرد سلامًا على أحد حتى يفرغ من وضوئه، فبينما هو يتوضأ على ساحل البحر بالمرية إذ مر به رجل يمشي على الماء، فسلم عليه فلم يرد عليه السلام، فكلمه فلم يجبه، فلما فرغ من الوضوء عاد إلى المجلس فقعد فيه فإذا بالرجل الماشي على الماء قد دخل المسجد وأتى الشيخ فسلم عليه وكلمه في وديعة أودعها عنده فسلم عليه وانصرف، فلما ولى قال ابن العريف: أتظنـون أنـه ليـس لـي أصحـاب غيـركـم ثـم قـال: مـا بـال أحـدكـم يعقـد علـى نفسـه ما لا يجب في وظائف الشرع. انتهى.

أما ما كان من إلزام الرجل نفسه عدم الكلام عند الوضوء، فهذا لم يرد فيه شيء عن الشارع لا نفيًا ولا إثباتًا والأصل الإباحة، أما امتناعه من رد السلام فورد فيه حديث عند ابن ماجه لكنه شاذ غير محفوظ، والصحيح ما جاء في مسلم والسنن عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: أن رجلاً سلَّم على النبي ﷺ وهو يبول فلم يرد عليه، فالممنوع عند البول لا الوضوء. وإذًا فابن العريف مصيب في انتقاده على ذلك التلميذ، مصادف للحق. وترجمته واسعة، وفيما ذكرناه كفاية، والله تعالى أعلم.

❊ ❊ ❊

مولاي علي بو غالب القصري

مولاي علي بو غالب دفين القصر الكبير هو الشيخ العلاَّمة الإمام الفقيه المحدِّث الزاهد الورع العارف بالله تعالى أحد الأوتاد، أبو الحسن علي بن خلف بن غالب الأنصاري القرشي الأندلسي الفاسي فقيه فاس وعالمها. من شيوخ سيدي أبـي مدين الغوث الذين قرأ عليهم وتفقه بهم وحدث عنهم، وقد أتيح لأبـي مدين أن يقرأ عليه جامع الترمذي. كما يعد من شيوخ الإمام العلاَّمة سيدي عبد الجليل القصري[1]. ويعد في تلامذة العارف ابن العريف وولي الله أبـي الحكم بن برجان ومن المعاصرين لأبـي يعزى وسيدي علي بن حرازم ومولاي بو شعيب السارية ومولاي عبد القادر الجيلاني وسيدي أحمد الرفاعي وغيرهم. ومن العلماء والصوفية الذين عاشوا أيام الدولتين العظيمتين المرابطية والموحدية.

وكان مولاي علي شيخ الصوفية في وقته والملقب بالعارف في عصره، ومن سادات أهل زمانه المقتفين آثار رسول الله ﷺ وطريقة السلف، شديد التمسك بالكتاب والسنَّة متمكنًا في علوم القوم، وكان الأولياء والمشاة في الهواء يحضرون مجالسه، وكان إذا أشكل عليه شيء نظر إلى أي جهة كانت من جهات البيت فيجده

---

(١) هو عبد الجليل الأوسي الأنصاري، من كبار علماء المغرب في القرن السادس الهجري، وكانت له مشاركة واسعة وتآليف كثيرة رائقة، منها: مختصر شعب الإيمان في مجلدين نفيس يحتوي على فوائد وتحقيقات رأيته وقرأت منه جملة توجد منه نسخة بالخزانة العامة بالرباط، وقد طبع مؤخرًا. وكان المترجم من كبار الصوفية صحب مولاي أبا يعزى وغيره، توفي سنة ٦٠٨هـ رحمه الله وإيانا.

مسطورًا. نشأ بشلب من بلاد الأندلس وبها قرأ وتأدب، ثم رحل إلى قرطبة واستوطنها وأتم بها دراسته، ثم انتقل إلى مدينة فاس فاتخذها قرارًا ومسكنًا وبقي بها سنين ينشر العلم ويربي المريدين، ثم استقر أخيرًا وانتهى به المطاف إلى القصر الكبير وبه توفي سنة ٥٦٨هـ، ودفن بباب سبتة على يمين الداخل للقصر، وعليه بناية وإلى جنبه مسجد تقام فيه الصلوات الخمس، زرته كثيرًا وانتفعت بزيارته ووجدت لها أثرًا وبركة.

وذكر من ترجمه عن سيدي عبد الجليل القصري أنه رأى في منامه ليلة موت مولاي علي مكتوبًا في السماء: فُقِدَ وتد.

وذكر ابن الزيات في «التشوف» عنه أنه ورث من أبيه اثني عشر ألف دينار فتصدق بها كلها وقال: كان والدي رحمه الله تعالى لا يحسن الفقه فسمع بذلك شيخه ابن العريف فقال: يا أبا الحسن هلا طهره الثلث. انتهى.

وهذا من شدة تورعه رضي الله تعالى عنه لأن من كان جاهلاً بأحكام الحلال والحرام والكسب والمعاملات قلما يكون ماله حلالاً خالصًا وبما أن والده كان كذلك ترك ماله اتقاء للشبهة وخوفًا من تناول الحرام.

ترجمه التادلي في «التشوف»، وابن الخطيب في «أنس الفقير»، وأطال الكلام عليه سيدي محمد بن جعفر رحمه الله تعالى في «سلوة الأنفاس» فحياك الله يا سيدي علي ونوّر ضريحك وجزاك الله على ما أسديت لأمتك وما خلفت وراءك من رجال وما تركت من إشعاع.



سيدي علي بن حرازم

سيدي علي بن حرازم من علماء فاس الكبار وصوفيته المشاهير، أدرك أواخر دولة المرابطين وشارك في الموافقة على حادث إحراق «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالي رضي الله تعالى عنه، وعاش مع الموحدين وفي دولتهم نحوًا من اثنتين وعشرين سنة.

اسمه الكامل: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله بن حرزهم بكسر الحاء وسكون الراء وكسر الزاي والهاء، كذا ضبطه بعضهم. وضبطه آخرون حرازم، والأول أصح، والثاني: هو المشهور على الألسنة. ترجمه التادلي، وابن الخطيب، وأحمد بابا، والناصري في «الاستقصا»، وابن جعفر في «السلوة».

واتفقوا على أنه ولد بفاس وبها نشأ، وتلقى العلوم وأنه كان من كبار العلماء فقيهًا وحديثًا وحفظًا، له مشاركة في شتى العلوم، وكان عابدًا زاهدًا ورعًا متصوفًا متحققًا به، يعد من تلامذة القاضي أبـي بكر بن العربـي وسيدي علي بوغالب المتقدم وعنه أخذ «جامع الترمذي»، ويعد أيضًا في جملة شيوخ سيدي أبـي مدين الغوث رضي الله تعالى عنه، وأنه انتفع به كثيرًا. ومن معاصريه ما تقدم ويأتي.

وكان سيدي علي في ابتداء أمره قد قرأ «الإحياء» فور دخولها للمغرب وجرَّد ما فيها من المسائل المنتقدة على الغزالي ليرد عليه فيها، ووافق على إحراق الكتاب بعض من أفتى بذلك فرأى عقب ذلك رؤيا هائلة تأثر بها تأثرًا عظيمًا وكانت السبب في تصوفه ورجوعه عن رأيه وفتواه الجائرة، توفي سنة ٥٥٩هـ، ودفن خارج باب

الفتوح من فاس، والدعاء عند قبره مستجاب، كما ذكره غير واحد، وعند ضريحه اجتمع القطب سيدي عبد العزيز الدباغ بالخضر ولقنه الورد كما يأتي إن شاء الله تعالى في ترجمة الدباغ رضي الله تعالى عنه.

من مناقبه:

ذكر التادلي في «التشوف» قال: سمعت أبا عمران موسى بن يوسف يقول: أدركت ابن حرزهم وأنا صغير ودعا لي. وكان يقول: لن أصوم مع الناس هذا الشهر المقبل يعني رمضان. وذكر عن أحمد بن عيسى الأنصاري أنه قال: سمعت أبا الحسن غير مرة يقول: أموت في العام الفلاني. وفي ذلك العام نفسه مات. وقبل وفاته دخل الحمام وقال لخَدَمته: لم يبقَ لكم من خدمتي إلاّ هذا اليوم. فلما خرج منه أتى منزله فاستلقى على فراشه، فلما جاء وقت صلاة العصر أتاه بعض تلامذته ليوقظه للصلاة فوجده ميتًا.

وذكر أيضًا عن رجل آواه المبيت إلى رابطة للعباد خارج فاس، فلما كان من السحر قام والعباد ما بين ذاكرٍ ومصلٍّ وباك، فذهب ليتوضأ فوجد أسدًا فرجع هاربًا مرعوبًا وأخبر بذلك رجلاً من أولائك، فتقدم إلى الأسد وفتل أذنيه وضربه بالقضيب، وقال له: ألم أقل لك لا تروع أصحابي فنَرَّ الأسد أمامه، فلما رجع الرجل إلى فاس ذهب ليخبر أبا الحسن بما حصل له، فلما دخل من باب المسجد ابتدأه أبو الحسن وذكر له ما وقع له ليلته، ثم قال له: أقام ــ يعني العابد ــ في مكان خال لا يشاهد فيه فتنة[1]، وظنَّ أنه جاء بشيء، لو أقام بفاس يعاين المعاجر[2] أو البراقع الزرق على الأعين البلق لعلم هل يصبر أم لا؟!

---

(١) في هذا بيان أن العبادة في مواقع الفتن وبين المجتمعات أعلى وأرقى منها من الفلوات والخلوات وإن من كان بين المفاتن والمغويات وملك نفسه كان على منزلة عظيمة ومقام كبير عند الله عز وجل، جعلنا الله منهم ووقانا شر الفتن ما ظهر وما بطن.

(٢) المعاجر جمع معجر بكسر الميم وهو ما تشده المرأة على رأسها. والبراقع جمع برقع بضم الباء والقاف غطاء لوجه المرأة. والأعين البلق هي السود في بيض. ولا أدري ماذا كان يقول لو شاهد عصرنا هذا وما ظهر فيه، فاللّهم حفظك.

قال التادلي عقب ذلك:

ذر الدنيا وإن راقتك حسنا ... ولا تغررك ربات الحجال[1]

فليست فتنة في الأرض تخشى ... أضر من النساء على الرجال

وفي «نيل الابتهاج»: أن بعض أصحابه سأله أن يدعو الله تعالى له فدعا له بالعافية، ثم قال: رأيت رب العزة في المنام فقال لي: ما حاجتك؟ فقلت: أسألك العفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة، فقال لي: قد فعلت، ثم قال: فلا أبالي بشيء يتقى فقد أمنني رب العزة، ولذلك دعوت الله بها، قال المدعو له: والله ما نالني مكروه قط بعد دعائه... انتهى.

وأخباره كثيرة.

ملاحظة: الضريح المنسوب إليه بقبيلة أنجرة بضواحي طنجة ليس له وإنما هو كما يقال منزل كان قد نزل به فاتخذه الناس مزارة يتبركون به، وقد وجدوا له بركة ظاهرة، ويفد إليه الكثيرون للاستشفاء فيعافون بإذن الله تعالى ثم ببركة هذا الولي ولا سيما من عاهة العقل والمصابين بالجنون، ومن المتواتر الذي لا يمكن إنكاره أن كل من يكون مصابًا بالجنون ويذهب لزيارة ذلك الموضع فبمجرد وصوله إلى ضواحيه يصير يصيح ويبكي ويفر هاربًا ويمتنع من التقرب من المكان، وقد شاهدت ذلك بنفسي ورأيته من خلائق، ولله في خلقه شؤون، وقد أخبر بعض أهل الكشف بأن روحانية سيدي علي تأتي إلى ذلك الموضع المرة بعد المرة، والله أعلم.



(١) ربات الحجال هن النساء، والحجال جمع حجلة وهي بيت يزين للعروس بالثياب والستور والأسرة وتطلق على غير ذلك، وفي كلام ابن الزيات إشارة منه إلى حديث مسلم: «ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء»، وقانا الله شرهن.

مولاي بوشعيب أيوب السارية

مولاي بوشعيب دفين آزمور من عمالة الجديدة على المحيط، هو: أبو شعيب أيوب سعيد السارية الصنهاجي الدكالي، ولد بقبيلة دكالة وبها تعلم القراءة، وحفظ القرآن الكريم وأتقنه، ثم اشتغل في بداية أمره بتعليمه الصبيان، ثم ترك ذلك وانقطع للعبادة حتى فتح عليه وظهرت له الأسرار وانتفع به الناس وأخذ عنه الأجلة والكبار. ويكفيه جلالة وقدرًا أن يعد من أشياخ مولاي أبـي يعزى الآتي ذكره، وأن يكون من تلامذة العلامة الصالح الشيخ منصور بن إبراهيم المسطاسي المتوفى بآزمور سنة ٥٤٠هـ، ومن تلامذة ذي المناقب والآيات عبد الله بن وكريس المشتراني الذي قال عنه ابن الخطيب في «أنس الفقير»: إنه كان من أقران أبـي جعفر أمغار.

فمولاي بوشعيب شخصية عظيمة، فقد كان زاهدًا ورعًا عابدًا منقطع النظير عارفًا بالله تعالى غاية في مراقبة الله عز وجل كثير الرياضة والمجاهدة لنفسه، توفي بمدينة آزمور وبها دفن سنة إحدى وستين وخمسمائة. ترجمه في «التشوف» وأطال في مناقبه وأخباره.

مـن ورعـه:

ذكروا عنه أنه كان أيام تعليمه القرآن يتوكأ على عصاه واقفًا لا يقعد إلا وقت انصراف الصبيان من الكتاب ثم يتصدق بجميع ما اكتسب وقت التعليم خوفًا أن لا يكون وفَّى بما عليه من الحقوق.

ورأى يومًا بقرة له أهوت بفيها لترعى في أرض لجار له فأسرع إليها وأدخل يده في فيها فأخرج منه النبات وأمر أن ترد للدار ويجمع لها الحشيش وألا تخرج إلى المرعى ثلاثة أيام وأن يتصدق بلبنها في تلك الأيام.

وزاره مرة صاحبه عبد الخالق بن ياسين من سبت بني دغوغ وهو بآزمور وحمل معه إليه حمل زبيب فقال له أبو شعيب: من أين لك هذا الزبيب؟ فقال له: هو من جنتي، فقال له: بماذا سقيته؟ فقال له: من ماء ساقية مشتركة آخذ نوبتي منها في السقي، فقال له: رد زبيبك إلى دارك فإني لا آكل زبيبًا يسقى بماء مشترك. فرجع الرجل وأنفق في ساقية انفرد بها مائة دينار فكان يسقي منها جنته. وفي هذه القضايا والمعاملات نهاية منه في توقي الشبهات والأخذ بالاحتياط وسلوك طريق أهل الورع، فحياك الله يا مولاي بوشعيب.

من حسن عبادته ورياضته لنفسه:

ومن غريب أمره أنه كان إذا قام إلى الصلاة أطال فيها قيامه كأنه سارية قائمة، ولذلك لقب بأيوب السارية، وكان يغيب فيها عن الصلاة فكان لذلك قد كلف مؤذنًا ينبهه عند ذلك فكان يأتيه ويصيح في أذنه قائلاً قد حضرت الصلاة فيرجع إلى حسه.

إن هذه الحالة منه لتذكرنا حالة العباد الأقدمين فيا لها من حالة ويا له من وصف إنه الفناء في المحبوب والإحراز على مقام الإحسان.

وقال بعض أصحابه: خرجت ليلة لأتوضأ في الوادي وكان البرد شديدًا، فسمعت كلامًا على بعد فأممته فإذا رجل يتهدد ويوبخ فدنوت منه فإذا أنا بأبي شعيب قد رمى بنفسه في الوادي، وكان يعاتب نفسه إذ نازعته في استعمال الماء البارد فحملته إلى منزلي وأوقدت له نارًا فلما زال عنه ألم البرد سألته عن فعله، فقال لي: دعني فإنها نفس خبيثة.

إنها لرياضة ومحاسبة للنفس تفكرنا في الصوفية الأقدمين الذين يذكرهم لنا القشيري في «الرسالة» وأبو نعيم في «الحلية» والغزالي في «الإحياء» والطوسي في «اللمع» والسلمي في «الطبقات».

إن للنفس لرعونات وفضولاً وهوى كامنًا ولا ترعوي وتنقاد إلا بأمثال هذه المجاهدات وإلا طغت على أصحابها وثارت.

من كراماته وخوارقه :

ولأبي شعيب آيات ومؤيدات، فقد ذكر ولده سيدي محمد عنه أنه صلى مرة عيد الأضحى بأغمات وجاءهم وهم بآزمور إثر انصراف الناس من صلاة العيد. قال: وكنا عازمين على أن نذبح كبشًا لأضحيته، فقال لنا: اذبحوا هذا الكبش الآخر.

وهذه الكرامة تعتبر من باب طي المكان والمشي بالخطوة، ولذلك، قال فيه ابن الخطيب في «أنس الفقير»: وهو من مشاهير الأولياء وممن يطير في الهواء. انتهى. فإن بين آزمور وأغمات مسافة طويلة جدًا فأغمات محلة خارجة عن مدينة مراكش بنحو من ثلاثين كيلومتر، كانت في القديم مأوى للعباد والزهاد وأعلام النساك بينما آزمور قريب من الدار البيضاء والجديدة.

وقال صاحبه عبد الخالق بن ياسين: ذهبت إلى زيارة أبي شعيب فوجدته بقرية وأوزجارت فدخلت إليه وتحدثت معه فسمعت زئير الأسد وهو قريب منا، فقلت له: إن هذا الأسد يزأر على دوابنا، وما جاء إلا إليها، فقال: اللهم يا من رد عنا هذا البحر رد عنا هذا الأسد. فانقطع صوت الأسد من ساعته وانصرف.

إن استجابة الدعاء كرامة لولي هي أدنى الكرامات ولا شك أنها من الخوارق والمؤيدات. وعلى كل فأخبار مولاي بوشعيب كثيرة وفيما ذكرناه كفاية.

وقد عاش مع مولاي بوشعيب في مدينته أستاذنا مولاي أحمد الصديق رحمه الله تعالى معتقلاً مدة تزيد على ثلاث سنوات، وكان العارف مولاي أحمد الطرداني قد تنبأ بذلك قبل وقوع الحركة فكان يقول كما سمعناه من شيخنا المذكور: خذ واحرس يا مولاي بوشعيب. رضي الله عن الجميع وعنا معهم، آمين.



مولاي أبو يعزى

وفي هذا العصر ظهر في المغرب مولاي أبو يعزى، ذلكم الإمام العارف الرباني الزاهد، ذو الأحوال العجيبة والآيات الغريبة صاحب الشهرة والصيت، أبو يعزى يلنور الهزميري الهسكوري. صحب الأكابر وبلغ المعالي في المعارف والمقامات مع أميته ولكنته وعجمة لسانه، خدم نحوًا من أربعين وليًا لله تعالى كما حدث بذلك عن نفسه.

من أشهر شيوخه مولاي بوشعيب السابق قبله، كان قد أقام نفسه عنده مقام الخادمة، فكان يطحن له ويعجن ويخبز ويسقي الماء بالليل، فإذا جاء النهار تفرغ للعبادة في المسجد، فكانت زوجة أبي شعيب تقول: ما رأيت كهذه المملوكة تعمل بالليل ولا تظهر بالنهار، فلما أخبرها زوجها بأنه أبو يعزى حلفت أن لا يخدمها أبدًا.

وأخذ عنه كبار الفقهاء والعلماء، منهم: الإمام عبد الجليل القصري السبتي، وكبير مشايخ وقته أبو الصبر، وشيخ المشايخ أبو مدين الغوث، وغيرهم من رجالات أنحاء المغرب. وتوفي ببلاده في أول شوال سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وقد أناف على المائة سنة بنحو الثلاثين، ودفن بجبل إيروجان، ويعرف الآن بتاغيا من قبيلة زايان قريبًا من مدينة أخربيكة من عمالة مكناس، وقد زرنا ضريحه والحمد لله، والدعاء عند روضته مستجاب.

فقد قال أبو الحسن اليوسي في «المحاضرات» (ص ٧٥) تحت عنوان: (قضاء الحاجات عند الصلحاء) ما نصه: وكان يحدثنا ــ يعني الحاج أبا عبد الله محمد

الدلائي ــ عن أسلافه، أن ثلاثة من صلحاء المغرب قد جرب عندهم قضاء الحاجات: الشيخ مولانا عبد السلام بن مشيش، والشيخ أبو يعزى يلنور، والشيخ أبو سلهام[1]. غير أنهم اختلفوا فالأول في أمور الآخرة، والثالث في أمور الدنيا وأبو يعزى في الكل. نفعنا الله بهم وبأمثالهم . . . إلخ.

ترجم أبا يعزى الكثيرون من المشارقة والمغاربة وأثنوا عليه ووصفوه بالقطبانية، وكان قد عاصر الشيخ مولانا عبد القادر الجيلاني، فكان يقول لأصحابه: لا أعلم أحدًا في عصري مثلي غير رجل أسود بالمغرب يكنى أبا يعزى ويسمى يلنور. وقال التادلي في «التشوف»: سمعت أبا علي الصواف يقول: سمعت أبا مدين يقول: رأيت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زماننا هذا، فما رأيت أعجب من أخبار أبي يعزى. قال: وسمعت أبا العباس أحمد بن إبراهيم الأزدي يقول: سمعت أبا عبد الله الكتاني يقول: نقلت كرامات أبي يعزى نقل تواتر. وذكره الشيخ أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري، فقال: لقيت الشيخ الزاهد الفاضل الرفيع آية وقته أبا يعزى يلنور، وكان أعجوبة في الزمان وعدة للإيمان، بلغ من مقامات اليقين مبلغًا لا يبلغه إلا الأفراد من العارفين، واشتهر عنه من الكرامات ما وقع موقع العيان وشهد بشهرتها الكافة والأعيان . . . إلخ. وقال العارف الشعراني في «الطبقات»: انتهت إليه تربية المريدين بالمغرب وأخذ عنه أكابر مشايخها الأعلام.

من أخباره في الزهد والتقشُّف والتنسُّك:

كان أبو يعزى رضي الله تعالى عنه قد عزف عن الحياة وأعرض عن الدنيا كلية، أقام بجبال الأطلس المتوسط يعبد الله تعالى سنين طوالاً نحوًا من عشرين سنة،

---

(١) هو من مشاهير أولياء المغرب أصله من مصر وتوفي سنة نيف وأربعين وثلاثمائة وضريحه على مصب البحيرة في البحر المحيط بينه وبين سوق أربعاء الغرب نحو من ٤٠ كيلو وهو مقصود للزيارة من كل أنحاء المغرب، وقد كان الأكابر يعتادون زيارته رضي الله تعالى عنه.

لا يُعرف عند الناس إلا باسم صاحب الحصير، ثم نزل السواحل فأقام بها ثمانية عشر عامًا لا يُدعى إلا باسم نبات أبو نلكوط، وما كان يأكل إلا من نبات الأرض، لا يشارك الناس في شيء من معايشهم.

إنه عرف قيمة هذه الدنيا، فزهد فيها وتركها لله عز وجل واكتفى منها بما يسد رمقه ويحفظ عليه حياته، ولم يحتفل بمتاعها ولا بمشتهياتها، قال الإمام النووي في أوائل رياض الصالحين: ولقد أحسن القائل:

إن لله عبـــــادًا فطنـــــا   طلقـوا الـدنيـا وخـافـوا الفتنـا
نظـــروا فيهـــا فلمـــا علمـــوا   أنهـــا ليســـت لحـــي وطنـــا
جعلـــوهـــا لجـــة واتخـــذوا   صـــالـــح الأعمـــال فيهـــا سفنـــا

وزهد أبـي يعزى كان قديمًا، فقد كان متصفًا بالإيثار وهو لا يزال في مرحلته الأولى من حياته، فقد كان في بداية أمره راعيًا، وكان أهل المواشي يطعمونه مناوبة كل يوم رغيفًا، فكان يأكل إحداهما ويؤثر بالأخرى رجلاً كان يقرأ القرآن. ثم جاء رجل آخر للمسجد لقراءة القرآن أيضًا فآثره بالرغيف الآخر وجعل يأكل من نبات الأرض، فلما رأى أن ذلك يكفيه عن الطعام قال: ماذا أصنع بالطعام ونبات الأرض يغنيني.

وقد صور لنا بعض أصحابه زهده بأجلى صورة في إيجاز كما ذكر التادلي في «التشوف» بسنده إلى أبـي عبد الله الباجي، قال: رأيت الشيخ أبا يعزى يجمع له الخبازي، ــ هو اسم نبات من البقولات ــ فيطبخ ويجفف ويرفع فإذا أراد أن يأكل منه جعله في القدر يأخذ منه لقمة أو لقمتين وهو يزأر كالقاهر لنفسه، ويقول لها: ليس لك عندي إلا هذا. قال: ومررت به يومًا وهو يأكل قلوب الدفلى ــ شجرة من أشجار الأودية شديدة المرورة ــ فناولنيها فوجدتها حلوة وكان لباسه برنوسًا أسود مرقعًا إلى أسفل ركبتيه وجبة من تليس ــ شبه زربية ــ وشاشية من عزف، وكان رقيقًا طويلاً أسود اللون، وكان إذا جنه الليل دخل شعراء كثيرة السباع فيصعد في أعلى الجبل ثم يأتي آخر الليل إلى المسجد . . . إلخ.

بعض أخباره في الكرامات والخوارق:

إن الكرامة الحقيقية هي الاستقامة والتوفيق للقيام بالعبودية الخالصة الصادقة ومعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة غير أنه لما كانت الكرامات من مقدمات معرفة الله عز وجل ومبادئها وكان لها أثر كبير في محبة الأولياء وتقوية الإيمان بالله عز وجل، وبالتالي العبرة والايقاظ من الغفلات والحمل على الأعمال والطاعات وكان للناس ولوع واهتمام بها، كان من الأكيد علينا أن ننقل منها ما تيسر لكل من وجدنا له شيئًا في ذلك، ولأبـي يعزى من الخوارق والآيات الشيء الكثير المشهور، قال الشيخ الصالح فقيه وقته أبو الصبر ـ من كبار تلامذة أبـي يعزى ورفقاء أبـي مدين ـ : سمعت الشيخ أبا يعزى يقول: ما لهؤلاء المنكرين لكرامات الأولياء؟! والله لو كنت قريبًا من البحر لأريتهم المشي على الماء.

ومن مكاشفاته ما حدّث به أبو الصبر، حيث قال: حضرت عنده فرأيت رجلاً أتى إليه وسلم عليه، فقال له أبو يعزى: لمَ تخون أخاك وتأتي زوجته وهو غائب؟! فقال الرجل: أتوب إلى الله تعالى من ذلك. قال: وجاءه يومًا كتاب أبـي شعيب من آزمور يقول له فيه: استر عباد الله ولا تفضحهم، فقال: والله لولا أني مأمور بهذا ما فضحت أحدًا ولسترت على الخلق.

وأقول: إن هذه الحالة كانت مقامًا لأبـي يعزى يكاشف بذنوب العباد ثم يفضحهم رحمة بهم ليتوبوا مـن ذلك. ولذلك قال سيدي محيـى الدين الحاتمي رضي الله تعالى عنه في «مواقع النجوم» إن الرجل يزني ويسرق أو يفعل فعلاً حرامًا فيدخل على المكاشف فيرى على ذلك العضو الذي يكون منه العمل تخطيطًا أسود لا يرى غير ذلك، وكان ذلك المقام غالبًا على حال أبـي يعزى رضوان الله عليه، وهذه المكاشفة موقوفة على المحققين في مقام الورع. اهـ.

فهذا يدل على أن من رجال الله من أذن لهم في الإفشاء والإفصاح بالأسرار، وإلا فمن أهم شروط الطريق كتم الأسرار، ومنها الستر على العباد مما يشاهده المكاشف من ذنوبهم والإغضاء عن ذلك وأن يلتزم التخلق بالرحمة والشفقة على

خلق الله تعالى، فالله ستير يحب الستر[1].

ومن مكاشفاته ما حدث به عنه أبو علي مالك بن تامجورت، قال: كنت أحمل إلى أبي يعزى حملاً من زبيب في كل عام من نفيس إلى جبل أيروجان، فمشيت إليه في بعض الأعوام بحمل زبيب فدفعته إلى مؤذنه ففرغه في بيت وقعدت أتحدث معه، فقال لي: عسى أن تكلم الشيخ أبا يعزى أن يستر الناس ولا يفضحهم، فإن الرجل جاهل لا علم عنده، فيقول للواصلين إليه سرقت يا هذا وزنيت يا هذا وفعلت يا هذا كذا وكذا، فيذكر لكل واحد فعله، ثم انقطع كلامه فنظرته وقد منع من الكلام وكلمته فلم يجبني فبينما أنا معه كذلك إذ أقبل أبو يعزى وعصاه في يده فسلّم عليَّ وسألني عن الحالة والأهل، وجاء إلى مؤذنه ومد يده إلى حلقه يمسح عليه ويقول: يا بني صدقت، فأنا جاهل لا أعلم إلا ما علمني مولاي. ثم طارت علقة دم من حلقه فتكلم وأخذ يقول: أتوب إلى الله تعالى. وأبو يعزى يقول له: مم تتوب يا بني وأنت قلت الحق. أنا جاهل لا أعرف إلا ما عرفني مولاي. انتهى.

وفي هذه الحادثة عدة كرامات لمولاي أبي يعزى:

أولاً: مكاشفته بكلام المؤذن فيه.

ثانيًا: تصرفه في المؤذن بهمته روحيًا حتى منع من الكلام.

ثالثًا: معالجته بإمرار يده المباركة على حلقه حتى خرجت علقة الدم من حلقه.

رابعًا: تلقيه العلم من الله تعالى بدون واسطة بل من باب ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

ومنها: ما ذكره أبو عبد الله الباجي ــ من أصحابه ــ، قال: كان أبو يعزى يأتي آخر الليل إلى المسجد والناس يصلون فيه النافلة جماعة، فإذا قرب الفجر قال لهم أوجزوا فقد قرب الفجر، فإذا طلع الفجر أخبرهم بطلوعه وهو معهم في المسجد

---

(١) في سنن أبي داود والنسائي بسند حسن عن يعلى بن أمية أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حليم حيي ستير يحب الحياء والستر...» الحديث.

فيخرجون فيتأملون الفجر، فإذا هو قد طلع حتى ظن بعض الحاضرين أنه يرى طلوعه من كوة أمامه في المسجد فنظر الجدار فلم ير كوة فسأل عن ذلك فقيل له: هذه عادته منذ زمان يخبرنا بطلوع الفجر وقت طلوعه.

وقال أبو محمد عبد الله بن عثمان: ذهبت إلى زيارة أبي يعزى مع صاحب من أصحابي من أهل فاس فدخلنا في بيت اجتمع فيه الواصلون إليه إلى أن جاء أبو يعزى فرأينا رجلاً أسودًا طويلاً، فأكب على رؤوس زائريه يقبلها واحدًا بعد واحد، فقال لي صاحبي: هذا أسود ممخرق. فقلت له: احفظ لسانك ولا تتكلم في ولي من الأولياء. ولم يسمع كلامه غيري، حتى انتهى إلي، فقبل رأسي ولم يقبل رأس صاحبي ومسح يده على صدره، فقال: أما هذا فلا أقبل رأسه حتى يذهب ما في قلبه، فتعجب صاحبي من ذلك وقال: تبت إلى الله تعالى مما كنت فيه ولا أعود. فأمر لنا أبو يعزى أن نكون في بيت خاص، وقال: أنتم لا تتحملون الكون مع الجموع، فأتانا بعض خدمته بطعام الشعير وعليه الخبازي ـ نبات من البقولات ـ في صحفة، فقال لي صاحبي: ما سقنا إلا لأكل الشعير، وبقول البراري: فقلت له: ألم تتب إلى الله تعالى من أمثال هذا؟! فإذا نحن بالشيخ أبي يعزى قد أقبل إلينا بطبق فيه رغيفان من البر وصحفة فيها لحم مشوي من لحوم الضأن، وقال لي: قل لصاحبك لو أقام عندي شهرًا ما أطعمته إلا هذا الطعام، فعلام يلومك؟! وإنما غلط الخديم فجاءكم بذلك الطعام قبل أن آمره بما يأتيكم به من طعام، فاشتد عجب صاحبي لذلك وقال: والله لا عدت إلى مثل هذا أبدًا. انتهى.

وهذه القصة مع ما فيها من خوارق وآيات تعطينا علاوة على ذلك شدة تنازله وتواضعه مع زائريه. وهذه كانت عادته مع عامة الناس، أما مع العلماء والفقهاء فكان كما قال ابن الخطيب في «أنس الفقير»: فكان الفقهاء يزورون أبا يعزى وإذا رآهم يلحس أقدامهم ويقول لهم مرحبًا بموالينا مرحبًا بمصابيح الدنيا[1]. انتهى.

---

(١) هذا يدل على تعظيمه واحترامه للعلم وأهله، وهذا شأن أهل الله المخلصين فمن لا احترام له للشريعة وأهلها لا حقيقة عنده فمن واجب المسلم ولوازمه الأدب مع رجالات العلم ولا =

ومن طاعة الأسد له:

إن العارفين بالله عز وجل وأحباءه لما أطاعوه أطاعهم كل شيء من أنواع الكائنات فكل المخلوقات تخدمهم وتنقاد لهم، إذا أرادوا ذلك بما فيهم من الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات والجمادات، عطاء الله وفضله يوتيه من يشاء وكان لمولاي أبي يعزى الحظ الأوفر من هذه الميادين، فقد كانت أنواع الوحوش تنقاد له وتأنس به وتَسْتَرشِدُهُ، كما كان يفعل معه البشر ولا فارق.

قال أبو مدين الغوث: زرته مرة في الصحراء وحوله الأسد والوحوش والطير تشاوره على أحوالها، وكان الوقت وقت غلاء فكان يقول للوحوش اذهب إلى مكان كذا وكذا، فهناك قوتك ويقول للطير مثل ذلك فتنقاد لأمره، ثم قال: يا شعيب إن هذه الوحوش والطير أحبت جواري فتحملت ألم الجوع لأجلي.

وقال السراج: روينا أن الشيخ أبا يعزى المغربي قدس الله روحه كانت الأسد تأوي إليه والطير تعكف عليه فشكى إليه الحطابون كثرة الأسد في الغابة، فأمر خادمه بأن ينادي بأعلى صوته في طريق الغابة: معاشر الأسد إن أبا يعزى يأمركم أن ترحلوا من هذه الغابة، فكانت الأسد تُرى خارجة تحمل أشبالها[(١)] حتى نفدت ولم يبق فيها أسد بعد ذلك. وكان عنده مرة جماعة من الزوار فجاءهم قائلاً: اخرجوا لتعاينوا عجبًا. فقاموا معه فرأوا جماعة من حمير الزائرين راقدة والسباع قريبة منها، فلا الحمير نفرت من السباع ولا السباع وثبت على الحمير. اهـ.

وجاء مرة جماعة من أهل فاس وكانوا من المنكرين عليه فخرج في جماعة للقائهم فلما رأوه نزلوا عن دوابهم ليسلموا عليه فخرج من الشعراء[(٢)] أسد فوثبت

= سيما أئمته الأقدمين وحملته السابقين الذين حفظوا لنا الشريعة، فمن أساء الأدب معهم وطعن فيهم بما لا يليق بمقاماتهم السامية فهو سفيه ساقط جاهل وإن كان على علم غزير واطلاع واسع فكيف إذا كان عاميًا أو أميًا ولا شك أنه سيكون له موقف خطير أمام الله يوم القيامة.

(١) جمع شبل بكسر الشين المعجمة وسكون الباء الموحدة هو ولد الأسد.

(٢) هو الشجر الكثير.

على أحدهم فصاح عليه أبو يعزى ودنا منه إلى أن أخذ بأذنيه وهم ينظرون إليه فقال لأصحابه: اركبوه. فهابوا ركوبه فقام إليه بعض الصالحين فوثب على ظهره وأجراه مرات والمنكرون على أبـي يعزى ينظرون إليه.

إن أبا يعزى رضي الله تعالى عنه من الذين توجهوا لإصلاح بواطنهم وتهذيب نفوسهم مع تخريب الظاهر فحكمه الله عز وجل في الكائنات وسخر له خلقه. وجاءه مرة رجل من أصحاب أبـي مدين في وقت مجدب فقال له: إن لي أرضًا أقتات أنا وعيالي منها وقد أجدبت فقام رضي الله تعالى عنه ومشى معه إلى أرضه فأمطرت حتى رويت ولم يَعْدُها المطر ولم تزرع أرض هناك سواها.

وهذا من آياته الباهرة وخوارقه العظيمة، وقد حصل مثل هذا لكثير من المشايخ وراثة نبوية وسيأتي في ترجمة سيدي أبـي العباس السبتي نحو من هذا.

رجل يعتـرض عليـه في باطنه فيسـافر، فيضل عن الطريق وتحصل له محنة:

كان لأبـي يعزى خديم يقال له الحاج ابن هارون، فأتى أبو يعزى بصبية بها علة فأدخل يده في جسمها ليمسح عليها فوجد الخديم من ذلك شيئًا في قلبه، فكره المقام عنده، فاستأذنه في الإنصراف فلم يوافقه، فانصرف بلا إذن فضل عن الطريق مع معرفته بها، فأخذ في طريق وعرة متعبة وأجهده الجهد والجوع، وكان ذوو السلطة وقتئذٍ يقتلون من لا يصلي في الوقت، فألقي عليه القبض مع جملة من الناس فحمل ليقتل، وفي تلك الساعة قال أبو يعزى لأصحابه ادعوا مع صاحبكم أن يخلصه الله من محنته، فلما قدم للقتل رآه رجل كان يعرفه فقال للوالي ليس هذا ممن يترك الصلاة فأطلق سراحه ورجع من فوره إلى أبـي يعزى فلما أبصره قال له: أبيت أن لا يزول ما في قلبك إلا بعد المحنة، فقال له: تبت إلى الله تعالى. اهـ.

وهذه القصة لهذا الخديم مع أبـي يعزى تعطينا فوائد:

أولاً: مكاشفة أبـي يعزى بما خطر للخديم في قلبه.

ثانيًا: ابتلاء الرجل باعتراضه، ولولا لطف الله تعالى به لضربت عنقه.

ثالثًا: حفظه من القتل بتوجه أبـي يعزى ودعائه الله تعالى معه وإطلاعه على ما حصل له.

رابعًا: وهي من أهم الفوائد قتل تاركي الصلاة في أوقاتها أيام دولة الموحدين، لأن هذه الحادثة حصلت في أيامهم، وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن تلك الدولة العظيمة كانت لها عناية بدين الإسلام وشعائره، والتاريخ والواقع يشهد لذلك ويصدقه ولا شك أن الدولة التي لا عناية لها بالإصلاح الديني قبل غيره ولا اهتمام لها بحمايته من المفسدين والهدامين والملاحدة واللادينيين والفاسقين، لا خير فيها أصلاً فإن الله تعالى يقول: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١].

فاعجب لولاة شعوبنا اليوم ورؤساء الدول الإسلامية الحاليين الذين لا هم لهم إلا الإصلاح المادي لحياتهم، وإن ذهب دينهم وديست بالأقدام قواعده وشعائره، آه آه آه يا أسفي

(الفائدة الخامسة): اعتراض ذلك الخديم على أبـي يعزى في معالجة الصبية، إنما جاءه من جهله بالشريعة؛ فإن الضرورات تبيح المحظورات، وهي من القواعد المتفق عليها بين علماء الإسلام، وهذا الاعتراض كثيرًا ما كان يعتري بعض معاصري أبـي يعزى حتى من عامة الفقهاء.

ففي «التشوف» قال أبو مدين رضي الله تعالى عنه: وقالت لي جماعة من الفقهاء المجاورين لأبـي يعزى: ثبتت عندنا ولاية أبـي يعزى ولكن نشاهده يلمس بيده صدور النساء وبطونهن ويتفل عليهن فيبرأن ونرى أن لمسهن حرام، فإن نحن تكلمنا في هذا هلكنا وإن سكتنا تحيرنا. فقلت لهم: أرأيتم لو أن بنت أحدكم أو أخته أصابها داء لا يطلع عليه إلا الزوج، ولم يجد من يعانيه إلا طبيب يهودي أو نصراني ألستم تجيزون ذلك؟! مع أن دواء اليهودي أو النصراني مظنون!! وأنتم من معاناة أبـي يعزى على يقين من الشفاء، ومن معاناة غيره على شك. اهـ.

ولما قيل لأبي يعزى عن فقهاء فاس أنهم: ينكرون عليك لمس صدور النساء والنظر إليهن. فقال: أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ويراها للضرورة؟ فهلا عدُّوني واحدًا من أطبائهم، وأنا إنما ألمس ذوات العاهات للتداوي بذلك. اهـ.

فاعتراض هؤلاء الفقهاء يدل على قصورهم وجمودهم، فهم مع إقرارهم بولاية أبي يعزى وصحتها عندهم لم يزالوا ينتقدونه في ظواهرهم وبواطنهم على شيء تبيحه الشريعة. على أن الأدب الصوفي يعطي في هذا الشأن التسليم وحسن الظن، هذا لو لم يأت شيء يجيز ذلك فكيف مع وجوده، ومن العار على العلماء أن يكون رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب عالمًا بدقائق الشريعة وهم يجهلونها ويعترضون عليه. إن هذا لعجب. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا﴾ [الأنفال: ٢٩]. ويقول: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]. فهذا النور هو الذي أضاء لأبي يعزى عن الحقائق حتى عرفها وعلمها نتيجة تقواه وحُجِب عنها المتفقهة القاصرون المحجوبون.

وعلى كل حال فأخبار أبي يعزى كثيرة ونوادره في هذا الباب غريبة وعجيبة. ترجمه التادلي في «التشوف» ترجمة واسعة واستطرده في كثير من التراجم، وكذا ترجمه ابن الخطيب في «أنس الفقير وعز الحقير» والمناوي في «الطبقات» والشعراني في «الطبقات الكبرى» وابن جعفر في «السلوة» والفاسي في «مرآة المحاسن» وغيرهم، وأفرده بالترجمة العز في في كتاب أسماه «المعزى في أخبار أبي يعزى» مخطوط[1] في الخزانة العامة بالرباط، وقد لخصنا من ذلك ما تيسر، والحمد لله.

* * *

(١) وقد قيض الله تعالى له مؤخراً مَنْ طَبَعَهُ ونَشَرَهُ.

سيدي أبو مدين الغوث

وفي نفس هذا العصر وفي المائة السادسة أيام دولة الموحدين يأتي علم آخر من أعلام الصوفية وقطب من كبار أقطابهم ذلكم هو شيخ المشايخ وسيد العارفين وقدوتهم الإمام المشهور سيدي أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن الأندلسي الفاسي البجائي. من كبار تلامذة أبي يعزى وعلي بن حرازم[١] وعلي بوغالب. ومن شيوخ أبي محمد عبد الرزاق الجزولي وأبي محمد صالح دفين آسفي وللافاطمة الأندلسية القصرية وآخرين. ومن معاصري القطب ابن مشيش والشيخ الأكبر ابن العربي الحاتمي وأبي العباس السبتي دفين مراكش وغيرهم.

ولد بقطنيانة من عمالة إشبيلية، ثم خرج من بلاده صغيرًا فدخل طنجة وسبتة وجال في المغرب فدخل مراكش ثم رحل لفاس فأقام بها مدة طويلة يدرس العلم ثم سكن بجاية وتوفي بتلمسان وبها دفن سنة أربع وتسعين وخمسمائة في عهد الأمير يعقوب المنصور الموحدي.

بسط حياته:

نشأ سيدي أبو مدين بالأندلس يتيمًا وكان يعمل في رعاية الغنم لإخوته ثم تاقت نفسه لتعلم القراءة ففر أولاً فلحقه بعض إخوته فأرغمه على الرجوع بعد أن هدده بالقتل، فرجع ثم فر ثانيًا ليلاً وسلك طريقًا آخر فأدركه أخوه بعد طلوع الفجر

---

(١) وعليه قرأ «رعاية المحاسبي» أما الثاني فقرأ عليه «جامع الترمذي» رضي الله عن الجميع.

فسل عليه سيفه وأراد قتله فتلقاه بعود كان بيده فانكسر السيف وتطاير قطعًا، فلما رأى ذلك، قال له: يا أخي اْذهب حيث شئت. فسار ثم ركب البحر ونزل بطنجة ثم منها إلى سبتة فآجر نفسه مع الصيادين طلبًا للعيش. ثم قال في نفسه: ما لهذا خرجت فانصرف لمدينة مراكش فانخرط في الجندية مدة ثم توجه لمدينة فاس فلزم جامعها فتعلم الوضوء والصلاة ثم سأل عن مجالس العلماء، فجعل يحضرها مجلسًا بعد آخر، فكان لا يثبت في قلبه منها شيء إلى أن جلس في حلقة أبي الحسن علي بن حرازم، فلما فرغ دنا منه، وقال له: حضرت مجالس كثيرة فلم أثبت على ما يقال وأنت كل ما سمعته منك حفظته. فقال له: إنهم يتكلمون بأطراف ألسنتهم فلا يجاوز كلامهم الآذان وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب. ثم لزمه كما لزم مجالس أخرى علمية.

قال: كنت إذا سمعت تفسير آية من كتاب الله ومعه حديث واحد من أحاديث رسول الله ﷺ قنعت بهما وانصرفت إلى خارج فاس لموضع خال من الناس اتخذته مأوى للعمل بما يفتح علي من الآية والحديث، ثم أعود إلى فاس فآخذ آية وحديثًا كذلك فأعمل عليهما. ثم يسترسل يحدثنا فيخبر: أنه كانت تأتيه ظبية في خلوته فتشمه وتلعب بين يديه، وكان إذا مر وجد في طريقه كلابًا فتبصبص وتفرح به، وأنه مرة صحب معه دراهم لضيافة صاحب له فلما مر بالكلاب تعرضت له حتى منعته المرور، وجاءت الظبية فشمته ثم جعلت تنطحه ثم نفرت وهربت منه ففهم الحقيقة فدفع تلك الدراهم وأنفقها فلما رجع لم ير شرًا من كلاب القرية، وجاءت الظبية حتى شمته ثم جلست بين يديه على عادتها.

اتصاله بأبـي يعزى:

وشيخه الوحيد الذي فتح له على يده هو مولاي أبو يعزى، وقد حدثنا عن سبب اتصاله به وما حصل له معه في ابتداء أمره، فأخبر أنه: كان بفاس وأخباره ترد عليه وكراماته يتداولها الناس فملأ حبه قلبه فقصد زيارته مع الفقراء، فلما وصلوا إليه أقبل عليهم دونه ومنعه الطعام مدة ثلاثة أيام حتى أجهده الجوع وجعلت الخواطر ترد

على قلبه، ثم تمرغ في مجلس الشيخ فعمي، فلما أصبح دعاه الشيخ فمسح بيده على عينيه فأبصر ثم مسح صدره فذهب ما كان يجده من الخواطر وألم الجوع وشاهد لحينه عجائب البركات، ثم قال أبو يعزى للحاضرين إن هذا سيكون له شأن عظيم ثم أذن له في الإنصراف، وأخبره بأنه سيلقى في طريقه أسدًا فلا يخف منه فإن حصل له شيء منه فليقل له: بحرمة يلنور إلا ما انصرفت عني. وحدثه بأنه سيلقاه ثلاثة لصوص عند شجرة وأنه سيعظهم فيتوب اثنان منهم على يده ويرجع الثالث فيقتل. فودعه وانصرف، فشاهد في طريقه كل ما قال له. فانظر ذلك مبسوطًا في «التشوف».

فما أروع هذه الزيارة وما أجملها فنعم الزائر ونعم المزور، فسيدي أبو مدين العالم الفقيه المحدث الصوفي العابد يتنازل ويذهب مع الفقراء في تواضع نابذًا كل ما عنده من علم وحال، فيجلس بين يدي أبي يعزى الأمي الأعجمي الأسود الجعد القطط في خشوع وأدب وخضوع فيكاشف أبو يعزى الرجل العظيم بحال زائره أبي مدين وبما سيؤول إليه أمره فيقابله بالجفاء والامتحان ويقطع عنه حتى الأكل ولا يلتفت إليه ثلاثة أيام والزائر المريد تتوارد عليه الوساوس ثم بعد قليل يتداركه فيعالجه ويقبل عليه ويكاشفه بما سيقع له ويطريه أمام الجماعة ويحدثهم عن أمره في المستقبل.

الله أكبر ما أروع أخبار الصالحين وما أحوج العالم الإسلامي اليوم إليهم لو كان مؤمنًا بهم.

اتصاله بالشيخ عبد القادر:

ومن شيوخ مولاي أبي مدين مولانا عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه، فقد لقيه بالديار المقدسة وأخذ عنه وألبسه خرقة الصوفية وكان يعتبره من أجل شيوخه رضي الله عنهما. وأول شيخ أخذ عنه سيدي أبو مدين التصوف أبو عبد الله الدقاق كما في «التشوف»[1].

---

(١) الدقاق هذا كان من أكابر الصوفية وكان يصرح بأنه ولي يتكلم بأشياء تنكر عليه، فذُكرَ ذلك =

من ثناء الأكابر عليه وذكر بعض مناقبه:

ترجم سيدي أبا مدين جماعة من الأعلام والمؤرخين وحلَّوه بأوسمة رائقة، فقال فيه ابن الزيات التادلي في «التشوف إلى رجال التصوف»: إنه تخرج به ألف شيخ من الأولياء أولي الكرامات. وقال عنه: إنه كان مبسوطًا بالعلم، مقبوضًا بالمراقبة، كثير الإلتفات بقلبه إلى الله تعالى. وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث، خصوصًا «جامع الترمذي» كان قائمًا عليه، وكان يلازم كتاب «الإحياء» ويعكف عليه، وترد عليه الفتاوي في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، وله مجلس وعظ يتكلم فيه، يجتمع عليه الناس من كل جهة، وتمرّ به الطير وهو يتكلم فتقف لتسمع، وربما مات بعضها. وكثيرًا ما يموت بمجلسه أهل الحب، وتخرّج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً ويخصه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل . . . إلخ.

وترجمه الشيخ يوسف اللخمي في «بهجة الأسرار» فقال فيه: من أعيان مشايخ المغرب وصدور المقربين وعظماء العارفين وأئمة المحققين صاحب الكرامات الخارقة. . . وهو أحد أوتاد المغرب وأحد أركان هذا الشأن . . . إلخ. ووصفه ابن الخطيب في «أنس الفقير» بالعارف المحقق القطب، وقال: إنه كان زاهدًا في الدنيا عارفًا بالله تعالى، خاض بحارًا من الأحوال ونال من المعارف الربانية الآمال. ومقامه الخاص به الذي لا يلحقه فيه أحد: التوكل على الله. وكان له بسط وقبض، فبسطه

= لابن العريف وأبي الحكم بن برجان فقالا: لا تنكروا عليه شيئًا من أحواله. وكان بعض جيرانه يحتقره، فنام ليلة فرأى في منامه شخصًا فقال له: أرني وليًا من الأولياء. وفي رواية رأى نبي الله عليه الصلاة والسلام فدفع له مفتاحًا وقال له: ادخل ها هنا فكلُّ بيت تفتحه تجد فيه وليًا من الأولياء فدخل في دار كثيرة البيوت فجعل كلما فتح بابًا وجد أبا عبد الله الدقاق فلما أصبح أتاه فابتدره أبو عبد الله قائلاً: لو فتحت الأبواب كلها لوجدتني في كل بيت. وله أخبار وكرامات وكان يقول: أنا أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين.

بالعلم وقبضه بالمراقبة. وبلغ من الورع مقامًا عليًا، ونال من الزهد والتحقيق ما تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون. وله أشياخ مشاهير جماهير وأصحاب جواهر . . . إلخ.

وقال فيه الغبريني في «عنوان الدراية»: الشيخ الفقيه المحقق الواصل القطب شيخ مشايخ الإسلام في عصره إمام العباد والزهاد وخاصة الخلصاء من فضلاء العباد. قال: فتح الله عليه بمواهب قلبية وأسرار ربانية استفادها بالتوجه والعمل وارتقى إلى غاية ما يؤمل. كان الشيخ أبو يعزى رحمه الله تعالى يثني عليه ويشكره. . . إلخ.

وذكره سلطان العارفين سيدي محيى الدين الحاتمي رضي الله تعالى عنه في كتبه وأثنى عليه كثيرًا ووصفه بأوصاف عالية، فقد ذكره في «مواقع النجوم» وشهد له بالإمامة، وأن مرتبته فوق الأبدال؛ لأن الأبدال تعتاص عليها بعض الأشياء وهو لا يعتاص عليه شيء، ولهذا لم يرغب في مقامهم بينما هم كانوا راغبين في مقامه. كما ذكر فيه أنه لم يمت حتى تقطب قبل أن يغرغر بثلاث ساعات. ووصفه في «روح القدس»[1] بقوله: سيدنا أبو مدين خلاصة الأبرار. وقال فيه أيضًا: رضي الله عن أبي مدين حيث قال: لا يكون المريد مريد ـ كذا ـ حتى يجد في القرآن كل ما يريد.

وذكره في «الفتوحات المكية» كثيرًا من ذلك (١/ ٣٥٦)، قال فيه: إنه كان حاله عدم الاعتماد على غير الله في جميع أموره: في حق نفسه وفي حق غيره. ومنها (١/ ١٠٢): وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله تعالى يقول: ما رأيت شيئًا إلا رأيت

---

(١) كتابه هذا وضعه في تراجم بعض الصوفية والأكابر الذين لقيهم وصحبهم وانتفع بهم، وهو كتاب قيم افتتحه بمقدمة هامة في محاسبة النفس ثم أتبعها تراجم وذكر لأصحابها ما شاهده منهم من الخوارق والأحوال والمقامات وما كانوا عليه من العبادة والزهد. طبع مرتين، والأخيرة منهما طبعت بدمشق، فعليك باقتنائه فإنه ينفعك في طريق السلوك وينهضك للعمل الصالح والزهد في الحياة.

الباء[1] عليه مكتوبة. ومنها (١/ ٢٨٠): وكان الشيخ أبو مدين رحمه الله تعالى إذا قيل له: فلان عن فلان، قال أي: شيء قلت أنت ما خصك الله به من عطاياه من علمه اللدني. أي: حدثوا عن ربكم واتركوا فلانًا وفلانًا، فإن أولئك أكلوا لحمًا طريًا والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد، والفيض الإلـهي والمبشرات ما سد بابها، وهي من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع، والله يهرول لتلقي من أتى إليه يسعى، و ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧]. وذكر عنه (١/ ٢٤٤): أنه كان من أقطاب أهل الورع وخاصته. وذكره (١/ ٢٥١) و (٢/ ٢٣)، فقال فيه: وكان شيخنا أبو مدين رضي الله تعالى عنه كثيرًا ما يقول من علامات صدق المريد في إرادته فراره عن الخلق. وذكره (٢/ ٥٠٥)، فقال عنه: وكان شيخنا أبو مدين يقول في الفتوح: أطعمونا لحمًا طريًا كما قال الله تعالى. لا تطعمونا القديد. أي: لا تنقلوا إلينا من الفتوح إلا ما يفتح به عليكم في قلوبكم، لا تنقلوا إلينا فتوح غيركم. يرفع بهذا همة أصحابه لطلب الأخذ من الله تعالى.

وذكره في «روح القدس» (ص ٧٥) في حكاية عجيبة، فقال: أخبرني شيخي أبو يعقوب الكومي عنه ـ يعني أبا عمران السدراني ـ أنه وصل جبل قاف المحيط بالأرض فصلى الضحى بأسفله وصلى العصر على ذروته، وسئل عن ارتفاعه في الهواء فقال مسيرة ثلاثمائة سنة، وأخبر أن الله طوق هذا الجبل بحية اجتمع رأسها بذنبها، فقال له صاحبه الذي كان معه سلم على هذه الحية ترد عليك، قال موسى: فسلمت عليها فقالت: وعليك السلام يا أبا عمران كيف حال الشيخ أبـي مدين؟ فقلت لها: وأنى لك بمعرفة أبـي مدين؟! فقالت: عجبًا وهل على وجه الأرض من

---

(١) هذا يعبر به عن بحر الجبروت الذي تدفقت منه نقطة الكون. فهو يشير بذلك إلى أنه لا يشاهد في الكون إلا الله عز وجل. وهناك من العارفين من يتحقق بمقام الفناء فيعبر عن ذلك بما يقتضيه وقته، فبعضهم يقول: أنا هو. وآخر يقول: أنا نقطة الباء، كما قال الشبلي. إلى غير ذلك من تعابيرهم، وكلهم يدندنون حول التوحيد الخالص ونفي السوى والإثنينية التي هي شرك عندهم. رضي الله تعالى عنهم.

يجهل حاله؟! إن الله تعالى قد أنزل حبه إلى الأرض ونادى به فعرفته أنا وغيري، فلا شيء من رطب ولا يابس إلا ويعرفه ويحبه. اهـ.

وذكر نحوها في «الفتوحات»، وصرح فيها بأنه الذي ذهب إلى جبل قاف صحبة رجل من الأبدال[1] . . . إلخ. ولعلهما حادثتان، والمقصود أنه ذكره كثيرًا وأثنى عليه ونوه بقدره.

وترجمه العارف الشعراني في «اللواقح» وقال فيه: هو من أعيان مشايخ المغرب وصدور المربين، وشهرته تغني عن تعريفه. ثم نقل عن الشيخ أبـي الحجاج الأقصري، قال: سمعت شيخنا عبد الرزاق رضي الله تعالى عنه يقول: لقيت الخضر عليه السلام سنة ٥٨٠ فسألته عن شيخنا أبـي مدين، فقال: هو إمام الصديقين في هذا الوقت، وسره من الإرادة، ذلك آتاه الله تعالى مفتاحًا من السر المصون بحجاب القدس ما في هذه الساعة أجمع لأسرار المرسلين منه . . . إلخ.

وقال عنه أيضًا: وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه، وكان ظريفًا جميلاً متواضعًا زاهدًا ورعًا محققًا مشتملاً على كرم الأخلاق . . . إلخ.

وفي «نيل الانتهاج» لأحمد بابا وغيره عن بعض الأولياء، قال: رأيت في النوم قائلاً يقول: قل لأبـي مدين: بث العلم ولا تبالي ترتع غدًا مع العوالي فإنك في مقام آدم أبـي الدراري. قال: فقصصتها عليه، فقال لي: عزمت على الخروج للجبال والفيافي وأبتعد عن العمران، ورؤياك هذه تأمرني بالجلوس وترك العزم، فقوله: (ترتع غدًا مع العوالي) إشارة إلى حديث: «حِلَق الذكر مرانع أهل الجنة». و «العوالي»: أصحاب علّيين، وقوله: (أبـي الدَّراري) أنه أعطي قوة النكاح، وأمر به، ولم يجعل له قوة على كونهم مطيعين، ونحن أعطينا العلم وأمرنا ببثه ولا قدرة

(١) ولا ينكر مثل هذا عليهم ولا يستبعد فإن للعارفين بالله وأوليائه المقربين رحلات روحية فإنهم أصحاب الخطوات والطيران في الهواء والمشي على الماء وما أخبروا به عن أنفسهم أو عن غيرهم هم مصدقون فيه لأنهم خيار الناس وخلاصتهم رضي الله تعالى عنهم وقد جاءت شريعة الإسلام بقبول شهادة العدول وهؤلاء ساداتهم.

لنا على كون أتباعنا موفقين. وذكر أيضًا عن العارف عبد الرحيم المغربي، قال: سمعت أبا مدين يقول: أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ فقلت: يا رب عطاؤك. قال: وماذا عن شمالك؟ فقلت: يا رب قضاؤك. قال: يا شعيب قد ضاعفت لك هذا وغفرت لك هذا فطوبى لمن رآك ورأى من رآك.

وفيه أيضًا وفي غيره عن أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه قال: جلت[1] في الملكوت فرأيت سيدي أبا مدين متعلقًا بساق العرش وهو يومئذٍ رجل أشقر أزرق، قلت له: وما علومك وما مقامك. فقال علومي أحد وسبعون علمًا، ومقامي رابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال[2].

وفي «عنوان الدراية»: أن بعض العلماء رأى ذا القرنين في المنام فسأله عن قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: ٨٦]. ما هذه العين التي تغرب فيها الشمس والشمس أكبر من الدنيا نيفًا وستين مرة؟! فقال له: أين تغيب السموات والنجوم حيث يعدم الخلق؟ فقال: لا أدري. فقال له: في عظمة الله وقدرته، والعين هي العظمة والقدرة. فقال الرائي: ما عندي هذا. فقال له ذو القرنين: ولا عند جبريل. ثم قال له: قل للشيخ أبي مدين أنت قطب، والدراري دائرة بك، وأنت ستر لبجاية، فبثك العلم في بجاية رحمة لهم وعناية . . . إلخ.

وذكر سيدي الحاتمي رضي الله تعالى عنه في «محاضرة الأبرار» رؤيا رائقة، فقال: رأى بعض الفقراء الله تعالى في المنام وهو يقول لأبي مدين: مادة سرك بسنا نوري، وغذاء روحك برؤيتي وسروري وقلبك موضع عظمتي وجبروتي، هي أحوال مني أقتبسها ولي رددتها، فأنت بي صرت. يا أبا مدين جاوز نظر الناظرين نظرك وتعلق بي فكرك فلما قدّرتني كنتُ سمعك وبصرك، وعرفتك بي فعرفتني ونزهت سرك عن سواي فنزهتني فأنت ظاهر وباطن بي ولي. فقال: سبحانك سبحانك اللهم أدم فضلك، أعجزتَ

---

(١) هذه الجولة كانت روحية، وكم لهم من مثيل، وهي وراثة نبوية لا دليل يمنعها بل الدليل يؤيد ذلك فهي من جملة الخوارق والكرامات.

(٢) هذه أسامي لبعض طبقات الأولياء.

الأوهام عن وصف وصفك، وامتلأت الأسرار أنسًا بذكرك، ثنائي ثناؤك، وأمري أمرك، فواصل اللهم نوري بنورك، فلا يقتبس الفضل منك إلا بك. اهـ.

وههنا يعلق سيدي محيـي الدين على هذا فيقول باختصار: إن أبا مدين بلغ غاية الغايات. اهـ.

فحياك الله وطيب ثراك يا أبا مدين، لقد تفضل الله عليك فعرفته وحططت رحلك مع الموحدين أهل الفناء فسعدت فهنيئًا لك.

وذكر التادلي في «التشوف» أن رجلاً جاء ليعترض على أبـي مدين فجلس في الحلقة فأخذ القارىء في القراءة فقال له أبو مدين أمهل قليلاً ثم التفت للرجل وقال له: لم جئت؟ فقال لأقتبس من نورك. فقال له: ما الذي في كمك؟ فقال له: مصحف. فقال له: افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك. ففتح وقرأ أول سطر فإذا فيه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [الأعراف: ٩٢]. فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل وتاب وصلح حاله.

وذكر المقري في «نفح الطيب» والسوداني في «نيل الابتهاج» وابن أبـي مريم في «البستان» عن الشيخ الزاهد أبـي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحاب أبـي مدين، قال: مر شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسدًا افترس حمارًا وهو يأكله، وصاحبه جالس بالبعد على غاية الحاجة والفاقة، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية الأسد، فقال له: امسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة بدل حمارك. فقال له: يا سيدي أخاف. فقال: لا تخف، لا يستطيع أن يؤذيك. فمر الرجل بالأسد يقوده والناس ينظرون إليه، فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ فقال: يا سيدي هذا الأسد يتبعني أينما ذهبت وأنا شديد الخوف منه لا طاقة لي بعشرته، فقال الشيخ للأسد: اذهب ولا تعد ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم.

وقال الشعراني في «اللواقح»: مكث رضي الله تعالى عنه سنة في بيته لا يخرج إلا للجمعة فاجتمع الناس على باب داره وطلبوا منه أن يتكلم عليهم، فلما ألزموه خرج، فرأى عصافير على سدرة في الدار فلما رأته في الدار فرت، فرجع وقال: لو

صلحتُ للحديث عليكم لم تفر مني الطيور. ثم رجع وجلس في البيت سنة أخرى ثم جاءوا إليه فخرج فلم تفر الطيور منه فتكلم على الناس ونزلت الطيور تضرب بأجنحتها وتصفق حتى مات منها طائفة . . . إلخ.

وفي «النيل» و «البستان» من مشهور كراماته: أنه كان يومًا ماشيًا على الساحل فأسره الكفار وجعلوه في سفينة لهم فيها جماعة من الأسارى، فلما استقر في السفينة توقفت عن السير فقال بعضهم أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس، ولعله من أصحاب السرائر عند الله، فأشاروا إليه بالنزول فقال: لا إلا إذا أطلقتم كل من فيها من الأسارى، فعلموا أنه لا بد لهم من ذلك فأنزلوهم كلهم، وسارت السفينة في الحال.

وذكر غير واحد عن تلميذه أبي محمد صالح قال: قامت الحرب بالمغرب مرة بين المسلمين والإفرنج، والإفرنج قد ظهروا فيها على المسلمين، فأخذ الشيخ سيفه وخرج إلى الصحراء مع نفر يسير من أصحابه وأنا معهم وجلس على كثيب من رمل، وإذا بين يديه خنازير قد ملأت البرية من كثرتهم، فوثب الشيخ حتى صار بينهم واستل سيفه وعلا به رؤوس الخنازير حتى صرع منهم كثيرًا ثم ولوا بين يديه هاربين ورجع، فسألناه: فقال هؤلاء الإفرنج قد خذلهم الله تعالى. فأرخت ذلك الوقت، فجاء الخبر بكسر الإفرنج في الوقت الذي أرخناه. فلما قدم المجاهدون أكبوا على قدمي الشيخ يقبلونهما وأقسموا بالله: لو لم يكن معهم بين الصفين لهلكوا، وأخبروا أنه كان يعلو بسيفه رأس الفارس من الإفرنج فيصرعه وفرسه، وأنه قتل منهم مقتلة عظيمة، وأنه لم يروه بعد انقضاء الحرب. قال: وكان بين الشيخ وبين موضع الوقعة أكثر من مسافة شهر . . . إلخ. ذكره اللخمي في بهجة الأسرار.

وفي «المنهاج الواضح» في تحقيق كرامات أبي محمد صالح (ص ١٠٥) سمعت بعض الفضلاء ممن أدركته يقول: قال سيدي أبو مدين يومًا لأصحابه: كل معجزة كانت للأنبياء ظهرت كرامة للأولياء في هذه الأمة تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا لنبينا سيدنا محمد ﷺ. فقيل له: يا سيدي وهل وقعت لبعض الأولياء كرامة انقلاب العصا حية. قال: نعم كنت أنا وشيخ فاضل من شيوخ بلادنا بأرض الأندلس في

سياحة في بعض السواحل، فبينما نحن ذات يوم في صلاة إذا بصيادين من الروم قد هدتهم[1] الجوارح علينا فتقدمت الجوارح، وكان الشيخ مما يليهم وعصاه مركوزة بين يديه فانقلبت العصا ثعبانًا فطردت الجوارح والصيادين حتى بعدوا ثم عادت فصارت عصا واقفة، ثم عادوا فانقلبت العصا ثعبانًا أعظم من الأول فطردت الجوارح وأربابها حتى غابوا عنا ثم عادت إلى موضعها عصا كما كانت . . . إلخ.

وذكر لنا ابن العربي الحاتمي رضي الله تعالى عنه في «الفتوحات المكية» (١/ ٢٢١ ـ ٢٢٨) كرامة غريبة عن أبي مدين وولد له صغير، فقال: كان للشيخ أبي مدين ولد صغير من سوداء، وكان أبو مدين صاحب نظر يدرك العلوم نظرًا، فكان هذا الصبي وهو ابن سبع سنين ينظر ويقول: أرى في البحر في موضع صفته كذا وكذا سفنًا وقد جرى فيها كذا وكذا فإذا كان بعد أيام وتجيء تلك السفن إلى بجاية مدينة هذا الصبي يوجد الأمر على ما قاله فيها فيقال للصبي: بم ترى؟ فيقول: بعيني. ثم يقول: إنما أراه بقلبي. ثم يقول: لا إنما أراه بوالدي، إذا كان حاضرًا ونظرت إليه رأيت هذا الذي أخبرتكم به، وإذا غاب عني لا أرى شيئًا من ذلك.

فهذه الظاهرة من الظواهر العجيبة وهي كرامة طريفة لأبي مدين كانت تتجلى في ولده الطفل بواسطة والده. ولهذه الكرامة شبه بكرامة أخرى حصلت لأبي مدين بواسطة فتى صالح من العباد السائحين، فقد ذكر سيدي الحاتمي في «مواقع النجوم» عنه: أنه كان في سياحته ودخل على عجوز في مغارة فقعد عندها حتى وصل ابن لها كان يعبد الله في تلك الجبال، فدخل وسلم على الشيخ أبي مدين فقدمت العجوز سفرة فيها صحن وخبزة فقعد الشيخ والفتى يأكلان فقال الشيخ أبو مدين تمنيت لو كان كذا وكان خطر ذلك في نفسه فقال له الفتى: قل: بسم الله يا سيدنا وكل ما شئت. فسميت الله وأكلت فإذا به طعام ما تمنيت، فلم أزل أقصد التمني وهو يقول

---

(١) المراد بالهد هنا صوت الكلاب وهي الجوارح المذكورة، لأن من معاني الهد الصوت الشديد والصوت الذي له دوي كما في القاموس.

مثل مقالته الأولى وأنا أجد الطعام ما تمنيت وكان الشاب صغيرًا . . . إلخ. فهذه الكرامة ظهرت في الشيخ بواسطة الشاب أيضًا.

وقال أيضًا: كان شيخنا[1] أبو مدين إذا خطر له خاطر في نفسه وجد جوابه مكتوبًا في ثوبه الذي عليه فخطر له يومًا أن يطلق امرأته وكان بحضور العارف أبي العباس الخشاب فرأى مخطوطًا في ثوب الشيخ: أمسك عليك زوجك. وذكر في «الفتوحات» (١/ ٦٦٦) عن عبد الله بن الأستاذ الموروزي أن الشيخ عبد الرزاق أو غيره رأى إبليس، فقال له: كيف حالك مع الشيخ أبي مدين عبد صالح إمام في التوحيد والتوكل؟ قال إبليس: ما شبهت نفسي فيما نلقي إليه في قلبه إلا كشخص بال في البحر المحيط فقيل له لم تبول فيه قال: حتى أنجسه فلا تقع به الطهارة. فهل رأيتم أجهل من هذا الشخص؟! كذلك أنا وقلب أبي مدين كلما ألقيت فيه أمرًا قلب عينه. اهـ. ذكر ذلك بمناسبة ذكره لحفظ قلوب الأولياء من الشيطان.

وذكر في «روح القدس» (ص ٣١) تلك الحكاية العجيبة التي حصلت له مع إبليس ورجل . . . إلخ. وخبره مع العارف سيدي موسى الطيار في «التشوف» أيضًا.

ومن أغرب وأروع ما سمع من ورع سيدي أبي مدين ما ذكره سيدي محيي الدين في «مواقع النجوم» (ص ١٠٥) وهو يتكلم على ورع القوم: وكأبي مدين رضي الله تعالى عنه في زماننا هذا الذي ما أكل هذه البقلة التي يقال لها القطف ورعًا لأنها تسمى بقلة الروم، وهذا من أكمل ما سمعته في الورع.

من كلامه في العلم والسلوك والتوحيد:

ولسيدي أبي مدين رضي الله تعالى عنه كلام رائق مفيد له أثره الخالد صدر عنه في شتى الموضوعات، وإلى القارىء بعض عيونه مقدمًا فيه ما وقع عليه السؤال:

---

(١) قد تكرر من ابن العربي هذا وفيه تسامح فإنه لم يلقه ولم يأخذ عنه مباشرة حتى يكون له شيخًا اللهم إلا أن يريد بذلك مشيخة الروح أو غير ذلك من الإحتمالات وسيأتي لنا في ترجمة سيدي ابن العربي التنصيص على عدم اجتماعهما جسميًا وإنما التقيا روحيًا وكان بينهما في ذلك اتصال وثيق رضي الله تعالى عنهما.

سئل عن الحب، فقال: أوله دوام الحب ووسطه الأنس بالمذكور وأعلاه أن لا ترى سواه[1]. وسئل عما خصه الله تعالى به فقال: مقامي العبودية وعلومي الألوهية وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية، ملأت عظمته سري وجهري وأضاء بنوره بري وبحري[2]، فالمقرب من كان به عليمًا ولا يسمو إلا من أتى قلبًا سليمًا يسلم من سواه، ولا يكون في الوعاء[3] إلا ما جعل فيه مولاه. وذكرت عنده العقبات[4] السبع التي في كتاب «منهاج العَابدين» للغزالي، فقال: رأيت من قطعها في سبعين عامًا بأن قطع كل عقبة منها في عشرة أعوام، ورأيت من قطعها كلها في ساعة واحدة كإبراهيم بن أدهم الذي قطعها في ساعة واحدة وجاءه التوفيق. وسئل عن الشيخ، فقال: الشيخ من شهدت له ذاتك بالتقديم وسرك بالتعظيم، والشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بأطرافه وأنار باطنك بإشراقه.

وكان يقول: شتان بين من همته الحور والقصور وبين من همته رفع الستور ودوام الحضور. وكان يقول: كرامات الأولياء نتائج معجزات سيدنا محمد ﷺ. وكان يقول: إذا رأيت من يدعي مع الله حالاً وليس على ظاهره شاهد فاحذره. ويقول: الملتفت إلى الكرامات كعابد الأوثان فإنه إنما يصلي ليرى كرامة. اهـ.

---

(١) وهو مقام الفناء في المحبوب والمعبر عنه عند القوم بمقام الجمع.

(٢) للصوفية ألفاظ وكلمات اصطلحوا عليها، يعبرون فيها عن أحوالهم ومنازلاتهم، فالبحر عندهم هو علم التوحيد والبر علم ظاهر الشريعة المطهرة.

(٣) الوعاء هنا المراد به القلب فلا يكون فيه إلا المحبوب وهو الله تعالى الذي هو مطلوب القوم.

(٤) العقبات السبع هي: عقبة العلم، وعقبة التوبة، وعقبة العوائق وأنواعها الدنيا الخلق الشيطان النفس، وعقبة العوارض وأنواعها الرزق الأخطار المصائب القضاء والقدر، وعقبة البواعث ولها نوعان الخوف والرجاء وعقبة القوادح وهما الرياء والعجب، وعقبة الحمد والشكر. فبقطع هذه العقبات يستقيم الإنسان وتصلح أحواله، والمتحقق بها هو المعبر عند القوم بالفقير والصوفي حققنا الله بها بمنه وكرمه، آمين. وفي هذه العقبات وضع لنا إمامنا الغزالي كتابه «منهاج العابدين» وأسلوبه وتخطيطه فيه عجيب لا يصدر إلا من أمثاله فما يقال أنه ليس من مؤلفاته لا حجة له، بل الواقع يصدق أنه من مؤلفاته.

ومعناه أن من كان قصده بالعبادات ظهور الخوارق والكرامات لا يكون مخلصًا في عبوديته بل تكون عبادته معلولة لا إخلاص فيها، وللقوم همة عالية في هذه الميادين فهم يجعلون مجرد طلب الأجر والثواب على العبادة مخلاً بالعبودية والإخلاص، سواء كان ذلك الأجر والجزاء مسبقًا في هذه الحياة ومنه الخوارق أو مؤخرًا وهو الجنة وما فيها من نعيم.

وكان يقول: حسن الخلق معاشرة كل شخص بما يؤنسه ولا يوحشه مع العلماء بحسن الإستماع والإفتقار، ومع أهل المعرفة بالسكون والإنتظار، ومع أهل المقامات بالتوحيد والإنكسار. وكان يقول: الحقُّ تعالى مطلع على السرائر والضمائر، وكل نفس وحال، فأي قلب رآه مؤثرًا له حَفِظَهُ من الطوارق والمحن ومضلات الفتن. وكان يقول: من رزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتلي فيها بالذل، ومن لم يجد من قلبه زاجرًا فهو خراب. وكان يقول: بفساد العامة تظهر ولاة الجور[1]، وبفساد الخاصة تظهر الدجاجلة[2] في الدين الفتانون. وكان يقول: من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه ومن خدم الصالحين ارتفع بخدمته، ومن حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالمقت من خلقه. وانكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وكان يقول: علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق. وكان يقول: الحق سبحانه وتعالى يُجري على ألسنة علماء كل زمان ما يليق بأهله وإذا ظهر الحق لم يبق معه غيره. وكان يقول: من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء

---

(١) لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأي مصيبة أعظم من أمراء الظلم، ولذلك أنشد بعضهم:

بذنوبنا دامت بليتنا ... والله يكشفها إذا تبنا

وفي الحديث الصحيح: «اللهم لا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا». وفي الحديث الآخر: «كما تكونوا يولى عليكم أو يؤمر عليكم». رواه الحاكم وغيره، من حديث أبي بكرة مرفوعًا، وسنده ضعيف، لكن الواقع والقرآن والسنة الصحيحة تؤيده.

(٢) وما أكثرهم اليوم، فالعالم ملآن زاخر بهم، أعاذنا الله والمؤمنين منهم ومن فتنتهم.

وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الإفتراء. وكان يقول: عمرك نفس واحد فاحرص أن يكون لك لا عليك، ليس للقلب إلا وجهة واحدة فمهما توجه إليها حجب عن غيرها. وكان يقول: إياك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذة مناجاته. وكان يقول: أضر الأشياء صحبة عالم غافل أو صوفي جاهل أو واعظ مداهن. ويقول: من عرف الله استفاد منه في اليقظة والمنام. ويقول: من ضيع حكمة وقته فهو جاهل، ومن قصر عنها فهو عاجز. ويقول: أنفع العلوم العلم بأحكام العبيد وأرفع العلوم علم التوحيد[1].

ويقول: لا ينفع مع الكبر عمل ولا يضر مع التواضع بطالة. ويقول: أفضل الطاعات عمارة الوقت بالموافقات. ويقول: الفتوة رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساويهم. ويقول: إنما حرموا الوصول بترك الاقتداء بالدليل وسلوكهم إلى الهوى. ويقول: بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة. ويقول: فقدان الأسف والبكاء في مقام السلوك علم من أعلام الخذلان. ويقول: من لم يصبر على صحبة مولاه ابتلاه الله بصحبة العبيد. ويقول: أبناء الدنيا تخدمهم العبيد والإماء وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار. ويقول: حب العلو على الناس سبب الانتكاس. ويقول: احذر محبة المبتدعة[2] اتقاء على دينك واحذر محبة النساء اتقاء على قلبك. ويقول: أسس هذا

---

(١) التوحيد نوعان: توحيد العامة ومنهم علماء الشريعة أهل الرسوم، وتوحيد الخاصة وهم العارفون بالله تعالى، والصوفية الكمل، والسابقون من هذه الأمة المقربون الذين تحققوا بالعبودية الخالصة وأحرزوا على مقامات اليقين وطرحوا أنفسهم بين يدي مولاهم فلم يروا في الكون غيره ولا يخطر ببالهم سواه بل يعتبرون الالتفات إلى غيره شركًا به.

(٢) المراد بالمبتدعة: من أحدثوا في الإسلام شيئًا لا يشهد له نص من الكتاب والسنة ولو إجماليًا وذلك كالمعتزلة والخوارج والروافض والنواصب والمرجئة والجهمية والمجسمة وغيرهم ممن أحدثوا في الدين بدعًا خالفوا فيها نصوص القرآن والسنة وخالفوا جماعة المسلمين ومنهم بعض المتزمتة والمتنطعة الحاليون فإنهم فرقة من الخوارج وقد امتازوا عن المسلمين بسب كل الطوائف الإسلامية ولعنها وتضليلها. حتى الأيمة الكبار منهم والعلماء المهتدين ومشايخ الصوفية الأعلام وأولياء الله الكرام لم يسلموا من سفه لسانهم ورفث كلامهم، يضاف إلى هذا ما هم متصفون به من الأوصاف الساقطة من إعجاب بالنفس واحتقار للغير وسوء ظن بكل الناس. وكفاهم بذلك زيغًا وضلالاً وبدعة. وفقنا الله لموالاة أحباب الله والأدب معهم آمين.

الشأن ـ يعني التصوف ـ على الجد والاجتهاد وقطع المألوفات والاعتياد. ويقول: كثرة الكلام والطعام والمنام تقسي القلب. ويقول: لا طريق أوصل إلى الحق من متابعة الرسول ﷺ في أحكامه.

إلى غير ذلك من رائق كلامه رضي الله تعالى عنه. ويلاحظ أن بعض هذه الفقرات من حِكَمِهِ قد تكلم بها الصوفية الأقدمون.

من قصائده ونظمه:

ويؤثر عن سيدي أبي مدين رضي الله تعالى عنه قصائد رائقة أنشأها في الطريق وفي بعض الجوانب التي لها تعلق بالصوفية وأحوالهم ورسومهم، فمن ذلك قوله في قصيدة من البحر الكامل:

الله قُلْ وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتادًا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما يشهدوا ... شيئًا سوى المتكبر المتعال
ورأوا سواه على الحقيقة هالكًا ... في الحال والماضي والاستقبال

ومنها من البسيط قوله:

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا[1] ... هم السلاطين والسادات والأمرا
فاصحبهم وتأدب في مجالسهم ... وخل حظك مهما خلفوك ورا
واستغنم الوقت واحضر دائمًا معهم ... واعلم بأن الرضى يخص من حضرا
ولازم الصمت إلا إن سئلت فقل ... لا علم عندي وكن بالجهل مستترا
ولا ترى العيب إلا فيك معتقدا ... عيبًا بدا بينا لكنه استترا

ومنها من الطويل:

---

(١) المراد بالفقراء هنا الصوفية العارفون بالله تعالى لا مجرد المتسببين، لأن الفقير عندهم هو الصوفي العارف.

تضيق بنا الدنيا إذا غبتم عنا وتذهب بالأشواق أرواحنا منا
فبعدكم موت وقربكم حيا فإن غبتم عنا ولو نفسًا متنا
نموت ببعدكم ونحيا بقربكم وإن جاءنا عنكم بشير اللقا عشنا
ونحيا بذكركم إذا لم نراكم ألا إن تذكار الأحبة ينعشنا
فلولا معانيكم تراها قلوبنا إذا نحن ايقاظ وفي النوم إن غبنا
لمتنا أسى من بعدكم وصبابة ولكن في المعنى معانيكم معنا
يحركنا ذكر الأحاديث عنكم ولولا هواكم في الحشا ما تحركنا
فقل للذي ينهى عن الوجد أهله إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقًا إلى اللقا نعم ترقص الأشباح[1] يا جاهل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يا فتى إذا ذكر الأوطان حن إلى المغنى
يفرج بالتفريج ما بفؤاده فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
ويرقص في الأقفاص شوقًا إلى اللقا فتهتز أرباب العقول إذا غنى
كذلك أرواح المحبين يا فتى تهزها الأشواق للعالم الأسنى

ومنها من البسيط:

تحيى بكم كل أرض تنزلون بها كأنكم في بقاع الأرض أمطار
وتشتهي العين فيكم منظرًا حسنًا كأنكم في عيون الناس أزهار
ونوركم يهتدي الساري برؤيته كأنكم في ظلام الليل أقمار
لا أوحش الله ربعًا من زيارتكم يا من لهم في الحشا والقلب تذكار

---

(١) فرقص الصوفية منشؤه في الغالب الوجد، وقد يفعلونه تواجدًا أو ترويحًا لأنفسهم، وأصله الإباحة، وقد تعتريه الحرمة إذا كان مع اختلاط النساء أو الأحداث أو كانت فيه مصانعة ونفاق ورياء، وقد يكون مستحبًا إذا خلا من كل ذلك وكان هناك وجد وهيام في الله تعالى، ومن أراد الإحاطة بأحكامه والتفصيل فيه فليرجع «للإحياء» لإمامنا الغزالي فقد عقد فيها بحثًا هامًا في السماع والرقص وما يتعلق بذلك، ولنا في أحكامه رسالة خاصة لم تنشر بعد على أن الرقص ليس من أساس الطريق كما قد يفهمه البعض.

أخريات سيدي أبـي مدين ووفاته ومدفنه:

بقي مترجمنا سيدي أبو مدين على حالته من الإرشاد والإصلاح والدعوة إلى الله تعالى وتربية المريدين طوال حياته ليل نهار، وكان مقره الأخير بجاية من بلاد الجزائر لأنها كانت ــ كما يقول ــ تعين على طلب الحلال، وعندما انتشر أصحابه وكثر أتباعه بكل أنحاء المغرب، وبعض الجهات الشرقية حسده بعض الفقهاء وعلماء الرسوم الجامدين الذين لا زالوا ولا يزالون ضد هذه الفرقة، فوشى به إلى سلطان وقته يعقوب المنصور أحد ملوك الموحدين وحذره منه وقال له: إنه يشبه الإمام المهدي، وإن له أتباعًا كثيرة في سائر البلاد فخافه السلطان فأمر خليفته وعامله ببجاية أن يبعث به إليه وأوصاه بالإحسان إليه، فامتثل الشيخ الأمر وتجهز للسفر فاشتد ذلك على أصحابه فوعدهم بأنه لا يرى السلطان ولا يلقاه فاطمأنوا لذلك فودعهم وخرج ولما وصل لمدينة تلمسان مرض مرضه الأخير ولما اشتد عليه ذلك طلب منه بعض أصحابه أن يوصي ويعهد إليهم فقال: سبحان الله، وهل كانت حياتي كلها إلا وصايا لكم؟! وعقب ذلك بقليل وافاه أجله المحتوم فخرجت روحه الطاهرة، وذلك سنة ٥٩٤هـ، ودُفن في مرقده الأخير بجبل العباد خارج تلمسان[١]. فكان ذلك آخر عهد هذا العالم بذلك المصلح العظيم والمربـي الكبير، طيب الله ثراه وأسبل على مرقده شآبيب رحماته.

فحياك الله يا سيدنا أبا مدين، وسلامًا عطرًا متواليًا على ضريحك يا سيدنا شعيبًا وإلى اللقاء معك في ساعة أخرى سعيدة.

وقد أفرده بالترجمة العلامة ابن الخطيب المعروف بابن قنفذ بكتابه «أنس الفقير»، فارجع إليه وهو مطبوع. وليكن هذا آخر كلامنا على هذا الإمام وبالله المستعان.



(١) وقد تفضل الله علي وشرفني وله الحمد بزيارة ضريحه والترحم عليه والدعاء عنده.

سيدي أبو العباس السبتي

ومن رجال المائة السادسة الذين عاشوا أيام الموحدين سيدي أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجي السبتي الولي الزاهد العالم العارف بالله ذو الكرامات الشهيرة والمناقب الكثيرة والأحوال الباهرة، نزيل مراكش وبركتها ودفينها، وُلد بمدينة سبتة سنة أربع وعشرين وخمسمائة، آخر أيام المرابطين. وببلدته نشأ وحفظ القرآن الكريم وأخذ العلم عن العارف سيدي أبـي عبد الله الفخار دفين تطوان وأحد تلامذة القاضي عياض.

وكان سيدي أبو العباس جميل الصورة أبيض اللون حسن الثياب فصيح اللسان ذا بسطة فيه وقدرة على الكلام، كان لا يناظره أحد إلا أفحمه ولا يسأله إلا أجابه، كان القرآن والحجج على طرف لسانه حاضرة، يأخذ بمجامع القلوب ويسحر العامة والخاصة ببيانه، يأتيه المنكر للإنكار عليه فما ينصرف إلا مسلمًا منقادًا، وكان حليمًا صبورًا يحسن إلى من يؤذيه ويحلم على من يسفه عليه، رحيمًا عطوفًا محسنًا إلى اليتامى والأرامل.

وكان في أوائل أمره يسكن الفندق ويعلم الطلبة النحو والحساب، وما يأخذه من أجرة ينفقه على الطلبة الغرباء وباقي أوقاته يقضيها متجولاً في الأسواق يذكر الناس ويأمرهم بالصلاة ويضربهم على تركها.

وذكر عن نفسه أنه كان في ابتداء حاله يسمع كلام الناس في التوكل فترك الأسباب والعلائق نهائيًا وخرج سائحًا حتى أجهده الجوع والتعب، وكان كما يقول

قد نشأ في رفاهية من العيش فدخل قرية وقصد مسجدها فصلى المغرب ثم العشاء وتفرق المصلون وبقي كذلك وهو تعبان جائع فجلس يتلو القرآن، فإذا رجل قد أقبل يبحث عن بقرة له فوجده بالمسجد فقال له لعلك ما أكلت شيئًا فذهب فأتاه بخبز ولبن ثم انصرف فوجد بقرته بالدار ثم قال لعلني ما خرجت إلا لأطعم هذا الجائع.

ويعتبر سيدي أبو العباس من عجائب الزمان فكانت له أحوال غريبة وخاصة فيما يرجع إلى الزهد في الحياة وعدم اكتراثه بالمال ومتاع الدنيا، وتحققه بمقام الإيثار.

فقد ذكر ابن الخطيب قال: حدثني أبو الحسن الصنهاجي من خواص خدامه قال: سألته عن بدايته وبما تنفعل له الأشياء ويستجاب له الدعاء، ولم صار يأمر بالصدقة والإيثار كل من شكى إليه حالاً أو تعذر عليه مطلوب في هذه الدار.

فقال لي: ما آمر الناس إلا بما ينتفعون به؛ لأني لما قرأت القرآن وقعدت بين يدي الشيخ أبي عبد الله الفخار ونظرت في كتب الأحكام وبلغ سني عشرين سنة تدبرت قوله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠]. وقلت: إني مطلوب به، فبحثت عن الآية، فوقفت على أنها نزلت[١] حين آخى ﷺ بين الأنصار والمهاجرين فسألوه أن يعلمهم حكم المؤاخاة فأمرهم بالمشاطرة، ففهمت أن العدل المأمور به في الآية هو المشاطرة ثم تأملت حديث: «تفترق أمتي على ثلاث وسبعين» وأنه ﷺ لما آخى بين الصحابة وذكر له الأنصار أنهم شاطروا المهاجرين ذكر ذلك[٢] الحديث إثره.

---

(١) هذا لا يعرف في كتب السنة المشرفة ولا في الكتب المؤلفة في أسباب النزول ولا في كتب التفسير ولا في كتب السيرة، والآية من سورة النحل وهي مكية والمؤاخاة كانت بالمدينة المنورة فالله أعلم من أين جاء بهذا.

(٢) هذا الحديث وارد من طرق عن جماعة من الصحابة وهو في المسند والسنن وغيرها بأسانيد صحيحة ولكن ما ذكره من أنه ﷺ قال هذا الحديث عقب المؤاخاة والمشاطرة هو مما لا يعرف في كتب السنة أيضًا فالله أعلم بالواقع.

فقلت: إن الذي هو عليه وأصحابه الإيثار والمشاطرة فعقدت مع الله تعالى أن لا يأتيني شيء إلا شاطرت فيه الفقراء، فبقيت عليه عشرين سنة فأثمر لي حكم الخاطر[1]، فلا يحكم خاطري بشيء إلا صدق. فلما أكملت أربعين سنة تدبرت الآية فإذا العدل هو الشطر والإحسان زائد عليه فعقدت نية أن لا يأتيني قليل ولا كثير إلا أعطيت ثلثه لله عز وجل فعملت عليه عشرين سنة فأثمر لي الحكم بالولاية أو العزل فأولي من شئت وأعزل من شئت[2]. ثم نظرت بعد في أول ما فرضه الله على عباده في مقام الإحسان فوجدته شكر النعمة بدل إخراج الفطرة على المولود قبل أن يفهم. ووجدت أصناف من يعطى الصدقة الواجبة سبعة[3] وسبعة أخر صرفها فيها الإحسان والزيادة وذلك أن لنفسك عليك حقًّا ولزوجك عليك حقًّا وللرحم حقًّا وللضيف حقًّا ولليتيم حقًّا، وذكر صنفين آخرين.

قال: فانتقلت لهذه الدرجة وعقدت معه تعالى عقدًا في إمساك سبعي حق النفس والزوجة وصرف الخمسة الأسباع لمستحقيها فأقمت عليه أربعة عشر عامًا فأثمر لي الحكم في السماء[4]، فإذا قلت: يا رب، قال لي: لبيك. ثم قال لي: نهايته بتمام عمري بعد ستة أعوام تكملة العشرين عامًا. قال الصنهاجي: فأرخت ذلك اليوم فلما مات وحضرت جنازته تذكرت التاريخ وحققت العدد فنقصت من الستة الأعوام ثلاثة أيام فيحتمل كونه من الشهور الناقصة.

---

(١) الإلهام والكشف.

(٢) هذا مقام يعطيه الله تعالى من يشاء من عباده وأوليائه وهو مقام التصريف في الكون وقد كان على هذا القدم كثير من العارفين وقد يزهد فيه بعضهم فلا يعبأ به وقد اعترف الإمام ابن تيمية بهذا وبينه ومثّل له وصرح به تصريحًا واضحًا في كتابه قاعدة في المعجزات والكرامات (ص ٥ ـ ٦ ـ ٧ ـ ٩ ـ ١٠) فانظره في مجموعة الرسائل والمسائل.

(٣) بل هم ثمانية كما في الآية الكريمة: إنما الصدقات للفقراء الآية.

(٤) هو من جنس ما سلف من التصريف الذي يمنحه الله بعض أوليائه وهو موهبة من الله عز وجل، والأخبار في ذلك عن الأولياء والصالحين لا تحصى والمنكرون لهذا والمكذبون به جهلة بالله محجوبون برعونات نفوسهم وموبقاتها.

وهكذا كانت أحواله مع الناس أيضًا فهو لتحققه بمقام الزهد والإيثار كان لا يأتيه أحد يريد شيئًا إلا أمره بالصدقة والإحسان، وكان يقول: كل ما أردت أن يفعل الله بك فافعله مع عبيده. وقيل له مرة: أما ترى ما فيه الناس من القحط والغلاء؟ فقال: إنما حبس المطر عنهم لبخلهم فلو تصدقوا لمطروا. وشكى إليه شخص مرة تأخر المطر فأمره بإخراج شطر ما أنفق صدقة ففعل، قال: فخرجت إلى البحيرة التي عمرتها والشمس شديدة الحر فأيست من المطر وقد أشرف جميع غرسي على الهلاك فبقيت ساعة فإذا سحابة أمطرت البحيرة ورويت، وظننت أن الدنيا كلها أمطرت فخرجت فإذا هو لم يتجاوزها. أقول: وهذه القصة شبيهة بصاحب الحديقة الذي أمطر وحده لكونه كان يتصدق بثلث محصوله وحديثه في «صحيح مسلم»، وقد تقدم نحو هذا في أخبار أبـي يعزى.

ومن أخباره الرائعة النادرة في الإيثار ما ذكره ابن الزيات في «التشوف» عن أبـي العباس الصنهاجي خديم الشيخ: أن رجلاً كان يُعرف بابن السماك وكان غنيًا فافتقر ووصل لأبـي العباس عليه ثـوب خـلق تظهر منه عورته، فشكى إليه حالته فأخذ بيده إلى أن خرج معه من باب تاغزوت، فجاء إلى مطهرة هناك. قال فدخل أبو العباس المطهرة وتجرد من ثيابه وناداه: خذ هذه الثياب. فأخذها، وكان ذلك بعد العصر فأراد أن يعرف ما يكون مـن أمـره فصعد إلى حائط وجعل يرقبه، فإذا بفتى خرج من الباب على دابة معه رزمة ثياب، فلما رأى الرجل نزل إليه، فقال له: أين الفقيه أبو العباس؟ فقال: ها هو في الساقية عريان. فقال له: أمسك الدابة. فسمع أبا العباس يقول له من داخل المطهرة: أين تلك الثياب؟ فأخذها منه وخرج، ثم سأل الرجل ذلك الفتى عن سبب مجيئه، فذكر أن إحدى الكرائم أمرته أن يحملها، وقالت له لا تدفعها إلا للفقيه ولا يلبسها إلا هو. قال وهذه قصة صحيحة مشهورة. اهـ.

نعم، إنها والله لقصة عجيبة اشتملت على أخلاق وأوصاف نادرة وكرامات لا يتصف بها إلا أمثال سيدي أبـي العباس الذي كان قد استوى عنده التبر والبعر.

من فوائده ومنازعه واستنباطاته:

وكان له منازع واستنباطات هامة فكان يقول: معنى قول المصلي: الله أكبر، أي: هو أكبر من أن نضن[1] عليه بشيء. فمن رأى شيئًا من متاع الدنيا في نفسه أكبر فلم يحرم ولا كبر. ومعنى رفع اليدين في التكبير: تخليت من كل شيء لا قليلاً ولا كثيرًا. وهكذا يتكلم في جميع العبادات، ويقول: سر الصوم أن تجوع، فإذا جعت تذكرت الجائع وما يقاسيه من نار الجوع فتصدق عليه، فمن صام ولم ينعطف على الجائع فكأنه لم يصم.

ومن منازعه ما ذكره ابن الزيات بقوله؛ وكان يقول: أصل الخير في الدنيا والآخرة الإحسان، وأصل الشر البخل. قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦...﴾ الآية [الليل: ٥ ـ ٦].

وقال إبليس ـ فيما ذكره القرآن الكريم ـ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: ١٧].

وقال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ۝٧٦...﴾ الآية [التوبة: ٧٥ ـ ٧٦].

وقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...﴾ [الحشر: ٩].

وقال: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ...﴾ الآية [القلم: ١٧].

وقال: ﴿۞ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٤].

وقال: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ...﴾ الآية [البقرة: ١٧٧].

---

(١) ضن بالشيء أي بخل به.

وقـــال: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ . . . ﴾ الآيـــة [الأحزاب: ٧٢].

فهي أمانة الرزق، فأعطت السماء ما فيها من الماء وهو المطر، والأرض ما فيها من المياه النازلة من الجبال، وكذا الجبال، وأنبتت الأرض وأبت إمساكها، فخزن الإنسان جميعًا عنده ومنع المساكين أنه كان ظلومًا جهولاً. وفي الحديث: «هم الأقلون ورب الكعبة إلا من قال هكذا وهكذا» الحديث[1]. وكان آخر عمره كثيرًا ما يقرأ قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا . . . ﴾ الآيات إلى ﴿ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠ ﴾ [النجم: ٣٣ ــ ٤٠].

ويقول: من قال إن الله لا يجازي على الصدقات فقد وافق اليهود في الفرية على الله تعالى، لأنهم قالوا: يد الله مغلولة، أي: لا يجازي على الصدقات. ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾، أي: يجازي عليها كيف يشاء. ويقول في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ . . . ﴾ الآية [التوبة: ٣٤]. إنما كويت هذه المواضع لأن الغني يعرض عن المسكين بوجهه ثم بظهره فعوقبت هذه المواضع بكي النار لإعراضه عنه. ومنازعه رحمه الله تعالى في أمثال هذا كثيرة. اهـ.

إنها لدروس قيمة وتوجيهات رائعة وعظات بالغة، فهكذا يجب أن يكون رجال العلم والدين. فحياك الله يا سيدنا السبتي وطيب مرقدك.

ومن نوادر منازعه ما ذكره التادلي عنه: أنه بات ليلة مع الطلبة فارتفعت أصواتهم بالمذاكرة فجاءهم الحرس فقالوا لهم: ما تعلمون أن من رفع صوته بالليل يقتل[2]. فوقف إثنان منهم بباب الفندق حتى يطلع الفجر ليحملوا الطلبة للقتل،

---

(١) اللفظ المشهور الذي في الصحيحين وغيرهما: «هم الأخسرون ورب الكعبة إلا من قال هكذا وهكذا» وهو من حديث أبي ذر. وفي رواية عن ابن ماجه عن أبي ذر وأبي هريرة: «الأكثرون هم الأسفلون إلا من قال هكذا وهكذا» وكلا الحديثين سنده صحيح. أما اللفظ المذكور فلا أعرفه.

(٢) صدور مثل هذا في الدولة الموحدية غريب، فرفع الصوت لا يوجب في هذا المقام حتى ⁼

فدخل الطلبة خوف عظيم وتيقنوا الهلاك فجعل أبو العباس يضحك ثم خلا بنفسه ساعة عند السحر، ثم قال لهم: لا خوف عليكم قد استوهبتكم من الله، وهذان الحارسان سيقتلان غدًا إن شاء الله تعالى. فقيل له: الجزاء عندنا من جنس العمل وهما لم يفعلا ما يوجب قتلهما. فقال: العلماء ورثة الأنبياء وترويعكم عظيم لا يقابل منهم إلا بالقتل. فما زالوا يعارضونه في ذلك حتى قال عقوبتهما أن يضرب كل واحد مائة سوط. فكان الأمر كذلك فمن الغد ضربا مائة سوط لكل واحد منهما لتهمة ألصقت بهما. اهـ.

وعلى كل فأخباره كثيرة ومناقبه شهيرة، توفي سنة إحدى وستمائة وقيل غير ذلك بمدينة مراكش وبها دفن وقبره مشهور مزارة عظيمة، والدعاء عنده مستجاب ولا سيما بعد تقديم هدية وصدقة للفقراء والمساكين. قال ابن الخطيب: وأنا ممن جرب ذلك وتعرفت من بدىء زياراته ما تحققت به من بركته وشهدت على برهان دعوته. قال أحمد بابا في «النيل»: وإلى الآن ما زال الحال على ما كان عليه في روضته من ازدحام الخلق عليها وقضاء حوائجهم، ولكن قل ذلك العطاء لفساد الزمان. قال: وقد زرته[1] ما يزيد على نحو خمسمائة مرة وبت هناك ما ينيف على ثلاثين ليلة وشاهدت بركته في الأمور فلله الحمد.

قال ابن الخطيب في «أنس الفقير» حضرت عند ولي الله تعالى على التحقيق وهو الشيخ الحاج الزاهد الورع الصالح أبو العباس أحمد بن عاشر الأندلسي بمدينة سلا في عام ثلاثة وستين وسبعمائة. سأله أحد الفقراء عن هذا الفضل ــ يعني الكرامات ــ فأنكر عليه سؤاله، وقال: لا تتعطل الكرامة بالموت. انظر إلى السبتي

= العتاب والتأنيب فكيف بالضرب، فكيف بالقتل، ولا سيما ورفع الصوت كان في مذاكرة علمية بين الطلبة. لكن الظلم لا ينجو منه إلا من رحمه الله وقليل ما هم.

(١) وقد شرفني الله تعالى بزيارته مرارًا كثيرة فلله الحمد والشكر، ولا زال أثر حاله ظاهرًا عند ضريحه إلى الآن، على الرغم من فساد الوقت وظهور المنكرين وانتشار الفساد وسوء الظن بالأولياء.

المدفون بمراكش وما ظهرت عند قبره من البركات في قضاء الحاجات بعقب الصدقات. اهـ.

قال ابن الخطيب: ولقد وقفت على قبره مرات وسألت الله في أشياء يسرها لي، منها: أن أكون ممن يشتغل بالعلم ويوصف به، وأن ييسر على فهم كتب عينتها، فيسر الله على ذلك في أقرب مدة. قال: وقبره له بركات. اهـ.

ولما تكلم سيدي أحمد زروق في القواعد على زيارة المقابر، وقال: كل من يجوز التبرك به في حياته يجوز التبرك به بعد موته. ونقل كلام الغزالي في ذلك، قال: سيما من ظهرت كرامته بعد موته، مثلها في حياته كالسبتي، أو أكثر منها في حياته كأبـي يعزى أو من جرب إجابة الدعاء عند قبره وهو غير واحد في أقطار الأرض... إلخ.

مـلاحـظـة: بمدينة سبتة ضريح يعرف بأبـي العباس السبتي يظن الكثيرون ممن لا معرفة لهم بالتاريخ أنه ضريح السبتي هذا، وليس كذلك. وقد وقفت عليه، ورأيت هناك ضريحًا يزوره الناس وإلى جنبه مسجد وعنده قيِّم، فالله أعلم من صاحب ذلك الضريح، وصلَّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم تسليما.



مولانا عبد السلام بن مشيش

وههنا يجيء دور الشريف النسيب، العارف الكبير والقطب الشهير، الجبل الشامخ، شيخ مشايخ الصوفية وإمام أئمة الطريقة الشاذلية، أبـي محمد سيدي عبد السلام بن مشيش بن أبـي بكر بن علي بن حرمة بن عيسى بن سلام بن مزوار بن علي بن محمد بن مولانا إدريس دفين فاس بن مولانا إدريس دفين زرهون وفاتح المغرب بن مولانا عبد الله الكامل بن مولانا الحسن المثنى بن مولانا الحسن السبط بن سيدنا ومولانا علي ومولاتنا وسيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيد العالمين عليهم من ربهم جميعًا الصلاة والسلام[1].

---

(١) أجداده إلى سيدي مزوار كلهم مقبورون بقبيلة بن عروس، فسيدي سلام مدفون بالقرب من قرية مجمولة بقرب داره التي كان يسكنها وكانت داره لا يزال أثرها إلى قرب هذا العهد ثم خربها بعض الجهلة وحرثها، وهذا الضريح موقعه اليوم على بعد ميل من خميس بني عروس إلى جهة القبلة وأنت صاعد في قرية مجمولة، وهو أول من سكن هذه القبيلة ويذكرون في سبب ذلك حكاية مشهورة عند أهل القبيلة.
وأما عيسى فضريحه بأسفل قرية بوعمار لجهة القبلة يبعد عن الخميس بنحو من ثمانية كلم تقريبًا شمالاً.
وأما بوحرمة فضريحه بقرية امجازليين يبعد عن الخميس بنحو من عشرين كلم تقريبًا بجهة الغروب.
وأما علي فضريحه يقع على جرف الوادي قبالة بوجبل بينه وبين الخميس نحو من نصف ميل لجهة الجنوب.
=

مولانا عبد السلام وقبيلة بني عروس:

بلدة مولانا عبد السلام وقبيلة أجداده الكرام هي قبيلة بني عروس وهي من القبائل الجبلية القريبة من ساحل المحيط تكتنفها وتحيط بها عدة قبائل جبلية وهي بينها كالعروس. فشرقًا بنو ليث وجنوبًا الأخماس وبنو يوسف وسوماتة وبنو جرفط وشمالاً بنو حزمار وبنو يدير وجبل الحبيب وغربًا الغربية والخلوط.

وعمالتها مدينة تطوان ودائرتها الخميس وأربعاء عياشة. والجبل الذي يقع فيه الضريح مرتفع شاهق ناطح السحاب شديد البرودة في فصل الشتاء، ويكثر سقوط الثلوج فيه أكثر السنين وهواؤه بارد طيب ممتاز في فصل الصيف، ويمتاز هذا الجبل بارتفاعه عن سطح الأرض وطول غاباته وأشجاره ذوات القرون وموقعه شرق جنوب طنجة وغرب جنوب تطوان، ويبعد عن تطوان بنحو ستين كيلومتر. أما طنجة فبينه وبينها نحو من مائة وبضعة كيلومتر.

وتمتاز هذه القبيلة المباركة عن غيرها من القبائل المجاورة لها بكثرة الشرفاء وآل البيت النبوي الأطهار العلميين من أولاد مولانا عبد السلام وأهل بيته، كما تمتاز

= وأما سيدي أبو بكر فضريحه بأسفل قرية عين الحديد عن يمين طريق السيارات الصاعدة لسوق الخميس بينه وبين الخميس نحو من ثمانية كلم تقريبًا.

ومن سيدي أبي بكر يتفرع النسب العالي كما نص عليه علماء الأنساب والتواريخ.

أما سيدي مشيش ويقال بشيش بالباء فضريحه في وسط جبل العلم لجهة الغروب بموضع يقال له أغيل كانت هناك قرية فخربت أيام حرب إسبانيا مع جبالة. وكنا نسكنها أيام هجرتنا من العدو الإسباني كما حدثني بذلك والدي رحمه الله تعالى. وذلك قبيل الاحتلال بقليل سنة ١٣٤٧ عام ولادتي وبالقرب من سيدي مشيش لجهة الشمال قرية قليلة السكان تسمى بوعلقمة ولجهة الجنوب غربًا قرية تجزرت وبقرب الضريح مسجد وأثر دار سكناه وغير ذلك.

وهؤلاء الأجداد الأشراف كانوا كلهم صالحين في أيامهم معظمين عند أهل القبيلة وليس لهم تاريخ لحياتهم لأنهم كانوا يعيشون أيام الفتن والاضطرابات التي أصابت آل البيت النبوي، غير أنهم كانوا في فترة تاريخية ما بين سنة ٢٣٥ إلى سنة ٥٣٠ بالتقريب كما أفاده بعض المؤرخين.

بكثرة حفظة القرآن الكريم وإن كان هذا قد ضعف في هذا العصر لانصراف الناس عنه للمدارس الأجنبية، ولا تخلو هذه القبيلة من مجاذيب وبهاليل ومباركين وأرباب الأحوال، فطيب الله ثراك يا ابن مشيش وقدس سرك فما أبرككم على هذه البلاد لا أعدمنا الله بركاتكم وبركات أجدادكم.

والسبب في وجود هذا البيت الطاهر بهذه القبيلة مهاجرة جدهم الأعلى سيدي مزوار المتوفى بحجرة النسر من سومانة وكان رجلاً صالحًا دينًا تقيًا زاهدًا ترجمته مستوفاة في سلوة الأنفاس وغيرها. وأول من سكن بني عروس سيدي سلام بن سيدي مزوار، يقال: إن أباه دفعه إلى أهل القبيلة تتبرك به بعد طلبهم ذلك منه. سكن بقرب مجمولة حيث ضريحه ومنه تسرب هذا النسل الشريف في هذه القبيلة وغيرها.

ولادة مولانا عبد السلام وتاريخ ذلك ومسقط رأسه... وما يتبع ذلك:

ففي هذه القبيلة الشريفة وُلد هذا الإمام العظيم في القرية التي كان يسكنها والده سيدي مشيش وهي الحصين أسفل جبل العلم لجهة القبلة، حيث يوجد لحد الآن الدار المولود فيها، وقد جعلت كُتَّابًا يتعلم فيها القرآن ونعما ذلك، وقد زرتها مرارًا وبت فيها والحمد لله.

ولا يعرف على التحقيق تاريخ ولادته، ويرى بعض المؤرخين من الشرفاء العلميين وغيرهم أنه وُلد سنة ٥٥٩هـ أو ٥٦٣هـ وبقرية الحصين، نشأ وتعلم الكتابة والقراءة، ويقال: إنه لم تمر عليه اثنتا عشرة سنة حتى حفظ القرآن الكريم بالروايات السبع، ويقال: إن شيخه في القرآن هو الولي الصالح سيدي سليم دفين قبيلة بني يوسف. قال الأستاذ الشريف اللهيوي[١]: ومن أشهر مشايخه في الدراسات العلمية الولي الصالح الفقيه العلامة سيدنا الحاج أحمد الملقب أقطران، وقد استبدلت هذه

(١) في كتابه حصن السلام بين أولاد مولاي عبد السلام.

الكلمة أخيرًا بالعسلاني تأدبًا مع الشيخ المذكور وهو دفين قرية أبرج بقبيلة الأخماس بالقرب من باب تازة. . . قال: وضريح الشيخ يعتبر من المزارات الشهيرة[1]. قال: كان الشيخ المذكور يأخذ عنه العلوم الفقهية بالمدونة على مذهب مالك. قال: ومن مشايخه في العلم أخوه الأكبر سيدنا الحاج الرضي . . . إلخ.

وهذا يخالف ما سيأتي من أنه اعتراه جذب منعه حسه وهو ابن سبع سنين غير أن صلاته المشيشية تعرب لنا عن حاله وتحقق لنا أنه كان رجلاً عالمًا متمكنًا في ذلك لأن هذه التصلية لا يستطيع إنشاءها إلاّ ذو علم. نعم، قد يقع ذلك نادرًا من بعض العاميين أو الأميين ممن يفتح الله تعالى عليهم ويكون ذلك كرامة لهم كما حصل مثل ذلك لكثيرين منهم ولذلك أمثلة شهيرة نرجىء الكلام عليه لمحل آخر.

أخذ الطريقة عن العارف بالله سيدي عبد الرحمن بن الحسن الشريف العطار المدني الشهير بالزيات، وتوفي[2] بترغة الغمارية على شاطىء المتوسط ويعرف عندهم بفقيه مولاي عبد السلام. أما الموضع المعروف به عن يمين ضريح مولاي عبد السلام فهو موضع تعبده لا ضريحه. نعم، هناك ضريح الشريف الصالح الشهيد سيدي أحمد التَّزْيَـي قتل من جراح شظية قنبلة طائرة أصابته سنة ١٣٤٦هـ، ولا يعرف لمولانا عبد السلام أصحاب ولا تلاميذ غير القطب أبـي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه.

بسط ترجمته وأخباره ومناقبه ومراحله:

إن ترجمة مولانا عبد السلام رضي الله تعالى عنه قد تناولتها أقلام كثير من العلماء والمؤرخين وقلما يوجد تاريخ لم يتعرض له، وقد أفرده جماعة بالتآليف، ويوجد عدة منها في الخزانة العامة والخزانة الملكية بالرباط وقفت عليها.

---

(١) يقصده الناس للزيارة وخاصة من عاهة الصرع والجنون، ويحصل عنده عجائب من الاستجابة وشفاء المرضى بإذن الله تعالى وله موسم يعقد له سنويًا في فصل الصيف.

(٢) كما قال بعض المؤرخين.

وقد ذكر العارف ابن عطاء الله في «لطائف المنن» كثيرًا من أخباره نقلاً عن أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، وإليكم ذلك مؤثرًا له لتحققنا من صحته عنه، قال (١/ ٩٠؛ ٩١): كنت في سياحتي في مبدأ أمري حصل لي تردد، هل ألازم البراري والقفار للتفرغ للطاعة والأذكار أو أرجع إلى المدائن والديار لصحبة العلماء والأخيار؟ فوُصف لي وليٌّ هناك وكان برأس جبل فصعدت إليه، فما وصلت إليه إلاَّ ليلاً، فقلت في نفسي لا أدخل عليه في هذا الوقت فسمعته وهو يقول من داخل المغارة: اللهم إن قومًا سألوك أن تسخر لهم خلقك فسخرت لهم خلقك فرضوا منك بذلك، اللهم وإني أسألك اعوجاج الخلق عليَّ حتى لا يكون لي ملجأٌ إلاَّ إليك. قال: فالتفت إلى نفسي وقلت يا نفسي انظري من أي بحر يغترف هذا الشيخ. فلما أصبحت دخلت عليه فأرعبت من هيبته فقلت له: يا سيدي كيف حالك؟ فقال لي: أشكو إلى الله من برد الرضى والتسليم كما تشكو أنت من حر التدبير والاختيار. فقلت له يا سيدي: أما شكواي من حر التدبير والاختيار فقد ذقته وأنا فيه. وأما شكواك من برد الرضى والتسليم فلماذا؟ قال: أخاف أن تشغلني حلاوتهما عن الله. فقلت: يا سيدي سمعتك البارحة تقول: اللهم إن قومًا سألوك أن تسخر لهم خلقك . . . إلخ. فتبسم ثم قال: يا بني عوض ما تقول سخر لي خلقك، قل: يا رب كن لي، أترى إن كان لك أيفوتك شيء؟ فما هذه الجناية. اهـ.

وقال ابن عطاء الله أيضًا (١/ ٩٢) في «لطائفه» عن الشاذلي؛ قال: كنت يومًا بين يدي الأستاذ ــ يعني ابن مشيش ــ فقلت في نفسي: ليت شعري هل يعلم الشيخ اسم الله الأعظم؟ فقال ولد الشيخ ــ وهو في آخر المكان الذي أنا فيه ــ: يا أبا الحسن ليس الشأن من يعلم الاسم، الشأن من يكون هو عين الاسم. فقال الشيخ من صدر المكان: أصاب وتفرس فيك ولدي[1]. اهـ.

---

(١) هذا الولد كان أكبر أولاده وهو ولي الله سيدي محمد، المدفون مع والده في روضته.

وقوله: (الشأن من يكون هو عين الاسم) معناه: أن يكون متحققًا بمقام الجمع فانيًا في الله لا يشاهد في الكون سواه.

وتعرض له الإمام أحمد بن عياد في «المفاخر العلية» (ص ١٤، ١٥) عندما تعرض لرحلة أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه، قال: لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله، وكان بالعراق شيوخ كثيرة، وكنت أطلب القطب، فقال لي الشيخ أبو الفتح: تطلب القطب بالعراق وهو في بلادك؟! ارجع إلى بلادك تجده. فرجعت إلى بلاد المغرب إلى أن اجتمعت بأستاذي الشيخ الولي العارف الصديق القطب الغوث أبي محمد عبد السلام بن مشيش الشريف الحسني.

قال رضي الله تعالى عنه: لما قدمت عليه وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل اغتسلت في عين في أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي وطلعت عليه فقيرًا وإذا به هابط علي، فلما رآني قال: مرحبًا بعلي بن عبد الله بن عبد الجبار. وذكر لي نسبي إلى رسول الله ﷺ، ثم قال لي: يا علي طلعت إلينا فقيرًا عن علمك وعملك، أخذت منا غنى الدنيا والآخرة. فأخذني منه الدهش، فأقمت عنده أيامًا إلى أن فتح الله علي بصيرتي، ورأيت له خرق عادات من كرامات وغيرها. ثم ذكر قضية الطفل في الاسم، ثم قال فقلت له: يا سيدي أوصني. فقال: الله الله، والناس تنزه لسانك عن ذكرهم، وقلبك عن التماثيل من قبلهم، وعليك بحفظ الجوارح وأداء الفرائض، وقد تمت ولاية الله عليك، ولا تذكرهم إلاّ بواجب حق الله عليك، وقد تم ورعك، وقل: اللهم ارحمني من ذكرهم ومن العوارض من قبلهم ونجني من شرهم واغنني بخيرك عن خيرهم وتولني بالخصوصية من بينهم إنك على كل شيء قدير. اهـ.

وترجمه شيخ مشايخنا العارف بالله البركة المحدث سيدي محمد بن جعفر رحمه الله تعالى في «سلوة الأنفاس» (١/ ٥/ ٢)، وذكر أن تقي الدين محمد الأسكندراني سبط القطب الشاذلي ذكر في كتابه «النبذة المختصر المفيدة» بعض أخباره، وقال: إنه سلك طريق القوم وهو ابن سبع سنوات وظهر له من الخير

والكشف وبقي قطبًا عشرين سنة، وكان إذا صلَّى يصلي خلفه أولياء الله تعالى من كل قطر نساء ورجالاً، وكان صاحب جذب لا يصل إليه مريد صادق يتجرد من علمه إلاَّ رقاه ووصله إلى ربه. اهـ.

وترجمه العارف أبو العباس سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله تعالى عنه في أول «شرح الصلاة المشيشية»[1] وأجاد وأفاد، ولننقل كل ما قال برمته لعظيم فائدته، فقد قال: هو الشيخ الإمام العارف الواصل الكبير والقطب الشهير شمس زمانه وفرد دهره وأوانه أبو محمد سيدنا ومولانا عبد السلام بن مشيش بالميم وربما قيل بالباء، وإبدال الباء من الميم لغة مازنية، ومعناه الخادم الخفيف الحاذق اللبيب، ثم ذكر باقي النسب الذي قدمناه. ثم قال: توفي رضي الله تعالى عنه شهيدًا سنة اثنتين وعشرين وستمائة أو فيما بعده بقليل. قال ابن خلدون: قتله في العلم قوم بعثهم لقتله ابن أبي الطواجن الكتامي الساحر المدعي النبوة، وبسبب هذه الدعوة رجفت إليه عساكر سبتة وكان عند بني سعيد فقتل. ثم قال ابن عجيبة أخبرني من أثق به من بني سعيد أنه قتله شاب منهم؛ وذلك أن الظالم كان فاسقًا يفتك ببنات الناس كرهًا، فتزيا شاب بزي النساء فلما اختلط معه في خلوته قتله لأن الظالم كان أراد أن يدخل بأخته فتزيا بزي النساء وأهدي له على أنه بنت فقتله بخنجار كان عنده، وكانت ثورته سنة خمس وعشرين وستمائة.

قال أبو العباس: ودفن رضي الله تعالى عنه في قنة[2] الجبل المسمى بالعلم. قال في المرآة ــ يعني «مرآة المحاسن» لسيدي العربي الفاسي ــ: وآثاره هناك كثيرة، من مغارة للخلوة والعبادة ومسجد جدرانه قصيرة وموضع لارتقاب الفجر وتحت ضريحه بنحو الميل عين[3] كان يتوضأ فيها. ومقتله فوقها بقريب، يقال: إنه توضأ فيها عند

---

(١) مخطوط لم يطبع بعد، وهو مفيد جدًا لعله أحسن شرح لها، هيأ الله طبعه ثم طبع أخيرًا ويا ليته لو كان محققًا.

(٢) قنة الجبل أعلاه وهو بضم القاف ويقال القمة بالميم مع كسر القاف.

(٣) وهي العين التي تسمى اليوم بعين البركة ويزعم الناس أن الشاذلي اغتسل بها، وليس الأمر =

الفجر وقصد الصعود لمحل عبادته وارتقابه للفجر فقتلوه هناك. ومن الشائع أنهم ألقي عليهم الضباب الكثيف ودفعوا إلى شواهق الجبال تردوا منها في مهاوي سحيقة فمزقوا كل ممزق ولم يرجع منهم مخبر. وتحت هذه العين بمسافة أخرى رسوم[1] داره التي كان يسكنها. قال: وقد وصلتها وصليت في أثر مسجدها قرب العين التي يسمونها عين القشر عن يمينها، ولا ساكن هناك اليوم وإنما العمران في سفح[2] الجبل دائرًا به في مداشر وعمران يسكنها أهل هذا النسب الشريف ومعهم غيرهم. اهـ.

قال ابن عجيبة: كان له من الأولاد أربعة محمد وأحمد وعبد الصمد وعلال. ومن بني ولده محمد بنو عبد الوهاب وطائفة يسمون الرحمونيين[3] بقرب شفشاون. ومن ولده علال أولاد المجيح، منهم فرقة بمراكش، وله أخوان: موسى ويملح[4].

= كذلك فإن الشاذلي جاء من جهة الأخماس والعين التي اغتسل فيها العين التي في سفح الجبل بجوار دار مولاي اليزيد العلوي بأعلى قرية الحصين.

(١) هذه الآثار والرسوم التي يخبر عنها سيدي العربي الفاسي لا وجود لها اليوم سوى عين القشور.

(٢) أي أسفله، لأن قرية السكان لم تكن موجودة وإنما حدثت في العهد الأخير عمرها عائلات من شرفاء بني عروس وغيرهم ولذلك حصل بينهم وبين أهل القرى المجاورة للشيخ نزاع أدى إلى تدخل السلطة في القضية برفع الأمر إلى المحاكم، فصولح فيما بينهم، أما القرى الأصلية التي أشار إليها الفاسي فهي الموجودة بأسفل الجبل كالحصين وادياز وتايدة وتزيا ودار الحبط والحارش وامسمليل وغير ذلك وكلهم من سكان أولاده وفيهم غيرهم وهم قليل.

(٣) الرحمونيون لا يقول الشرفاء العلميون بنسبتهم إلى هذا البيت الشريف وقد وقع نزاع طويل في هذا العصر بين الفريقين أدى إلى رفع القضية للمحاكم وكانت النهاية إخراجهم من هذا النسب والحكم بانفصالهم عنه لفقدان الحجج التي تثبت لهم ذلك، والله أعلم بالواقع فإن الطعن في الأنساب عظيم.

(٤) سيدي الحاج موسى بن سيدي مشيش كان عالمًا ورعًا تقيًا عابدًا توفي قبل مولانا عبد السلام بعشرين سنة وضريحه بأسفل قرية تزروت من نحو من ثلاثة أميال ومن أولاده الشرفاء الحراقيون. أما سيدي يملح فضريحه مع أخيه سيدي موسى والأخوة الثلاثة كلهم أشقاء من سيدي مشيش. وأمهم السيدة الزهرة أخت سيدنا إبراهيم بن عريف دفين وسط جبل العالم فوق تزيا من نسل سيدي حنين، وقبرها بموضع يقال له خندق إيران.

ومن بني موسى الشفشاونيون القاطنون بفاس. ومن بني يملح سيدي عبد الله[1] بن إبراهيم نزيل وزان. وله من الأعمام ستة: يونس وعلي وملهى وميمون والفتوح والحاج. ومن أولاد يونس أولاد بن ريسون وأولاد بن رحمون وأولاد مرصو. قال: ومن المنقول عن سيدي عبد الله الغزواني رضي الله تعالى عنه أن روضة مولانا عبد السلام مشتملة على ثلاثة قبور الوسط منها هو قبر الشيخ والذي خلف ظهره قبر ولده سيدي محمد والذي بين يديه قبر خديمه بن خدامة رضي الله تعالى عنهم. قال: ويروى أن الشيخ كان يومًا بازاء خلوته يتلو القرآن ومعه تلميذه الشيخ أبو الحسن حتى وصل في سورة الأنعام إلى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ فورد عليه وارد إلـهي اقتطعه عن حسه واستغرق فيه مدة، فلما أفاق رفع يديه إلى السماء داعيًا فكان من دعائه «اللهم من سبق له الشقاء منك فلا يصل إلينا ومن وصل إلي أكون له شفيعًا يوم القيامة، اللهم لا تبعث إلينا من حكمت بشقائه»[2].

قال ابن عجيبة: وأما علو قدره وجلالة منصبه فذلك أمر شهير، وقد تغلغل في علوم القوم التي مدارها على التخلق بأخلاق النبي ﷺ، ونال من ذلك الحظ الأوفر، وطريقه طريق الغنى الأكبر. ثم ذكر قصة أبي الحسن في ملاقاته للشيخ وما حصل له مع الصبي كما قدمناه. ثم قال: وأما كلامه في الحقائق والوصايا، فقال رضي الله تعالى عنه: ألزم الطهارة من الشكوك كلما أحدثت تطهرت، ومن دنس الدنيا كلما ملت إلى شهوة أصلحت بالتوبة ما أفسدت بالهوى أو كدت، وعليك بمحبة الله على التوقير والنزاهة، وأدمن الشرب بكأسها مع السكر والصحو كلما أفقت أو تيقظت شربت حتى يكون سكرك وصحوك به حتى تغيب بجماله عن المحبة وعن الشراب والشرب والكأس، فما يبدو لك من نور جماله وقدس كمال جلاله، ولعلي أحدث من لا يعرف المحبة ولا الشرب ولا الكأس ولا السكر ولا الصحو. قال القائل: أجل وكم من غريق في الشيء لا يعرف بغرقه، فعرفني ونبهني على ما أنا به جاهل أو ما مد به علي وأنا غافل.

(١) هو مولاي عبد الله الشريف جد الوزانيين المشاهير وسيأتي الكلام عليه في محله انشاء الله تعالى.
(٢) هذه الواقعة ذكرها ابن عطاء الله أيضًا في لطائف المنن.

قلت لك: نعم، المحبة أخذت من الله قلب من أحب بما يكاشف له من نور جماله وقدس كمال جلاله. وشراب المحبة مزج الأوصاف بالأوصاف والأخلاق بالأخلاق والأنوار بالأنوار والأسماء بالأسماء والنعوت بالنعوت والأفعال بالأفعال، ويتسع فيه النظر لمن شاء الله عزَّ وجلّ. والشرب سقي القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب ويكون الشراب بالتدريب بعد التدريب والتهذيب فيسقى كل على قدره فمنهم من يسقى بغير واسطة، والله تعالى يتولى ذلك منه. ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر المقربين، فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولو لم يذق بعد شيئًا فما ظنك بعد بالذوق وبعد بالشرب وبعد بالري وبعد بالسكر بالمشروب ثم المحو بعد ذلك على مقادير شتى كالسكر أيضًا كذلك. والكأس معرفة الحق يعرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن شاء من عباده المخصوصين من خلقه فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة وتارة يشهدها معنوية وتارة يشهدها علمية.

فالصورة حظ الأبدان والنفوس، والمعنوية حظ القلوب والعقول، والعلمية حظ الأرواح والأسرار، فيا له من شراب ما أعذبه فطوبى لمن شرب منه ودام ولم ينقطع عنه نسأل الله تعالى من فضله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة وقد يسقون من كؤوس كثيرة. وقد تختلف الأشربة بحسب عدد الكؤوس، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة وإن شرب منه الجم الغفير من الأحبة. اهـ. قال ابن عجيبة: وقد شرحت هذا الكلام في شرحنا لـ «خمرية ابن الفارض»[1].

قال: ومن وصاياه رضي الله تعالى عنه لتلميذه أبي الحسن قال له: الله الله، والناس نزه . . . إلخ. ما ذكرناه سابقًا. ثم قال: وقال الشيخ أبو الحسن رضي الله تعالى عنه: أوصاني حبيبي ــ يعني أستاذه ابن مشيش ــ فقال: يا أبا الحسن لا تنقل قدميك إلاَّ حيث ترجو ثواب الله، ولا تجلس إلاَّ حيث تأمن غالبًا من معصية الله، ولا

(١) عندنا مخطوط وهو شرح مفيد رائق. وقد طبع ضمن مجموعة له بالدار البيضاء.

تصحب إلاَّ من تستعين به على طاعة الله، ولا تصطف لنفسك إلاَّ من تزداد به يقينًا، وقليل ما هم. وقال أيضًا: أوصاني أستاذي فقال: لا تصحب من يؤثر نفسه عليك فإنه لئيم ولا من يؤثرك على نفسه فإنه قلما يدوم، واصحب من إذا ذُكر، ذكر الله. فالله يغني به إذا شهد وينوب عنه إذا فقد، ذكْره نور القلوب ومشاهدته مفاتيح الغيوب. وقال رضي الله تعالى عنه: يا أبا الحسن، اهرب من خير الناس أكثر من أن تهرب من شرهم فإن خيرهم يصيبك في قلبك وشرهم يصيبك في بدنك، ولأن تصاب في بدنك خير من أن تصاب في قلبك، ولعدو تصل به إلى ربك خير من حبيب يقطعك عن ربك[1]. اهـ.

وقال أيضًا سألت أستاذي عن قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا». فقال: يعني دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره فإن من دَلك على الدنيا فقد غشك ومن دَلك على العمل فقد أتعبك ومن دَلك على الله فقد نصحك. وقد سألني أستاذي فقال: يا أبا الحسن بماذا تلقى الله تعالى؟ فقلت: بفقري. فقال: والله لئن لقيت الله بفقرك لتلقينه بالصنم الأعظم. اهـ.

قال ابن عجيبة: وإنما يلقى الله به سبحانه لا بشيء سواه.

قال: وقال له رجل يا سيدي وظف علي وظائف وأورادًا أعمل بها. فقال: أرسول أنا! الفرائض مشهورة والمحرمات معلومة فكن للفرائض حافظًا وللمعاصي رافضًا واحفظ قلبك من حب الدنيا وحب النساء وحب الجاه وإيثار الشهوات، واقنع بذلك بما قسم الله لك؛ إذا خرج لك مخرج الرضا فكن لله فيه شاكرًا وإذا خرج مخرج السخط فكن عليه صابرًا، وحب الله قطب تدور عليه الخيرات وأصل جامع لأنواع الكرامات، وحصر ذلك كله أربع: الورع وحسن النية وإخلاص العمل ومحبة العلم، ولا تتم له هذه الجملة إلاَّ بصحبة أخ صالح أو شيخ ناصح.

---

(١) هذه حكم ووصايا رائعة.

قال أبو العباس سيدي أحمد بن عجيبة: أخذ رضي الله تعالى عنه عن شيخه أبـي محمد سيدي عبد الرحمن المدني الحسني الملقب بالزيات ـ لسكناه بحارة الزياتين يعني بالمدينة المنورة ـ وكان الشيخ ابن مشيش في صغره انقطع للعبادة في مغارة بجبل العلم بعد أن أدركه الجذب وهو ابن سبع سنين، فدخل عليه بعد مدة رجل عليه سيما أهل الخير والصلاح، فقال له أنا شيخك الذي كنت نمدك من وقت الجذب إلى الآن ووصف له ما وصل له على يده من المنازلات والمعارف وفصل له ذلك مقامًا مقامًا وحالاً حالاً، وعين لكل حال زمنه. ثم سئل رضي الله تعالى عنه بعد ذلك هل كان يأتيك أو كنت تأتيه؟ فقال: كل ذلك قد كان. فقيل له: أطيا لمسافة المكان أم سفرًا؟ فقال: طيا . . . إلخ. اهـ. كلام ابن عجيبة.

وترجمه العلاَّمة الشريف اللهيوي العلمي في حصن السلام، وأطال في ذلك أيضًا بذكر أولاده وأهل بيته رضي الله تعالى عنه.

أما وفاته فكانت على المشهور سنة ٦٢٥هـ.

ونستطيع أن نأخذ مما ذكرناه من هذه النقول عن حياته ما يلي:

أولاً: ما حصل له من الجذب الإلـٰهي وهو لا يزال صغيرًا، وإنه من ذلك الحين وهو منقطع للعبادة في مغارته، وهذا يخالف ما ذكره البعض كالشريف اللهيوي من أن حياته كانت عادية وأن مراحل حياته كانت محصورة في القراءة وطلب العلم أولاً وفي التكسب وخاصة بالفلاحة والقيام بشؤون الحياة ثم المشاركة في الجهاد بمدينة[1] سبتة.

ثانيًا: ثم جاءت مرحلته الأخيرة التي [illegible] مجرد تعبد وانقطاع وزهد وفناء، وعلى هذا فلا نستطيع الجزم بأحد القولين.

ثالثًا: صريح كلام سيدي العربـي الفاسي يدل على أن مولانا عبد السلام كان

(١) لم نر أحدًا قال عنه بأنه كان بسبتة يجاهد مع الموحدين غير اللهيوي نقلاً عن سيدي عبد الحي الكتاني بدعوى أن هذا الثاني ثبت عنده ذلك بوثائق فالله أعلم.

يسكن بعين القشور بينما اللهيوي يقول أنه كان يسكن بقرية أدياز التي خربت والتي تبعد عن ضريحه بميلين لجهة الغروب فالله أعلم.

ويزيد اللهيوي فيقول إنه كان له عزيبان كان يسكن بهما، أحدهما بقرية بوزهري والآخر ببو مهدي قرب عياشة، ويستدل على ذلك بأن هذين الموضعين لا يزالان يحملان اسم دار مولاي عبد السلام وكذا وجود آثاره بهما.

رابعًا: نأخذ مما تقدم أن ضريح الشيخ لم يكن معروفًا حتى عرفه العارف بالله سيدي عبد الله[1] الغزواني تلميذ سيدي عبد العزيز التباع عندما جاء لهذه الديار للدعوة إلى الله تعالى ونشر الطريق الجزولية وأنه أخبر أن بالروضة ثلاثة قبور: قبر الشيخ ثم قبر ولده الأكبر سيدي محمد ثم قبر خديمه.

خامسًا: مسجده الذي كان يتعبد به وهو المعروف اليوم بجامع الملائكة عند المنازة، وما هو شائع على ألسنة العامة من أنه من تأسيس الملائكة وبنائها هو من خرافاتهم، أما مغارته فهي قريبة من المسجد.

سادسًا: نأخذ من كلام مولانا عبد السلام ووصاياه بلوغه الكمالات في التوحيد والحقائق الإلـٰهية وتوغله في التصوف ومعرفة الله ويحقق ذلك صلاته المعروفة بالمشيشية، فإنها دالة على رسوخه في هذه الميادين.

سابعًا: قد نأخذ له بعض الخوارق من مكاشفاته بحال أبـي الحسن الشاذلي وما حصل من الطفل مع أبـي الحسن فإن ذلك يرجع إلى الشيخ أيضًا.

ثامنًا: ما ذكروه عن قتله رضي الله تعالى عنه، لم يزيدوا على كون ابن

---

(١) من رجال القرن العاشر الهجري درس العلم بفاس ولحق بمراكش فأخذ الطريقة عن التباع وبقي عنده يخدم في غرصة سبع سنين ثم أذن له في الخروج للدعوة إلى الله فقدم لهذه النواحي ونشر الطريق وبنى عدة زوايا، منها زاوية سيدي عبد الله المشهورة إلى الآن ببني يدير، وكون رجالاً وأنجب شيوخًا عظامًا كالعالمين الجليلين العارفين سيدي يوسف التليدي وسيدي عبد الله الهبطي وغيرهما، وكان رضي الله تعالى عنه يتردد من وقت لآخر مع أصحابه لزيارة ضريح مولانا عبد السلام، وستأتي ترجمته إن شاء الله تعالى.

أبي الطواجن هو الذي قتله بواسطة بعض أصحابه، ولكننا استفدنا من الشريف اللهيوي أن ابن أبي الطواجن مع كونه كان ساحرًا متنبئًا كان مدفوعًا وعاملاً للمسيحيين الذين دبروا مؤامرة ضد مولانا عبد السلام، كان من جرائها القضاء على حياته. قال هذا اعتمادًا منه على وثائق وجدت أخيرًا بمكتبة أسكوريال بمدريد من إسبانيا، فإن صح هذا كان القول الآخر باطلاً وهو قولهم إن ابن أبي الطواجن(1) اللعين كانت له تابعة من الجن فتأخرت يومًا عن إتيانه فسألها عن سبب ذلك فأخبرته بأن بهذا الجبل رجلاً يتعبد وأنها عندما تقابله في مجيئها تحترق بنوره، فكان ذلك سببًا لبعثه مَنْ قتله، فالله أعلم.

تاسعًا: نأخذ مما ذكروه عن الجيش الذي زحف من سبتة لقتال ذلك الساحر عند قتل مولانا عبد السلام أن الشيخ كان عندهم معروفًا وأنه كان له اتصال بالدولة الموحدية وهذا قد يشهد لما نقله اللهيوي من أنه كان مع عساكر الموحدين بسبتة وإن لم يصح ذلك.

---

(1) ابن أبي الطواجن هذا أصله من قرية كتامة بقبيلة أهل سريف قرب القصر الكبير وكان والده يتقن علم الكيمياء والسيمياء فورث ذلك عنه وتغلغل في العلوم السحرية فسحر العامة بخوارقه الشيطانية فادعى النبوة وثار على الموحدين وتبعه الغوغاء والهمج الرعاع واستولى على كثير من القبائل الجبلية وكان له بها أنصار يساندونه ويؤيدونه مثل بني يوسف وبني حسان وكان عدو الله بلغ به الحال أن كان يفرض على الناس إهداء بناتهم له متى شاء وبقي على حالته مدة وساعده على ذلك ضعف دولة الموحدين، وتدهورها إلى أن بلغ به المطاف لقبيلة بني سعيد حيث قضي عليه بوادلو، كما ذكره سيدي العربي في مرآة المحاسن وغيره. ويقال أن أهل قبيلتي بني حسان وبني سعيد تخاصموا على جثته بعد مقتله لأن الأولين من أنصاره وكانوا يريدون دفنه عندهم وبنو سعيد حلفوا أن يحرقوه، فصولح بين القبيلتين بأن يطبخه بنو سعيد في طنجير من ماء ثم يدفعوه لبني حسان فوقع الاتفاق على ذلك فهو مدفون ببني حسان بالقرب من قرية شروذة، وقد أصبح مزارة لكل من أراد التغوط وقضاء حاجته إذا كان مارًا بذلك الموضع حتى أنه يقال: أصبح من العادة كل من وصل إلى قبره تتحرك بطنه وتحضره قضاء الحاجة ليتصدق بذلك على اللعين أخزاه الله. وذلك جزاءُ من قتل أولياء الله وآذى آل بيت رسول الله الصالحين الأطهار.

وعلى كل فشهرة مولانا عبد السلام رضي الله تعالى عنه قد عمت المشارق والمغارب وضريحه من أعظم مزارات المغرب المشهورة من أدناه إلى أقصاه، وشدت الرحال إلى زيارته عبر العصور والأجيال بعده إلى عصرنا هذا، فلم تزل الوفود تأتي إليه من سائر الآفاق من كل طبقات الناس من عارفين وصوفية وعلماء وفقهاء وأدباء ومؤرخين وأمراء وعامة رجالاً ونساء كبارًا وصغارًا كلها تفد إليه وإلى الوقوف على آثاره والتبرك بزيارته والدعاء عند قبره، حتى إن أكابر العارفين الذين جاءوا بعده كانوا يقصدون زيارته في كل سنة مع أصحابهم.

فنرى التاريخ يحدثنا عن سيدي عبد الله الغزواني أنه كان يزوره دائمًا مع أصحابه، حتى كبار العلماء منهم، ثم نرى العارف أبا المحاسن سيدي يوسف الفاسي ــ وهو وما أدراك ما هو ــ يشد الرحلة كل سنة لزيارته في جملة أصحابه، وهكذا العارف سيدي محمد بن عبد الله وولده العظيم سيدي أحمد بن عبد الله. ثم يحدثنا العلاَّمة الكبير ولي الله سيدي أحمد بن المبارك في الأبريز عن رحلتهم لهذا القطب العظيم مع العارف سيدي عبد العزيز الدباغ، وفي كتب التاريخ وتراجم العلماء والصلحاء الشيء الكثير من أمثال هؤلاء.

ولا يخلو هذا الضريح من الزوار والوافدين عليه صيفًا وشتاءً، والدعاء عند قبره مستجاب كالترياق المجرب، وقد شاهدنا وشاهد الجماهير العديدة في كل عصر بركاته، بل شوهدت عنده عجائب الغرائب من الخوارق والاستجابة ولا غرو فإنه الكريم بن الكرماء، وقد زاره العلاَّمة الكبير الصوفي الشهير سيدي الحسن اليوسي من رجال القرن الثاني عشر وتحدث عنه وذكره في «محاضرته» (ص ٨٥). وقد أشرنا إلى هذا في ترجمة مولاي أبـي يعزى فارجع إليه.

ومن أعجب ما رأيناه في هذا الباب عن كبار العلماء أن العلاَّمة مولاي العربـي الفضيلي شيخ المجلس العلمي بفاس سابقًا لما زار مولاي عبد السلام ودعا ما شاء الله خر أمام الضريح ومسح الأرض بلحيته يمينًا وشمالاً وقال جاهرًا: اللهم إنا براء

ممن يقول بغير هذا. ولما توجه العلاَّمة العارف سيدي محمد بن عطية مع أصحابه لزيارة مولاي عبد السلام ووصلوا إلى خندق الريحان من قبيلة مصمودة اشتغلوا بذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ، فحصل للشيخ حال عظيم اقتطعه عن حسه ثم أفاق فقال لهم: اسمعوا معشر الحاضرين وتحققوا أن القطب مولانا عبد السلام عندنا حاضر، وهذه ساعة الإجابة، فسلوا الله تعالى ما شئتم. فضج القوم بالبكاء والتضرع إلى الله، ثم قال لهم الشيخ: هل تريدون الرجوع؟ فإن حوائجكم قد قضيت، أو تريدون مواصلة السير للوقوف على ضريح الشيخ؟ فاختاروا مواصلة السير . . . إلخ. نقله الحمومي في شرح المشيشية.

وكان شيخنا المرحوم الحافظ سيدي أحمد بن الصديق يزوره كل سنة. وكنا نشاهده يخلع نعليه عند دخوله حرم الشيخ ويمشي حافيًا حتى الضريح وكان يظهر عند زيارته من الأدب والاحترام ما لا يتعاطاه إلاَّ أمثاله رضي الله تعالى عنه.

قال الإمام العارف بالله سيدي محمد بن جعفر في السلوة نقلاً عن بعضهم: إن أهل البصائر أجمعوا على أنه تنبغي زيارته بقدر الاستطاعة كل يوم أو في كل أسبوع أو في كل شهر أو في كل سنة، وتتأكد تعيينًا ليلة الجمعة ويوم عرفة وصبيحة العيدين والمولد النبوي وسابعه. وذكر أنه يتيعن على جميع الناس ولا سيما الملوك والحكام حفظها يعني روضته ورصدها ودفع أهل الفساد والزيغ عنها وإصلاح ما انهدم منها من بناء ونحو ذلك. قال: لأن ذلك كله من تعظيم الحرمات ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه. ثم قال في النهاية أنه لا شيء أنفع للقلوب من زيارة الصالحين، والعلماء العاملين.

ملاحظة اختتامية:

بقيت هنا قضية وقد تشغل أنظار بعض الباحثين وهي أن يقال: كيف يكون حال هذا القطب بهذه المنزلة، ولم يذكره أحد ممن عاصره ولا عرجوا عليه، وهذا التادلي

وهو ممن عاصره لم يشر إليه أصلاً في كتابه «التشوف»[1]. وكذا لم يذكره ابن العربـي الخاتمي في كتبه وهو ممن عاصره وجال في كثير من بلاد المغرب، وقد يذكر من هو أقل منه. وكذا لم يجر له ذكر أيضًا في «أنس الفقير» لابن قنفذ وقد استوعب فيه حياة أبـي مدين وأصحابه وغيرهم، وفي هذا الكتاب الكثير من رجال المغرب والأندلس الذين عاصروا مولانا عبد السلام.

والجواب أن مولانا عبد السلام رضي الله تعالى عنه كان يعيش في جبل العلم بعيدًا عن العمران والقرى فضلاً عن المدن والحواضر، وكان كما يظهر مهملاً عند الناس خاملاً لا يعرفه أكثرهم ولم تكن له زاوية رسمية ولا أتباع خاصون حتى يشتهر ويقصده الناس للزيارة والأخذ عنه، ثم إن تلك النواحي الجبلية البدوية لم يكن بها رجال من أهل العلم مؤهلون للاعتناء بالتاريخ والكتابة، ومن لهم عناية بهذا الموضوع من أهل الحواضر وهم قليلون في مغربنا لم يكونوا يعرفون عن تلك الناحية شيئًا لبعدها عنهم وعن طريقهم في أسفارهم ورحلاتهم لمدن المغرب، ولولا أن ثورة ابن أبـي الطواجن كانت مشهورة لقرب موقعها من تطوان وذيوع مقتل الشيخ على يده لما أشار إليه ابن خلدون في «العبر».

وما لنا نذهب بعيدًا وإننا نرى في كل عصر من العصور حتى عصرنا هذا كثيرًا من أكابر العارفين والصالحين مهملين مجهولين لا يعرفهم إلاَّ آحاد الناس وهم والحالة هذه بالحواضر بين المثقفين والأدباء والمؤرخين والباحثين فكيف بالبادية في رأس جبل العلم الذي يبعد عن سطح المستوى من الأرض بأربع ساعات في غابة عظيمة مع وعر شديد وعقبة كؤد من كل النواحي، فلا نرى في ذلك إشكالاً. والله أعلم وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.



(١) وإن كان ذكره ليس من شرطه لأنه يذكر الأموات ولكنه قد يشير إلى كبار بعض الأحياء من معاصريه.

سيدي أبو محمد صالح

وهذه شخصية أخرى كانت في هذا العصر، ذلكم هو أبو محمد صالح الماجري الأموي القرشي، العارف بالله الواصل المتوكل على الله، الزاهد الناسك المنقطع إلى ربه، المتحقق بالعبودية الخالصة الحقة.

كان يعيش أيام الموحدين وأدرك أوائل المرينيين وكان حيًّا إبان المعارك الحاصلة بين الفريقين، يعد في تلامذة سيدي أبي مدين الغوث والعارف سيدي عبد الرزاق الجزولي، ومن شيوخ العارف الكبير العلاَّمة الشهير سيدي أبي مالك[1] البقيوي، ومن معاصريه مولاي عبد السلام بن مشيش وسيدي محيي الدين الحاتمي وغيرهما ممن تقدم ويأتي. ولد بمدينة آسفي على ساحل المحيط الأطلسي سنة ٥٥٠هـ، وبها نشأ وتعلم الكتابة وحفظ القرآن الكريم ثم اشتغل بالعلم في بلاده.

وعندما انتهى من مرحلته الأولى الدراسية تاقت نفسه إلى التوسع في الدراسات الإسلامية فرحل لمدينة فاس حيث أقام بها طالبًا للعلم مدة، ثم عقد رحلة واسعة

---

(١) هو المشهور بسيدي مالك بقبيلة بقيوى بضواحي الحسيمة، ضريحه مزارة عظيمة مقصودة من كل الآفاق وخاصة لعاهة الجنون ويحصل عنده عجائب الاستجابة ووقوع الشفاء بإذن الله وقد شاهدت ذلك وعاينته بنفسي. وكان سيدي مالك عالمًا فقيهًا مشاركًا صوفيًا زاهدًا، له رحلة للديار الشرقية واتصال بعلمائها، وأخذ الطريق عن سيدي أبي محمد صالح، ويعد في رجال القرن السابع، وأصله من الأندلس وسكن سبتة صوفيًا مدة ثم انتقل للريف رحمه الله تعالى ورضي عنه.

النطاق فانتهى به المطاف لمدينة الإسكندرية من الديار المصرية، وقد طاب له المقام بها فأقام فيها نحوًا من عشرين سنة تمكن في خلالها من إتمام دراسته العليا من كبار العلماء وفطاحل ذلك العصر وصلحائه، وهناك أخذ الطريق عن الشيخ عبد الرزاق مسبقًا ثم رجع قافلاً لبلاده بعلم غزير وثقافة واسعة، وفي طريقه لبلاده مر ببجاية حيث كان العارف أبو مدين الغوث مقيمًا فزاره وأخذ عنه طريق القوم مباشرة بعد أن كان أخذها بواسطة الجزولي سيدي عبد الرزاق.

وقد كانت حالة سيدي أبي محمد صالح في بدايته ونهايته على قدم رجال السلف وأكابر الزهاد وأئمة الصوفية الأقدمين، فقد كان زاهدًا منقطع النظير، متوكلاً على الله التوكل المطلق، ورعًا في شؤونه، متقشفًا في كل أحواله، دائم النسك والتعبد، كثير الرياضة والمجاهدة لنفسه، له في ذلك العجائب والغرائب من الأخبار والوقائع. كان يلبس المرقعة، ويضع على رأسه الشاشية البسيطة، ويطوق في عنقه السبحة المحتوية على ألف حبة، ويصاحب العصا معه لا تفارقه حضرًا ولا سفرًا ويأمر أصحابه بذلك. وكان كثير الصلاة والصيام، يبقى أحيانًا مدة من أربعين يومًا لا يتناول فيها طعامًا إلاَّ ما قل، كثير الأوراد والوظائف ليلاً ونهارًا، صباحًا ومساءً، لا يعرف فتورًا ولا تكاسلاً ولا لعبًا.

وكان إذا جاءه رجل يستأذنه في تلقين الذكر والمبايعة على التوبة وطاعة الله تعالى أمره أولاً بحلق رأسه[1]، ثم بالطهارة وصلاة ركعتين مع التوبة، ثم أمره بالانفراد عن الناس في خلوة خاصة وأمره بالإكثار من ذكر الله عزَّ وجلّ وخاصة

---

(١) كانت عادة كثير من المشايخ أن يأمروا من يريد الدخول في طريقهم بالاغتسال وحلق الرأس، وقد يستدل لهم بحديث قيس بن عاصم، قال: أتيت النبي ﷺ أريد الإسلام فأمرني أن أغتسل بماء وسدر. رواه أبو داود (رقم ٣٥٥)، والترمذي (رقم ٥٤٠) بتهذيبي وغيرهما بسند صحيح وفي رواية عن واثلة بن الأسقع: «اذهب فأغتسل بماء وسدر والق عنك شعر الكفر» رواه الطبراني ونحوه عن قتادة أبي هاشم رواه الطبراني في الكبير، ورجاله ثقات. قاله الهيثمي في المجمع (١/ ٢٨٣).

«لا إله إلَّا الله» لا يفتر عنها بحال، فإذا سئم منها تلا القرآن أو قام للصلاة أو صلى على النبي ﷺ، فإذا سئم من كل ذلك نام. وكان يأمره بعدم الخروج نهائيًا إلَّا لصلاة الجماعة أو الجمعة، وكل ذلك يكون مصحوبًا بالصيام والإقلال من تناول الطعام والإقبال على الله تعالى بالكلية، وأن لا يكون قصده شيئًا غير الله عزَّ وجلّ، وتكون نهاية هذه الخلوة عنده أربعين يومًا، كما هي طريقة كثير من مشايخ الصوفية رضي الله تعالى عنهم، وفيها تتهذب أخلاقهم، وتتقلب أحوالهم، ويشاهدون ما لا يمكن لهم التصريح به، ويطلعهم الله تعالى على عجائب الكائنات وحقائقها ويعرفهم بالأسرار الإلـٰهية والحقائق الغيبية[1].

وكانت حالة سيدي أبي محمد صالح الغريبة في الزهد والتقشف وترك زينة الحياة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عما كان عليه أهل عصره وأقرانه من رئاسة وجاه، أقول: كانت حالته تلك مثارًا لانتقادات فقهاء عصره عليه ورميهم إياه بالتبديع والتضليل، حتى ضاق من ذلك ذرعه وتشكك في أمره، فدعا الله تعالى إن كان ما هو عليه من هذا الطريق مما يقربه إلى الله ييسره عليه، فأيده الله عزَّ وجلّ ببشارة هامة؛ رآى في منامه قائلًا يقول له: لا تلتفت إلى هؤلاء الفقهاء المنكرين ولا تسألهم إلَّا عن مسائل الفقه؛ فإنهم كلهم أرضيون ما فيهم سماوي[2]، ثم عليك بـ «رسالة القشيري»

---

(١) وقد تكلم على الخلوة ومشروعيتها وأصلها وشروطها وفتوحاتها ونتائجها جماعة من الصوفية، وتجد بعض ذلك على سبيل المثال عند الغزالي في «الإحياء» والسهروردي في «العوارف» والحاتمي في «رسالة الأنوار» وفي «الفتوحات» وفي «مواقع النجوم» والعارف الدباغ في «الإبريز» والعارف ابن عجيبة في كثير من كتبه، وغيرهم كثير. ومن شك فليجرب.

(٢) معناه: كلهم من علماء الدنيا المتعلقين بالكائنات ليس لهم حظ في الجانب الروحي الخاص الذي يسعى له القوم والذي يتوخاه سيدي أبو محمد صالح، وهو: الهيام في الوحدة الإلـٰهية والفناء في الذات الأزلية والتعلق بالواحد الأحد دون غيره من سائر الأكوان. والفقهاء الرسميون بعيدون كل البعد عن هذه الميادين، بل هم أبعد الناس عن الله تعالى؛ لوقوفهم مع حظوظهم وإعجابهم بنفوسهم وتكبرهم واحتقارهم للناس، وما ذلك إلَّا لكونهم قصدوا بالعلم غير الله وأرادوا به متاع الحياة.

و «حقائق السلمي» و «منهاج العابدين» ففيها ما تطلبه، وخذ الطريق عن أربابه مثل محمد بن واسع وسفيان الثوري ومالك بن دينار والجنيد وشقيق وإبراهيم والفضيل وغيرهم. قال: فاستخرت الله تعالى في ذلك واستعنته وعالجت منه ما قُدّر، حتى فتح الله لي بما هو حظي منه. اهـ.

وهذه النصيحة التي لُقِّنَها في المنام كان لها الأثر العظيم في سلوكه وحياته الروحية، وكيف لا وقد دُلّ فيها على لب ما كان يريده، لقد دل على ما يتوقف عليه في طريقه من كتب ومواد وعلى من يقتدي بهم ويكونون له كشيوخ يهتدي بهديهم ويسترشد بأحوالهم وأعمالهم.

فالرسالة «القشيرية» لها أهمية كبيرة وشهرة واسعة بين الأوساط الصوفية وهي تعد من أصول كتبهم الأولى التي وضعها الإمام العارف الصوفي الكامل سيدي عبد الكريم بن هوازن القشيري، من تلامذة وخريجي أبـي عبد الرحمن السلمي ومن رجال القرن الخامس توفي سنة ٤٦٥هـ، ضَمَّن رسالته تراجم لبعض أئمة الصوفية وكبارهم كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم والسري السقطي وإبراهيم الخواص وسيد الطائفة الجنيد وغيرهم. ثم ذكر فصولاً تتعلق بعلوم القوم وأحوالهم وبعض مراسمهم واصطلاحاتهم. ولا يستغني عنها طالب الآخرة.

أما كتاب حقائق السلمي فلعله «حقائق التفسير» له ولم يطبع بعد وتوجد منه عدة نسخ خطية بالقاهرة وغيرها. ومؤلفه هو الصوفي العظيم أبو عبد الرحمن السلمي، من رجال القرن الرابع، ومن شيوخ القشيري، وتلامذة أبـي نصر السراج صاحب «اللمع» في التصوف، ومن معاصري الحافظ الصوفي أبـي نعيم صاحب «حلية الأولياء» توفي السلمي سنة ٤١٢هـ.

أما «منهاج العابدين» فهو الكتاب القيم الذي لم يؤلف في الإسلام مثله تهذيبًا وترتيبًا، وهو من مؤلفات أبـي حامد الغزالي راهب هذه الأمة وربانيها، وقد قدمنا الإشارة إليه في ترجمة أبـي مدين.

فهذه الكتب التي دل عليها مترجمنا أبو محمد صالح هي بحق كتب السائرين

إلى الله عزّ وجلّ الذين لا يريدون غيره. أما أولئك الأعلام المأمور بأخذ الطريق عنهم. فنحيل القارىء على تراجمهم في المصادر التاريخية، وخاصة من اعتنوا بأخبارهم في الزهد والنسك والحِكَم والمواعظ والكرامات، كصاحب «الحلية» والسلمي في «الطبقات» وغيرهما.

وفي هذه الرؤيا إشارة إلى أن المسلم قد ينتفع في طريقه وسلوكه من كتب القوم وأحوالهم، ويستفيد من ذلك، كما قد حصل عمليًا لسيدي أبـي محمد صالح. نعم ذلك لا يدل على أنه يكتفي بالكتب وباتباع إرشادات الأموات عن الشيخ المرشد كلا؛ فإن الشيخ لا بد منه، ولذلك قال الإمام سيدي محمد بن عبد الوهاب الثقفي أحد كبار مشايخ الصوفية: لو أن رجلاً جمع العلوم كلها وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلاّ بالرياضة من شيخ أو إمام مؤدب ناصح، ومن لم يأخذ أدبه من آمر له وناه يريه عيوب أفعاله ورعونات نفسه لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات. ذكره السلمي والسبكي، كلاهما في «الطبقات»، ولهذا قال العارف أبو العباس ابن عجيبة في «شرح خمرية ابن الفارض»: واعلم أنك لا تطمع أن تفهم هذه الخمرة ذوقًا وعلمًا إلاّ إذا صحبت أهلها، وهم العارفون بالله أهل الجذب والسلوك، وأما إن لم تصحبهم فلا تطمع في فهمها ولو طالعت ألف مجلد وصحبت ألف عالم أو عابد. اهـ.

من كراماته:

ولسيدي أبـي محمد صالح كرامات كثيرة أوردها حفيده في «المنهاج»، من ذلك: أنه كان مرة في سياحته فآواه المبيت إلى مسجد في جماعة، فلما نام الجماعة وأراد تمهيد مضجعه إذا برائحة خبز سخن جاءته من قبل الجدار فمد يده فوقعت على رغيف سخن كادت يده تمتنع منه لشدة حرارته، فأخذه وأكل نصفه وترك النصف الآخر لغده.

ومنها أن فقيهًا من أهل بلدته كان ينكر عليه الاجتماع بالمسجد لقراءة الأوراد فدخل المسجد يومًا فوجد الشيخ يقرأ المسبعات ومع الفقيه طَلَبَةٌ فأمرهم بإخراج الشيخ من المسجد فلما دنوا منه إذا بالفقيه قد رمت به الأرض نحو السقف فوقع رأسه

في سمت السقف فخرج منه مخه على أنفه ووقع مغشيًا عليه فرفع إلى منزله فما بلغ حتى قضي عليه.

ومنها أنه هاجم مرة بعض أقاربه وهو يشرب الخمر فهرب منه، فقال الشيخ للخادم: لم تركتم هذا الدهن عريانا؟ ثم خرج. فنظروا إلى الخمر وإذا به قد انقلب دهنًا كأنه زيت.

ومنها أنه كان مرة معتكفًا بمسجد بعيد عن العمران، وكان قد نوى أن يعتكف فيه أربعين يومًا فجاءته يومًا عند الفطور امرأة بزبدية طبيخ ورغيف خبز فوضعته بين يديه فلم يلتفت إليها، وجاءته من الغد كذلك فلم يلتفت إليها، فلما كانت الليلة الثالثة أتته خادم سوداء فقالت له: يا صالح أنا الدنيا لو أقبلت علي بالأمس وأنا على تلك الصورة لكنت مفتونًا في طول حياتك والآن قد أمرت أن أخدمك ما دمت حيًا. اهـ.

وله من ذلك الشيء الكثير ولا سيما في ابتداء أمره أيام سياحاته.

ومن مناقبه التي امتاز بها عن أهل عصره: إحياؤه لفريضة الحج بأمره الناس بالذهاب إليه رغم ما كان شائعًا في عصره عن الفقهاء من سقوط الحج عن المغاربة، حتى أصبح جل الناس حجاجاً، أما أصحابه فكان ذلك هجيراهم ودأبهم، فكان قلما رجل منهم لم يحج عدة حجات.

وبهذه المناسبة يذكر لنا حفيده في المنهاج بشارة هامة له من حضرة رسولنا المصطفى ﷺ، فيذكر عن قطب الدين القسطلاني[1] أنه رأى في منامه كأنه دخل دارًا لم ير أحسن منها قط، وفيها مجلسٌ ما رأى مجلسًا أحسن منه فإذا بالنبي ﷺ قاعد في وسطه مع جماعة من أصحابه فدخل فسلم عليه ﷺ وقعد، وإذا بشيخ قد دخل فسلم على النبي ﷺ وقعد بين يديه فوضع رسول الله ﷺ يده المباركة على رأس

---

(١) العلاَّمة الكبير العارف بالله تعالى محمد بن أحمد الشاطبي قطب الدين التوزري، ولد بمصر ونشأ بمكة وقام برحلة لبغداد والشام ومصر وغيرها وسكن مصر أخيرًا وبها توفي ٦٨٦هـ وهو غير القسطلاني شارح البخاري، فإن هذا متأخر توفي سنة ٩٢٣ واسمه أحمد بن محمد فاختلفا فاعرف ذلك.

الشيخ ثم قال له: أتعرف من هذا الشيخ؟ قلت: لا يا رسول الله، فقال له: هذا هو الشيخ أبو محمد صالح المغربي، أتعرف ما فعله؟ قلت: لا يا رسول الله. قال: إنه كان يحرض الناس على زيارتي. اهـ.

فكان القطب القسطلاني لأجل ذلك يكرم أصحاب الشيخ كلما مروا عليه في طريقهم للحج ويسألهم عن الشيخ ويثني عليه.

من وصاياه ونصائحه:

وبما أن مهمة الشيوخ هي الإرشاد والتوجيه والتربية النبوية كان لسيدي أبي محمد الحظ الأوفر من ذلك. ومما يؤثر عنه من الوصايا النافعة أنه كان ينهى أصحابه كثيرًا عما يتعاطاه كثير من المغبونين من البحث عن الكيمياء[1] واستعمالها والاشتغال بها وبما يؤول إليها أن ذلك كله خرافات، ومن وصل إلى النتيجة منهم كانت ثمرة ذلك الغش والمخادعة وأكل أموال الناس بالباطل، فكان يراها باطلة ويبالغ في التحذير منها. وكذلك كان شأنه في مخالطة النساء، فقد كان يشدد النكير عمن يترخص في مجالستهن ومقابلتهن حتى القواعد والكبار منهن، وكان يأمر أصحابه بالابتعاد عنهن حتى الصالحات منهن، وقد ذكرت عنده يومًا امرأة متعبدة من أهل عصره، فقال لهم: متى بلغت إلى حد تطير فيه بين السماء والأرض ففروا من تحتها لئلا تقع عليكم فتهلككم . . . إلخ.

أي والله فإن النساء أضر شيء على الرجل فإنهن فاتنات، وحبائل الشيطان، فالسلامة في الابتعاد عنهن على كل الأحوال.

---

(١) هو تحويل بعض المعادن إلى بعض وخاصة النحاس إلى الذهب والرصاص ونحوه إلى الفضة بواسطة الأكسير وهو حجر خاص أو ببعض العقاقير. وهو عند المتأخرين المعاصرين أرباب العلم الحديث علم يبحث فيه عن طبائع وخاصيات جميع الأجسام بواسطة الحل والتركيب. وقد عمل الدجاجلة والنصابون أدوارهم عبر العصور في تعاطي علم الكيمياء ومخادعة المغفلين وأخذ أموالهم. وقد حذر من تعاطي ذلك كل الصوفية وصرح بعضهم بأن الكيمياء الحقيقية النافعة هي معرفة الله تعالى. وقلب الطبائع من شر إلى خير وما إلى ذلك.

ومن وصاياه الخالدة لولده العارف أبـي العباس قوله له: لا تقصد غير الله ولا ترج غيره ولا تلتفت إلى سواه ولا تخف إلاَّ إياه، اقطع طمعك من المخلوقين بمرة فإنهم لا يملكون لك ضرًّا ولا نفعًا، فمن لا ترجو نفعه ولا تخاف ضره خيره وشره سواء. إذا أعطاك مولاك لم يقدر أحد أن يمنعك، وإذا منعك لم يقدر أحد أن يعطيك ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ. . . ﴾ إلخ [الأنعام: ١٧].

وعلى كل حال فأخباره كثيرة، وقد ترجمه حفيده ترجمة مسهبة في كتابه المطبوع «المنهاج الواضح في كرامات أبـي محمد صالح». وترجمه ابن الخطيب في «أنس الفقير» ترجمة وجيزة. وذكره ابن الزيات في «التشوف» ووصفه بالصلاح، ولم يذكر عنه شيئًا لأنه كان على قيد حياته. وترجمه ابن فرحون في «الديباج»، وقال: شيخ المغرب علمًا وعملاً، وبيته بيت صلاح وجلالة إلى الآن. . . وترجمه ابن جعفر في «السلوة» أيضًا. وذكره الغبريني في «عنوان الدراية» من جملة من روى عنه طريق التصوف بواسطة. وذكرته مصادر أخرى غير ما ذكرنا.

توفي رضي الله تعالى عنه بمدينة آسفي وبها دفن[1] سنة ٦٣١هـ، وخلف ستة أولاد كلهم ذكور أشقاء أفاضل.

ووارث سره منهم هو أبو العباس سيدي أحمد ولد سنة ٦٠١هـ، وتوفي في ١٤ من جمادى الأولى سنة ٦٦٠هـ، ودفن خلف قبر والده على يمين الداخل، وكان رجلاً ناسكًا زاهدًا جليل القدر له فضائل جمة وأحوال عجيبة، حج إحدى عشرة حجة وجاور بمكة المكرمة مدة. وكان على قدم والده في المجاهدة والرياضة والخلوة والتنسك والتقشف، له الخوارق والكرامات راجعها في «المنهاج».

والحمد لله رب العالمين وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.

* * *

(١) وقد شرفني الله تعالى بزيارته ومواصلته والسلام عليه في الله عزَّ وجلَّ.

مع الموحدين وأوائل المرينيين

محيي الدين ابن العربي الحاتمي

(عالم وصوفي عظيم)

وهذه شخصية أخرى من أبرز الشخصيات وأعظمها، تلكم هو الإمام الشيخ الأكبر سلطان العارفين سيدي محمد بن علي بن محمد محيى الدين ابن العربي الحاتمي الطائي. كان أسلافه بمدينة سبتة، وولد بمرسية من بلاد الأندلس بتاريخ ٥٦٠هـ، وسكن أشبيلية. وقرأ القرآن بالسبع على جماعة كمحمد بن خلف اللخمي وعبد الرحمن الشراط القرطبي وغيرهما، وأخذ الحديث عن الحافظ عبد الحق الأشبيلي ومحمد بن سعيد ابن زرقون وابن الخراساني وابن بشكوال وغيرهم، وأخذ بالاجازة عن الحافظ السلفي وابن عساكر وابن الجوزي. وتوغل في العلوم وتبحر فيها تبحرًا واسعًا.

وكان في ابتداء أمره يشتغل كاتبًا لبعض الولاة، ثم ترك ذلك فتزهد وانقطع إلى الله تعالى وسلك الطريق ودخل الخلوة وجاهد نفسه وراضها وساح في الفلوات والسواحل والجبال، وصحب الصوفية والأكابر، وعاشر العباد والمنقطعين إلى الله تعالى وهو لا يزال في بلاده حتى فتح الله عليه الفتح الأكبر وبلغ مقامًا في ذلك قلما وصله أحد من أقطاب هذه الأمة[1]. وكان كثير الأسفار والجولان، فقد زار مدينة

---

(١) وقد كنت سمعت أستاذنا مولاي أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى يقول عنه، أنه: لم تلد امرأة بعده مثله. وقد بر وصدق في ذلك؛ فإن الرجل من عجائب الدنيا علمًا وعملاً ومعرفة وتأليفًا. أما كلامه في الحقائق فقد حير عباقرة الإسلام وشيوخ الأمة وأئمتها.

أسلافه سبتة لأول مرة سنة ٥٨٩هـ. ونزل بجزيرة طريفة في نفس التاريخ إلى سنة ٥٩٠هـ. ثم زار تلمسان وتونس في نفس السنة، وزار مدينة فاس سنة ٥٩١هـ. ثم عاد إلى أشبيلية سنة ٥٩٢هـ. ورجع إلى فاس مرة ثانية سنة ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥هـ. وبها ـ كما يقول في «الفتوحات المكية» ٢/٤٩ ـ اجتمع بالختم المحمدي وجمع بينه وبين صاحبيه عبد الله وإسماعيل بن سودكين، ثم عاد إلى بلاد الأندلس بتاريخ ٥٩٥هـ. وزار بها المرية وغرناطة ومرسية ثم زار تونس مرة ثانية ومدينة مراكش كليهما في نفس السنة ثم زار مراكش مرة ثانية سنة ٥٩٧هـ. وفي هذه المرة اجتمع بها بأبي الوليد ابن رشد الحنيد[1]، كما ذكره في «الفتوحات» وكان في مرسية ومرشانة ٥٩٨هـ.

وفي هذه السنة جدد رحلته الأخيرة التي توجه فيها مغادرًا بلاده إلى البلاد الشرقية وقام برحلة واسعة طاف في خلالها أقطارًا كثيرة شرقًا وغربًا، وكان كلما دخل قطرًا أقام ببعض مدنه مدة ثم ارتحل، وفي هذه الرحلة دخل سبتة وسلا ثم تونس والقاهرة والقدس الشريف ثم مكة المكرمة وجاور بها إلى سنة ٦٠٠هـ. ثم زار بغداد والموصل سنة ٦٠١هـ والخليل ٦٠٢هـ. وكان بالقاهرة للمرة الثانية سنة ٦٠٣هـ، ثم رجع لمكة المكرمة مرة ثانية سنة ٦٠٤هـ، ثم زار حلب من بلاد الشام سنة ٦٠٦هـ، وبغداد مرة ثانية سنة ٦٠٨هـ، وحلب مرة ثانية سنة ٦١٠هـ، وكان

---

(١) وله موقف غريب مع سيدنا ابن العربي، فقد اجتمعا لأول مرة، فقال له ابن رشد لأول وهلة: نعم. فأجابه ابن العربي: نعم، ثم قال له: لا. فقال له ابن رشد: كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلـهي، هل هو ما أعطاه لنا النظر؟ فقال: نعم لا، وبين نعم ولا تطير الأرواح من موادها . . . إلخ. فكان ابن رشد بعد ذلك يقول: الحمد لله الذي أنا في زمان رأيت فيه من آتاه الله رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا. دخل خلوته جاهلاً وخرج مثل هذا الخروج من غير درس ولا بحث ولا مطالعة ولا قراءة. وقال: هذه حالة أثبتناها وما رأينا لها أربابًا، فالحمد لله الذي أنا في زمان فيه واحد من أربابها، الفاتحين مغالق أبوابها، والحمد لله الذي خصني برؤيته. انظر بسط الواقعة في: «الفتوحات المكية» ١/١٥٣، ١٥٤، ٣٢٥.

بالحرمين الشريفين مرة ثانية سنة ٦١١هـ. ثم زار قونية في بلاد تركيا سنة ٦١٢هـ، ورجع لحلب مرة ثالثة سنة ٦١٧هـ، وكان بدمشق سنة ٦٢٠هـ، وبحلب للمرة الرابعة سنة ٦٢٨هـ، وبدمشق أيضًا للمرة الأخيرة النهائية سنة ٦٢٩هـ، وبقي بها إلى أن وافاه أجله المحتوم ليلة الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الأخير سنة ٦٣٨هـ. ودُفن بالصالحية بسفح جبل قاسيون وعلى ضريحه بناية وإلى جنبه مسجد تقام فيه الصلوات وعليه أوقاف، وقد زرناه والحمد لله مرارًا.

كان له شيوخ في طريق التصوف كثيرون ضمنهم كتابه «روح القدس» وغيره، من أجلهم في نظره: العارف سيدي يوسف بن يخلف الكومي العبسي من كبار أصحاب سيدي أبي مدين وممن له القدم الراسخ في الطريق. قال عنه في «الفتوحات»: ما راضني من شيوخي سواه، فانتفعت به في الرياضة وانتفع بنا في مواجيده، فكان لي تلميذًا وأستاذًا وكنت له مثل ذلك. وقال فيه: فربى وأدب فنعم المؤدب ونعم المربي. وقال عنه: جل ما أنا فيه من بركته وبركة أبي محمد الموزوري . . . إلخ.

ومنهم العارف أبو جعفر أحمد العريبي وهو أول من لقيه وكان بدويًا أميًا. قال: كان إذا تكلم في علم التوحيد فحسبك أن تسمع، كان يصيد الخواطر بهمته ويصدع الوجود بكلمته . . . إلخ.

ومنهم أبو محمد عبد الله الموزوري من كبار أصحاب أبي مدين. قال عنه: كان ذا همة فعالة وصدق عجيب، له المقامات والآيات العظام . . . إلخ.

وانظر تراجمهم مع غيرهم في «روح القدس» له وهو مطبوع. أما سيدي أبو مدين الغوث وإن كان كثيرًا ما يعبر عنه في كتبه بشيخنا فإنه وإن كان عاصره لم يلقه، وقد بعث إليه مرة مع العارف أبي عمران السدراني أن يقول له: أما الاجتماع بالأرواح فقد صح بيني وبينك وثبت. وأما الاجتماع بالأجسام في هذه الدار فقد أبى الله ذلك فسكِّن خاطرك والموعد بيني وبينك عند الله في مستقر رحمته. اهـ.

وكان السبب في ذلك أن سيدي محيي الدين تمنى الاجتماع بأبي مدين بعد أن صلى المغرب بمنزله بإشبيلية ثم تنفل بركعتين خفيفتين وإذا بأبي عمران قد دخل عليه وقال له الآن صليت المغرب مع أبي مدين وقال لي أن محمد بن العربي بإشبيلية خطر له الساعة كذا وكذا، فسر إليه وقل له كذا وكذا . . . إلخ[1].

وأخباره كثيرة وآياته وخوارقه عجيبة، وقد ترك لنا ثروة هائلة ومكتبة ضخمة في شتى العلوم والفنون طبع الكثير منها ولا زال أكثرها لم يظهر لعالم المطبوعات بعد، وقد جمعها في إجازته المشهورة التي كتبها للملك المظفر غازي بن العادل.

ترجمه كثير من المحدثين والأدباء والصوفية وغيرهم من أهل عصره، فمن بعده، وأثنى عليه وأطراه أقوام وانتقده وتكلم فيه آخرون، والحقيقة أن الرجل من كبار العارفين بالله تعالى ذوي الحقائق والخصوصية، ومن طعن فيه لم يدر مراده ولم يَحُمْ حول مغزاه، وفي كلامه غموض ورموز وألفاظ لا يراد ظواهرها فكيف يفهمها من لم يصل إلى مقامه، فهذه بلاد لا يعرفها إلا من طرقها ودخل شعابها.

فالرجل بحق من مفاخر هذه الأمة وأعلامها الكبار، وقد شهد له بالخصوصية والمعرفة بالله تعالى ورسوخ قدمه في التوحيد والتمسك بالشرع كثير من أكابر الفحول كأبي مدين الغوث[2] والعز بن عبد السلام، وفخر الدين الرازي، وقال: إنه كان وليًا عظيمًا، والشهاب السهروردي، والعارف سيدي مصطفى البكري، والعارف سيدي عبد القادر العيدروس، والشيخ زكرياء الأنصاري، وابن حجر الهيتمي، والعارف اليافعي، والفيروزابادي صاحب «القاموس»، والعارف ابن عطاء الله

(١) في هذه الواقعة كرامتان: مكاشفة أبي مدين بخاطر ابن العربي وبينهما مسافة طويلة جدًا لأن الأول كان ببجاية من الجزائر والثاني بإشبيلية من الأندلس. أما الكرامة الثانية فطي الأرض لأبي عمران ووصوله إلى أشبيلية في أقل من ربع ساعة، وقد نأخذ منها كرامة ثالثة وهي اطلاع أبي مدين على عدم اجتماعه بابن العربي في هذه الحياة. الله أكبر على فضل الله ونعمه على عباده وكيف سخر لهم هذا الكون.

(٢) وهو الذي سماه بالشيخ الأكبر وبسلطان العارفين كما قال البكري وابن عجيبة.

صاحب الحكم، والقطب الشعراني، والحافظ السيوطي والعارف النابلسي[1]، والعارف ابن عجيبة، وأبو عبد الله ابن جعفر الكتاني، وخاتمة العارفين سيدي محمد بن الصديق، وغيرهم من أهل العصور. وهي شهادات عادلة من هؤلاء الأئمة الأجلة تثبت إمامة الرجل واستقامته وخصوصيته وتبرئته من المطاعن التي وجهت إليه؛ فإن هؤلاء أئمة الهدى وقادة التربية والإصلاح، فشهادتهم مقدمة على من طعن فيه وجرحه؛ لأنهم جرحوه بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتيهم تأويله، فهم لا يعرفون مقصوده بخلاف هؤلاء.

ولذا قال سيدي السيوطي رضي الله تعالى عنه في «تأييد الحقيقة» (ص ٧١): وابن العربي أثنى عليه اليافعي وتاج الدين بن عطاء الله وهما شاهدا عدل مقبولان في تزكية مثل هذا، فهما فقيهان صوفيان. اهـ.

وسئل عنه الإمام أبو عبد الله القوري الفاسي من شيوخ زروق وابن غازي المتوفى سنة ٨٧٢هـ، فقال: أعرَفُ بكل فن من أهل كل فن. قيل له: ما سألناك عن هذا. قال: اختلف فيه من الكفر إلى القطبانية. قيل له: فما ترجح؟ قال: التسليم. اهـ.

وسئل عنه ولي الله بلا نزاع بقية السلف الإمام سيدي يحيى النووي المتوفى سنة ٦٧٦هـ. فقال: الكلام كلام صوفي، وتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، ولكن الذي عندنا أنه يحرم على كل عاقل أن يسيء الظن بأحد أولياء الله عز وجل، ويجب عليه أن يؤول أقوالهم وأفعالهم ما دام لم يلحق بدرجتهم.

وتعرض سيدي أحمد زروق في «عدة المريد» لبعض كتب القوم المحتوية على مقفلات ومعارف وحقائق ومنها كتب الحاتمي، فقال: فأما كتب الحاتمي وابن سبعين وابن الفارض وأبي العباس البوني ومن جرى مجراهم فلها رجال لهم في

(١) لكل من الحافظ السيوطي والعارف النابلسي كتاب في الدفاع عنه والثناء عليه: فللحافظ السيوطي «تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي»، أما النابلسي فله «الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين».

الحقائق مجال، وعندهم في التمييز مقال، فلا يشتغل بها في البداية إلا غوي ولا في النهاية إلا خلي ولا في التوسط إلا ذكي يأخذ بما بان رشده، ويسلم ما وراء ذلك ليسلم من آفاته . . . إلخ.

وقال القطب الشعراني في «الطبقات»[1] بعد أن حلاه بأوسمة رائقة: أجمع المحققون من أهل الله عز وجل على جلالته في سائر العلوم، كما يشهد لذلك كتبه، وما أنكر من أنكر عليه إلا لدقة كلامه لا غير، فأنكروا على من يطالع كلامه من غير سلوك طريق الرياضة خوفًا من حصول شبهة في معتقده . . . إلخ.

وفي «الفتاوى الحديثية» لابن حجر الهيثمي، وسئل: ما حكم مطالعة كتب الشيخ محيى الدين بن عربي؟ فأجاب بقوله: الذي أثرناه عن أكابر مشايخنا العلماء الحكماء الذين يستقى بهم الغيث، وعليهم المعول وإليهم المرجع في تحرير الأحكام وبيان الأحوال والمعارف والمقامات والإشارات: أن الشيخ محيى الدين بن عربي من أولياء الله تعالى العارفين ومن العلماء العاملين، وقد اتفقوا على أنه كان أعلم أهل زمانه بحيث إنه كان في كل فن متبوعًا لا تابعًا، وأنه في الحقيقة والكشف والكلام على الفرق والجمع بحر لا يجارى وإمام لا يغالط ولا يمارى، وأنه أورع أهل زمانه وألزمهم للسنة وأعظمهم مجاهدة. . . فلا ينبغي التعرض للإنكار عليه فإنه السم القاتل لوقته كما شاهدناه وجربناه في أناس حق عليهم من المقت وسوء العقاب ما أوجب لهم التعرض لهذا الإمام العارف بالانكار حتى استأصل شأفتهم وقطع دابرهم فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم، فمعاذًا بالله من أحوالهم وتضرعًا إليه بالسلامة من أقوالهم. قال: وأما مطالعة كتبه رضي الله تعالى عنه فينبغي للإنسان أن يعرض عنها بكل وجه أمكنه فإنها مشتملة على حقائق يعسر فهمها إلا على العارفين المتضلعين من الكتاب والسنة المطلعين على حقائق المعارف وعوارف الحقائق فمن لم يصل لهذه المرتبة يخشى عليه منها مزلة القدم والوقوع في مهامه الحيرة والندم . . . إلخ.

---

(١) ونقل في «اليواقيت والجواهر» عن العارف أبي طاهر المزني أنه رجل كامل بإجماع المحققين.

وقال في موضع آخر: أما الكتب المنسوبة له فالحق أنه واقع فيها ما ينكر ظاهره، والمحققون من مشايخنا ومن قبلهم على تأويل تلك المشكلات بأنها جارية على اصطلاح القوم وليس المراد منها ظواهرها . . . إلخ.

وقال: نعم له كتب في التربية الصرفة والحمل على الأخلاق والأحوال وغيرهما مما يناسب السلوك، فهذه لا بأس بمطالعتها فإنها ككتب الغزالي وأبي طالب المكي ونحوها من الكتب النافعة . . . إلخ.

وعلى كل فالكلام حول هذا الإمام قبولاً وردًّا يحتاج إلى بسط وتوسع وليس ذلك من شرطنا في هذه العجالة.

وكان بودي أن أذكر كراماته وفوائده وغرائبه ولكنني رأيت الأمر سيطول؛ فإن حياته وأخباره بحر لا ساحل له، ومن رجع إلى «الفتوحات» وألقى عليها نظرة ولو عابرة رأى فيها من ذلك العجب العجاب. ومن أنفع ما كتب «وصاياه» التي ضمنها آخر «الفتوحات» والتي طبعت مفردة، وهي وصايا هامة رائعة نافعة قيمة، فعليك بها؛ فإنها تفيدك وتنفعك جدًّا جدًّا.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.



مع آخر الموحدين وأوائل المرينيين

سيدي أبو الحسن الشاذلي

(عالم وصوفي)

وممن كان يعيش في هذا العصر والمائة السابعة من الأكابر: أبو الحسن الشاذلي، ذلك القطب الكبير والغوث الشهير شيخ الطريقة الشاذلية وإمامها أبو الحسن سيدي علي بن عبد الله بن عبد الجبار، ينتمي نسبه إلى سيدي عمر بن مولاي إدريس المثنى بن مولاي إدريس الأكبر دفين زرهون وفاتح المغرب.

ولد أبو الحسن سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بقبيلة الأخماس[1] الغمارية بفرقة بني زرويل بقرية اشتنواغل، ولا يزال البيت الذي ولد فيه محفوظًا متبركًا به إلى الآن، وببلدته نشأ وحفظ القرآن وطلب العلم، ورحل لفاس فقرأ على كبار علماء وقته حتى أصبح من كبار علماء الظاهر بحيث كان يعد للمناظرة في العلوم الظاهرة. ثم تاقت نفسه لعبادة الله عز وجل، فتزهد وتنسك وجاهد نفسه وراضها صيامًا وقيامًا

---

(١) وقد أنجبت هذه القبيلة عدة شخصيات كبيرة كالإمام علي بن عبد الحق أبـي الحسن الصغير صاحب «التقييد» على «المدونة» والعارف بالله سيدي محمد بن سعادة والعارف سيدي عبد الوارث اليصلوتي والعارف بالله سيدي أحمد أقطران والعارف سيدي عبد الله الهبطي والعارف سيدي يوسف التليدي وغيرهم من الأكابر.

والأخماس من عمالة شفشاون تكتنفها عدة قبائل، فشرقًا بنو خالد الغمارية وشمالاً بنو سجيل وغربًا بنو يوسف وجنوبًا اغزاوة، وبنو أحمد، وهذه القبيلة تمتاز كجوارها بأشجار الزيتون والتين وكثرة المعز.

وتلاوة وذكرًا، وساح وجال ولزم الخلوة والإنقطاع عن الناس. أخذ أولاً طريقة القوم على وجه التبرك بفاس عن الشيخ ولي الله سيدي محمد بن حرازم بن الشيخ سيدي علي بن حرازم. ثم جعل يطلب القطب فبلغ به المطاف إلى العراق فاجتمع بالعارف أبي الفتح الواسطي فقال له: تطلب القطب بالعراق وهو في بلادك؟ ارجع إلى بلادك تجده. فرجع إلى المغرب فاجتمع بمولانا عبد السلام كما قدمنا في ترجمته ذلك مفصلاً. وعندما أراد مغادرته أوصاه بوصايا نافعة كما قدمنا بعض ذلك، وأخبره بما سيقع له وأنه سيسكن مصر وعين له بعض من يأخذ عنه.

ثم انصرف متوجهًا للديار الشرقية فمر في طريقه على تونس وأقام بها مدة بشاذلة، ثم أوذي من طرف بعض أمرائها فرحل لمصر وسكن الإسكندرية، وحج مرارًا، وأخذ عنه أكابر أئمة الإسلام ومن أبرزهم وارث سره العارف الكبير سيدي أبو العباس المرسي والعارف مكين الدين الأسمر وسلطان العلماء العز بن عبد السلام رضي الله تعالى عنهم. وكان معاصرًا لابن العربي الحاتمي وأبي الحسن الششتري وابن سبعين وقطب الدين القسطلاني والحافظ عبد العظيم المنذري والقرطبي المفسر وغيرهم من الأكابر. ترجمه كثير من المؤرخين وأفرده جماعة بالتأليف، ومن أجمع ما وضع في حياته وأخباره كتاب «أبي الحسن الشاذلي» لشيخ الأزهر عبد الحليم محمود، وقد ذكر ابن عطاء الله في «لطائف المنن» كثيرًا من أخباره وكلامه ومناقبه وكراماته، وأثنى عليه جماعة من الأكابر وحلوه بأوسمة رائقة ووصفوه بالقطبانية الكبرى.

فذكر ابن عطاء الله في «اللطائف»: أن الشيخ العارف مكين الدين الأسمر أخبره فقال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ محيي الدين بن سراقة والشيخ محيي الدين الأخيمي والشيخ أبو الحسن الشاذلي و «رسالة القشيري» تقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم، فقال الأسمر: يا سيدي نريد أن نسمع منك. فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه، وقد تكلمتم. فقالوا: لا بد أن نسمع منك. قال: فسكت الشيخ ساعة، ثم

تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه، وقال: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله. اهـ.

وذكر عنه أنه قال: والله لقد تسألوني عن المسألة لا يكون لها عندي جواب، فأرى الجواب مسطرًا في الدواة والحصير والحائط.

وفيه: قال: والله ما ولَّى الله وليًا إلا وضع حبه في قلبي قبل أن يوليه ولا رفض عبدًا إلا وألقى الله بغضه في قلبي قبل أن يرفضه.

وفيه عن الشيخ أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه قال: كنت مع الشيخ أبي الحسن بالقيروان، وكان شهر رمضان، وكانت ليلة القدر وكانت ليلة سبع وعشرين، فذهب الشيخ إلى الجامع وذهبت معه، فلما دخل الجامع وأحرم رأيت الأولياء يتساقطون عليه كما يتساقط الذباب على العسل، فلما أصبحنا قال الشيخ: ما كانت البارحة إلا ليلة عظيمة، وكانت ليلة القدر ورأيت رسول الله ﷺ وهو يقول: يا علي طهر ثيابك من الدنس تحفظ بمدد الله في كل نفس. قلت: يا رسول الله وما ثيابي؟ قال: اعلم أن الله قد خلع عليك خمس خلع: خلعة المحبة، وخلعة المعرفة، وخلعة التوحيد، وخلعة الإيمان، وخلعة الإسلام، فمن أحب الله هان عليه كل شيء، ومن عرف الله صغر لديه كل شيء، ومن وحد الله لم يشرك به شيئًا، ومن آمن بالله آمن من كل شيء، ومن أسلم لله قلما يعصيه، وإن عصاه اعتذر إليه فتقبل عذره. ففهمت حينئذٍ معنى قوله عز وجل: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤].

وفيه: قيل له: من هو شيخك يا سيدي؟ فقال: كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد، بل أعوم في عشرة أبحر. خمسة من الآدميين: النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان وعلي. وخمسة من الروحانيين: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل والروح.

وفيه: عن أبي العباس المرسي في واقعة جولانه في الملكوت وسؤاله أبي مدين وقوله له: ما تقول في شيخي أبي الحسن الشاذلي؟ فقال: زاد علي بأربعين علمًا، هو البحر الذي لا يحاط به.

وفيه: عن أبـي العباس المرسي، قال: كنت مع الشيخ في بحر عيذاب، وكنا في شدة من الريح الأزيب، وكان المركب قد انفتح، فقال الشيخ رضي الله تعالى عنه: رأيت السماء قد انفتحت ونزل منها ملكان أحدهما يقول: موسى أعلم من الخضر. والآخر يقول: الخضر أعلم من موسى. ونزل ملك آخر وهو يقول: والله ما علم الخضر في علم موسى إلا كعلم الهدهد في علم سليمان. حين قال: أحطت بما لم تحط به، ففهمت أن الله سلمنا في سفرنا، فإن موسى سخر الله له البحر.

وفيه: عن أبـي العباس أيضًا: قال رجل للشيخ أبـي الحسن: ما تقول في الخضر[1]، أحي هو أم ميت؟ فقال الشيخ: اذهب إلى الفقيه ناصر الدين بن الأنباري فإنه يفتي أنه حي وأنه نبـي، والشيخ عبد المعطي لقيه. وسكت ساعة، وقال: وأنا لقيته، وسبابته ووسطاه سواء. إلى آخر ما ذكره عنه. وقد أطال في ذلك فأجاد وأفاد فانظره تستفد.

وبالجملة فأبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه من أفراد هذه الأمة وأكابر أقطابها. ويعتبر المحور الذي تدور عليه الطرق الشاذلية المنتشرة في العالم الإسلامي وغيره، ويعد المجدد لطريق التصوف في القرن السابع الهجري والناشر لها والداعي إليها وقد ترك بعده وخلف وراءه أئمة كبارًا للتصوف والصوفية لو لم يكن منهم إلا سيدي أبو العباس المرسي لكان كافيًا فكيف بغيره من العباقرة والاعلام.

---

(١) الخضر ممن حفتهم عناية الله تعالى، كان من أنبياء الله، وممن أوتي علمًا لدنيا، وقصته مع نبـي الله موسى عليه السلام مبسوطة في القرآن الكريم، وقد امتاز بإذن الله تعالى بطول الحياة، قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في الأسماء واللغات ١/ ١٧٧ من القسم الأول: واختلفوا في حياة الخضر ونبوته، فقال الأكثرون من العلماء: هو حي موجود بين أظهرنا. وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن تحصر وأشهر من أن تذكر. قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في «فتاويه»: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك. قال: وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين . . . إلخ. وقد تعرض لذكره جم غفير من العلماء والصوفية، بل قد أفرد بالتأليف.

وكان له اعتناء بالكتابة في بعض الجوانب، وقد ترك لنا بعض آثاره في التأليف كـ «حزب البر» الذي ابتداه بقوله: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ. . .﴾ إلخ [الأنعام: ٥٤]. و «حزب البحر» الذي يقول في أوله: يا الله يا علي يا عظيم يا حليم يا عليم. و «حزب النصر» الذي جاء في افتتاحه: اللهم بسطوة جبروت قهرك . . . إلخ.

ولهذه الأحزاب آثار وخواص روحية ومادية، وقد اعتاد قراءتها الصوفية وخاصة الشاذلية منهم.

توفي سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه بصحراء عيذاب بمصر في طريقه للحج سنة ست وخمسين وستمائة، ولا زال ضريحه موجودًا إلى الآن، وقد جدد بناؤه مع غرف للزوار في هذا العصر على يد بعض المصريين، فعليك من ربك السلام يا سيدنا أبا الحسن الشاذلي وجزاك الله عنا وعن الإسلام خيرًا يا ابن الزهراء.

❊ ❊ ❊

مع الموحدين والمرينيين

سيدي أبو الحسن الششتري

(عالم صوفي)

أبو الحسن سيدي علي الششتري من أبرز الشخصيات بين الأوساط الصوفية، ولد رضي الله تعالى عنه سنة عشر وستمائة بششتر بضم الشين الأولى مع التاء قرية كانت بوادي آس بالأندلس، ونشأ فيما بينها وبين لوشه، وقرأ القرآن وحفظه في صغره مبكرًا وأتقنه بعدة روايات مع تجويده الكامل. ثم طلب العلم وقضى دهرًا في تحصيله حتى صار من المبرزين في العلوم الإسلامية وخاصة الفقه والحديث وعلوم القرآن. وتذكر المصادر أنه عقد رحلة واسعة النطاق وأنه دخل المغرب وأقام بمكناس وبفاس، ثم بجاية مدة وبهذه اجتمع بأصحاب أبـي مدين وصحبهم وانتسب إليهم مدة، ثم فاجأه ابن سبعين بحقائقه وعلومه فافتتن به وصحبه من جديد وسلم إليه نفسه وألقى إليه الزمام فرباه وسلكه حتى فتح الله عليه بسببه.

وقد حدثنا المقري في «نفح الطيب» عن كلمات ابن سبعين التي ألقاها إلى مريده الششتري عندما التقى به، فكانت كمغناطيس جذبته إليه، فقد قال له: إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبـي مدين، وإن كنت تريد رب الجنة فسلم إلي. اهـ. وقوله: فاذهب إلى أبـي مدين مراده طريقه وأصحابه وإلاَّ فأبو مدين توفي قبل أن يولد الششتري بنحو من خمسة عشر عامًا.

وعندما أخذ عن ابن سبعين طلب منه أن يتجول في السوق مغنيًا بالبيت الآتي:

بــــدأت بـــذكـــر الحبيـــب وعيشـــي وكـــاســـي يطيـــب

ثم مضى يغني بهذا البيت، ولكنه لم يستطع في اليومين الأولين أن يضيف إليه شيئًا. وفي اليوم الثالث فتح الله تعالى عليه، فقال:

لمـــــا دار الكـــــاس مـــــا بيـــــن الجـــــلاس
عنهـــــم زال البـــــاس
سقـــاهـــم بكـــأس الـــرضـــى عفـــا الله عمـــا مضـــى

إلى أن أتم أبياته المعروفة.

ويذكر مترجموه أنه كان يتجول ويسافر كثيرًا مع شيخه، وأنه أقام بتونس وبطرابلس حيث عاش بها مدة، وهناك عرضوا عليه القضاء فامتنع ولم يوافق فاستحمقوه فقال في ذلك أبياته المشهورة التي منها:

رضـي المتيـم فـي الهـوى بجنـونـه خلـوه يفنـي عمـره فـي فنـونـه
لا تعـذلـوه فليـس ينفـع عـذلكـم ليـس السلـو عـن الهـوى مـن دينـه

ثم رحل إلى مصر ودخل القاهرة حيث أقام بها معتكفًا بالجامع الأزهر واتخذ بها مريدين له كانوا يجتمعون به في الأزهر أحيانًا وبغيره أخرى. ومن الواضح أن مصر كانت كغيرها من البلاد وقته تزخر بعدد كبير من رجال التصوف، وكان على رأسهم بمصر القطب أبو الحسن الشاذلي، ولم نر في أي مصدر من المصادر أنهما التقيا فمن المحتمل أن يكون لقي جماعة[1] من أصحابه وتبرك بهم وحفظ لهم في نفسه احترامًا ولذلك نجده أحيانًا ينتسب إليهم في بعض مقطعاته:

شيوخي هم شاذلية.

---

(١) بل لا يبعد أن يكون لقيه شخصيًا فإنه عندما دخل مصر كان الشاذلي موجودًا بها فقد دخل مصر قبل الخمسين والستمائة ولم يمت الشاذلي حتى سنة ٦٥٦هـ وبينه وبين وفاة الششتري نحو من ثلاثة عشر عامًا.

وسيدي أبو الحسن الششتري لم يفرط في زيارته للديار المقدسة، فقد حج عدة مرات وزار المدينة المنورة كذلك، وهناك اجتمع بشيخه ابن سبعين الذي كان قد لجأ إلى مكة وأقام بها مجاورًا بعد أن أخرج من مصر بوشاية بعض الأكابر، ثم رحل الششتري للشام سنة ٦٥٠هـ. وبقي متجولاً في صحاري مصر والشام ومترددًا على كثير من أديرة الرهبان للاتعاظ والعبرة بهم وبأحوالهم إلى أن توفي شيخه بمكة المكرمة، فعند ذلك استقل بالخلافة والإمامة ورئاسة الفقراء والمتجردين حتى كان يسافر معه المئات من المريدين. ولما دنا أجله وكان قد رحل إلى مصر اشتدت عليه علة مرضه بالقرب من دمياط من عمالة القدس أو الخليل عند قرية يقال لها الطينة فسأل الفقراء عن اسم المكان فقيل له الطينة، فقال: حنت الطينة إلى الطينة. ولما توفي حمله الفقراء إلى دمياط حيث دفن بها. وكان قبيل موته سأله بعض الفقراء عن الفقير، فقال: هو الذي يمشي بعد موته ثمانية عشر ميلاً. يشير بذلك إلى نفسه رضي الله تعالى عنه.

إن سيدي الششتري من الشخصيات العظيمة التي كانت بمغربنا. ترجمه كثير وكثير من المؤرخين وغيرهم، وأقدم من ذكره الغبريني عصريه في «عنوان الدراية» ووصفه بأوصاف سامية رائقة، وذكره العارف سيدي أحمد زروق في «شرحه لنونيته» فقال عنه: الأستاذ الفقيه المقرىء المحدث الصوفي العالم العامل الكامل المحقق المدقق أبو الحسن علي بن عبد الله النميري الششتري. قال ابن ليون: كان من أبناء الملوك والأمراء فصار من سادات الفقراء، وكان يقرأ عليه القرآن بالروايات، وكان عارفًا بالأصول الستة وأنواع الرواية. وقال الطواح: كان من التجار السفار، ثم صار من شيوخ الأبرار، قرأ الرأي أي الفقه، ثم تصوف والتزم طريقه فما تشوف، وكان ذا عزمة وهمة مع مشاركة في علوم جمة... إلى آخر كلام زروق. وأطال أحمد بابا في «النيل» والمقري في «نفح الطيب» وابن جعفر في «السلوة» في ترجمته.

ولسيدي الششتري آثار ومؤلفات ذكرها مترجموه، وفيها ما لا يوجد له أثر لحد الآن، ومن الموجود منها «الرسالة العلمية» وهي التي اختصرها ابن ليون في

كتاب أسماه «الإنالة العلمية في الانتصار للطائفة الصوفية»، كانت منها نسخة عند أستاذنا المرحوم سيدي أحمد بن الصديق طيب الله ثراه، فالله أعلم ما فعل الله بها بعد وفاته. نعم توجد له ثروة هامة شعرية كانت إلى أمد قريب مفرقة في شتى الأقطار عند رجالات التصوف وفي بطون المكاتب والخزانات فقيض الله عزَّ وجلّ لجمعها وطبعها في كتاب خاص بعض الباحثين المعتنين، فكان بخدمته هذه قد أسدى إلى شاعرنا الصوفي الششتري أولاً وإلى سائر الصوفية والهائمين في الحب الإلـٰهي ثانيًا، معروفًا يشكر عليه مدى الدهر.

وشعره حلو مؤثر جذاب للحضرة الإلـٰهية ولذلك استحسنه كثير من المشايخ وأوصوا به مريديهم وأولعوا به وبإنشاده في الحضرات وحلقات الذكر، وأثنى عليه الغبريني وابن عباد ومولاي العربي الدرقاوي والعارف ابن عجيبة وغيرهم حتى قال ابن عباد: وأما أزجال الششتري ففيها حلاوة وعليها طلاوة ولي فيها شهوة وإليها اشتياق، وأما تحليتها بالنغمة والصوت الحسن فلا تسأل فإن قدرتم أن تقيدوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك. اهـ.

وكان العارف سيدي محمد بن الصديق قدس الله سره يأمر بإنشاده في الحضرة. ولا يزال الشاذليون وغيرهم ينشدون أزجاله ومقطعاته وقصائده في سائر مدن المغرب وفي تونس والشام وغيرهم، وقد اعتنى الصوفية بها اعتناءً هامًا وشرحوا بعض القصائد والمقطعات منها، فقد شرح «نونيته» كل من سيدي أحمد زروق وسيدي أحمد بن عجيبة كما شرحا معًا كثيرًا من كلامه.

من شعر الششتري:

وشعره دائر بين ثلاثة معان: تغزل وهو أقل ما فيه، وسلوك وهو مستوفى في بعضها، وحقائق وتوحيد وفناء وهو باقيها. وإلى القارىء نبذًا من شعره ونظمه.

فمن ذلك قوله في الهيام والحب:

سقيـت كـأس الهـوى قـديمـًا ... مـن غيـر أرضـي ولا سمـائـي
أصبحـت فيـه فـريـد عصـري ... بيـن الـورى حـامـلاً لـوائـي

لــي مــذهــب مــذهــب عجيــب		فــي الحــب قــد فــاق يــا هنــائــي
يــا مــن همــوا للجميــل أهــل		إن لــم يمنــوا فيــا شقــائــي
حــاشــاكمــو يــا أهيــل نجــد		أن تقطعــوا منكــم رجــائــي

ومنها قوله في ذلك أيضًا:

إذا لـم يكـن معنى حديثك لي يـدرى		فـلا مهجتي تشفى ولا كبـدي تـروى
نظـرت فلـم أنظـر سـواك أحبـه		ولولاك ما طاب الهوى للذي يهوى
ولما اجتلاك الفكر في خلوة الرضا		وغيـب قـال النـاس ضلت بـه الأهـوا
لعمرك مـا ضـل الحبيب ومـا غـوى		ولكنهـم لمـا عمـوا أخطـأوا الفتـوى
ولـو شهـدوا معنـى جمـالـك مثـل مـا
شهـدت بعيـن القلـب مـا أنكـروا الـدعـوى
خلعـت عـذاري فـي هـواك ومـن يكـن
خليـع عـذار فـي الهـوى سـره النجـوى
ومـزقـت أثـواب الـوقـار تهتكـًا
عليـك وطـابـت فـي محبتـك البلـوى
فمـا فـي الهـوى شكـوى ولـو مـزق الحشـا
وعـار علـى العشـاق فـي حبـك الشكـوى

فيصرح بأنـه نظر فلم يجد شيئًا يستحق الحب سوى الله تعالى وأنه لولاه ما طاب الهوى لمن يهوى. ويسترسل يرد على العاذلين ويناديهم بأنهم لو قدر لهم مشاهدة جمال الله مثل مـا شاهد منه مـا أنكروا عليه، ولـذلـك فإنه لم يبق له حياء في سبيل الحب الإلـٰهي بل خلع عذاره ومزق أثواب وقـاره وتهتك وهـام في محبوبه.

ويصف حبه مرة بالخمرة، وقد يكون إشارته بذلك إلى معرفة محبوبه وتحققه بتوحيده الخالص، فيقول في ذلك معرضًا بالفقهاء المنكرين:

طاب شرب[1] المدام في الخلوات ... اسقني يا نديم بالآنيات
خمرة تركها علينا حرام ... ليس فيها إثم ولا شبهات
عتقت في الدنان من قبل آدم ... أصلها طيب من الطيبات
افتني أيها الفقيه وقل لي ... هل يجوز شربها على عرفات
أو يجوز الطواف والسعي بها ... ويلبي ويرمي بالجمرات
أو يجوز القرآن والذكر بها ... أو يجوز التسبيح في الصلوات
فأجاب الفقيه إن كان خمر ... عنب فيه شيء من المسكرات
شربها عندنا حرام يقينًا ... زائد فيه شيء من الشبهات
آه يا ذا الفقيه لو ذقت منها ... سمعت الألحان في الخلوات
وتركت الدنيا وما أنت فيه ... وتعش هائمًا ليوم الممات

ويغني لنا بذكر ليلى معبرًا بها عن الوجود المطلق ويذكر أن حبها سلب عقله فيقول:

سلبت ليلى مني العقلا ... قلت: يا ليلى، ارحم القتلى
حبها مكنون، في الحشا مخزون ... أيها المفتون، هم بها ذلا
إنني هائم، ولها خادم ... أيها اللائم، خلني مهلا
لزمت الأعتاب، وطرقت الباب ... قلت للبواب: هل ترى وصلا
قال لي: يا صاح، مهرها الأرواح ... كم محب راح، يعشق القتلى
أيها العاشق، إن كنت صادق ... للسوى فارق، تغتنم وصلا

وينادي العاذلين والعاتبين فيعتذر لهم بأنه من أهل الغرام الذين أولعوا بالأذكار والطرب والغنا، ويصرح لهم بأن ما هو عليه ليس كما يفهمون فيقول:

---

(١) وهذه الخمرية شبيهة بخمرية ابن الفارض التي مطلعها:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة ... سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

... إلخ.

يـــا كثيـــر المـــلام لا تلمنـــا دعنـــا
نحـــن أهـــل الغـــرام كـــل معنـــى معنـــا

نحـــن قـــوم لنـــا فـــي المعـــانـــي أســـرار
الهـــوى طبعنـــا والـــولـــوع بـــالأذكـــار
والطـــرب والغنـــا بـــه تـــزول الأغيـــار
لا تكـــاثـــر كـــلام سكـــرنـــا ينفعنـــا
عـــن طبـــاع العـــوام العـــذار خلعنـــا
رق معنـــى الهـــوى فـــي النفـــوس والأشبـــاح
وظهـــر واحتـــوى فـــي الصـــدور والأرواح
يـــا خلـــي الجـــوى لـــو ذقـــت مـــن ذا الـــراح
يـــا لـــه مـــن مـــدام مـــن سكـــر بـــه غنـــى
شـــربـــوه الكـــرام ولهـــم فيـــه معنـــى
خمـــرًا صـــافـــي زلال ليـــس هـــو مـــن أعنـــاب
شـــاهـــدوه الـــرجـــال بـــالقلـــوب والألبـــاب
خصهـــم ذو الجـــلال الكـــريـــم الـــوهـــاب
بـــالهنـــا المستـــدام إذ عليـــه المبنـــى
هـــم أنـــاس كـــرام فـــي محـــل أسنـــى

ويوصي الصوفية بالهيام في المحبوب إذا أرادوا الوصال والرقي وبلوغ المأمول فيقول:

إن شئـــت أن تـــرقـــى فخلـــي الأكـــوان
افـــن وزد عشقًـــا يكـــون لـــك الشـــان
واتبـــع الحـــق وارحـــل للميـــدان
تنـــال مـــا تطلـــب علـــى الكمـــال
هـــم فـــي هـــوى المحبـــوب ولا تبـــال

❁ ❁ ❁

أنـــا الـــذي نـــدري　　هـــذه الطـــريقـــة
ســـارت إلـــى ســـرى　　نـــور الحقيقـــة
وهمـــت فـــي سكـــري　　ولـــم أفيقـــه
ولَـــذّ لـــي المشـــروب　　شـــربـــه حـــلالـــي
هـــم فـــي هـــوى المحبـــوب ولا تبـــال

* * *

يـــا محـــلاه والهجـــر مـــر　　يـــا سعـــد يـــا بشـــراه مـــن كـــان حـــر
والغيـــر يـــا بلـــواه يهيـــم فـــي غيـــر　　لقـــد هـــوى المعتـــوب، والغيـــر سالـــي
هـــم فـــي هـــوى المحبـــوب ولا تبـــال

* * *

إلى غير ذلك من موشحاته وأزجاله، ولعل نونيته العظيمة القيمة من أبرز قصائده وأطولها وأجمعها لمقاصد الطريق وأجملها فلقد ضمنها مقصود القوم وحالتهم مع الله ومعاملتهم معه مع كلامه على العقل وبعض الشخصيات الذين لهم اتصال بالموضوع.

انتقاد الناس للششتري:

كان شاعرنا الصوفي الششتري متأثرًا جدًّا بوحدة الوجود على قدم عظيم فيها، وقد تكلم عليها وأشار إليها كثيرًا في قصائده ومقطعاته وأزجاله وموشحاته وظهرت على كلامه ظهورًا واضحًا لا خفاء فيها كما ظهر ذلك جليًا في كلام سيدي محيي الدين الحاتمي، وكان ذلك مثارًا للقيام عليه والطعن فيه ولمزه بالتطرف والانحراف ورميه بالزندقة والإلحاد والحلول والاتحاد من طرف فقهاء عصره، فمن بعده حتى يومنا هذا. وكان من أبرز خصومه تقي الدين أحمد بن تيمية الذي ذكره كثيرًا في كتبه مع ابن العربي والعفيف التلمساني وابن سبعين وغيرهم ولا يعبر عنهم إلاّ بالملاحدة الزنادقة ويجعلهم أكثر من اليهود والنصارى والمجوس ويليه في

العداوة للششتري وإخوانه أبو حيان الظاهري الأندلسي صاحب «البحر» و «النهر»، فقد نسبه في «النهر» إلى القول بالحلول، وهكذا كان شأنه في كل الصوفية وخاصة صوفية الحقائق.

قال الشيخ زروق: رمى أبو حيان جماعة بالقول بالحلول والظهور مع أنه كفر كالحلاج والشردي وابن أحلى وابن قسي وابن ذي مسكين والعفيف التلمساني والعجمي الإيكي والأقطع والششتري وابن العربي وابن الفارض وابن سبعين وآخرين ذكرهم بذلك أبو حيان. قال: سيدي زروق: والظن بهم البراءة مما رموا به ولكن ضاقت عليهم العبارة على حقائق تصريح العلم فأدت بظاهر ما يتوهم أنهم برآء منه. هذا معتقدنا فيهم، وعند الله تعالى الموعد. اهـ. كلام زروق. وقال فيه أيضًا: ومعاذ الله أن يكون من أهل ذلك، وهو من أهل العلم والتمسك بالأحكام الشرعية، وإن كانت له ظواهر تقتضي ذلك فالواجب أن يوكل علمها إليهم وتتناول بالوجه الصحيح عليهم والتسليم أنجى وأسلم. اهـ.

وليكن هذا آخر الكلام عليه فإن ترجمته طويلة وواسعة، توفي رضي الله تعالى عنه سنة ٦٦٨هـ، ودفن كما قدمنا بمدينة دمياط، فطيب الله ثراه وأسبل عليه شآبيب رحمانه، آمين.

وصلّى الله وسلّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.



مع دولة المرينيين

سيدي أحمد بن عاشر نزيل سلا

(عالم صوفي)

هو سيدي أحمد بن عاشر الأندلسي نزيل مدينة سلا ودفينها، الولي الصالح الزاهد الكبير، ذو الكرامات الرائعة، المنقطع النظير في الزهد والورع، كان من كبار العلماء العاملين منقطعًا عن الدنيا وأهلها، كثير النفور من الأمراء ورجال الدولة، لا يكاد يواجه أحدًا منهم؛ قصده مرة السلطان أبو عنان يريد زيارته فوقف ببابه طويلاً فلم يأذن له وانصرف راجعًا ثم عاد إليه مرارًا فلم يصل إليه.

ترجمه كثير من العلماء وأطال في ذلك أحمد بابا في «نيل الابتهاج» وكذا ابن جعفر في «السلوة» وذكروا أن أصله من شمنية من الأندلس، وبها ولد ونشأ وحفظ القرآن وقرأ العلم، ثم انتقل للجزيرة الخضراء وأقام بها زمنًا مشتغلاً بتعليم القرآن ولقي بها الأكابر... ثم رحل للحج فلما رجع نزل بالمغرب بفاس وأقام بها مدة ثم بمكناس واستوطنها ثم انتقل لسلا وقضى بها مدة يعلم القرآن وينسخ عمدة الأحكام ويبيعها وكان معجبًا بها مؤثرًا لها ولحفظها وفهمها، وكان يقول فيه تلميذه ابن عباد: لو فتش اليوم على مثله بالفتيلة والقنديل لم يوجد ... إلخ.

وذكره ابن الخطيب في «نفاضة الجراب» وأثنى عليه فقال: لقيت من أولياء الله بسلا الولي الزاهد الكبير المنقطع العزيز فرارًا عن زهرة الدنيا وهربا عنها واقفًا في الورع وشهرة بالكشف وإجابة الدعوة وظهور الكرامة أبو العباس ابن عاشر ... إلخ.

وقال في «رحلته»: كان فريدًا في الورع ميسرًا عليه في ذلك أتم تيسير، محفوظًا من كل ما فيه شبهة، كثير النفور من الناس وخصوصًا أصحاب الولاية في الأعمال. خرجت على يده تلامذة نجباء أخيار . . . إلخ.

وقال ابن عرفة: ما أدركت مبرزًا في زماننا هذا إلاّ أبا الحسن المنتصر وأحمد ابن عاشر نزيل سلا.

وقال ابن صعد في «النجم الثاقب»: كان أحد الأولياء الأبدال، معدودًا في كبار العلماء . . . إلخ.

وكانت طريقته العمل على ما في الإحياء للغزالي بجد واجتهاد، كان يقطع أكثر أوقاته بين القبور في عبادة الله تعالى، كان قد اعتزل كل الأوساط لا يجالس إلاّ بعض الأفراد من أصحابه ولا يأكل إلاّ من كسب يده وما يبيعه مما ينسخه من عمدة الأحكام للحافظ عبد الغني المقدسي.

وذكر ابن الخطيب عنه أنه كان عنده فسأله بعض الأخيار عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني لوجود ذلك من بعضهم، فقال: المسلم الذي له هذه الدرجة يبرىء من العاهة والنصراني لا يبرىء. ثم قال: وهل يبرىء الفقيه من العاهة؟ فقال: نعم، ثم نظر يمينًا وشمالاً ليجد صاحب عاهة فيأتي بالعيان فلم يجد أحدًا، وكأنه اغتاظ لهذا السؤال، ثم أخرج يده، وقال: يؤتى بمن تعطل عن الحركة فيبحثه بيده ويقيمه، وقد ذهب ألمه بعد أن جئنا إلى الأرض في الصفة. ثم قال: وسئل بعضهم عن هذا وكان السائل نصرانيًا في زي المسلم، فقال له: الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك. فسقط وفضحه الله تعالى وأسلم بسبب ذلك.

ومن أكبر تلامذته العارف ابن عباد شارح «الحكم العطائية» الآتي عقبه، وقد قال عنه في رسائله: كنت قديمًا خرجت يوم مولده ﷺ صائمًا إلى ساحل البحر فوجدت هناك السيد الحاج ابن عاشر رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه فأرادوا مني الأكل فقلت إني صائم فنظر إليّ السيد الحاج نظرة منكرة،

وقال لي: هذا يوم فرح وسرور يستقبح في مثله الصوم كالعيد[1] فتأملت مقالته فوجدته حقًا وكأنه أيقظني من النوم . . . إلخ.

---

(١) وإنّه كما قال؛ فإن المولد النبوي يعتبر موسمًا من مواسم المسلمين وعيدًا عظيمًا من الأعياد وهو من البدع الحسنة، التي تشهد أصول الإسلام وقواعده باستحبابه، لأن المقصود منه هو التظاهر بما يدل على شكر الله عزّ وجلّ على ما أنعم ومنّ به علينا من إيجاد هذا النبـي العظيم وإخراجه لهذا الكون وهو الرحمة العظمى لهذا العالم ﷺ، وقد استحب الاحتفال بهذا المولد جم غفير من أئمتنا العلماء والصالحين رحمهم الله تعالى، حتى قال بعضهم: إن ليلة المولد النبوي الشريف أفضل من ليلة القدر، لأن ليلة القدر وغيرها من أنواع الخير والفضائل ما عرفناها إلاّ من طريقه. وألف فيه جماعة من الأعلام كالحافظ أبـي الخطاب ابن دحية والإمام شمس الدين بن الجزري والحافظ شمس الدين بن ناصر الدمشقي والحافظ السيوطي وغيرهم، وبينوا وجه استحبابه وذكروا ما يدل عليه، ويكفي أن خاتمة الحفاظ ابن حجر العسقلاني سئل عنه فأجاب باستحبابه إن عرى عن المناكير، واستدل لمشروعية ذلك بما جاء في «الصحيحين» من أن النبـي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فسألهم فقالوا هو يوم أغرق الله فيه فرعون ونجى موسى فنحن نصومه شكرًا لله تعالى قال فيستفاد منه فعل الشكر لله على ما من به من يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة والشكر لله تعالى يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام والصدقة والتلاوة قال وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبـي نبـي الرحمة في ذلك اليوم. وكذا قال الحافظ السيوطي في «حسن المقصد» إن أصل عمل المولد الذي هو اجتماع الناس وقراءة ما تيسر من القرآن ورواية الأخبار الواردة في مبدأ أمر النبـي ﷺ وما وقع في مولده من الآيات ثم يمد لهم سماط يأكلونه وينصرفون من غير زيادة على ذلك هو من البدع الحسنة التي يثاب عليها صاحبها لما فيها من تعظيم قدر النبـي ﷺ وإظهار الفرح والاستبشار بمولده الشريف . . . إلخ.

وقد تعرض له ابن كثير في البداية والنهاية فلم ينكره. وانظر تاريخ ابن خلكان من ترجمة الملك المظفر صاحب إربل والاستقصاء للناصري من ترجمة السلطان يوسف بن يعقوب المريني، وعلى كل فالمسارعة إلى ذمه وإنكاره ليس من شأن أهل التحقيق فإن مطلق الاحتفالات العارية عن المناكير مباحة فكيف بالاحتفال بميلاد سيد الكائنات صلوات الله وسلامه عليه وكونه لم يفعله السلف لا يدل على منعه.

وذكره أيضًا المقري في «نفـح الطيب» والناصري في «الاستقصا» والنبهاني في «جامع كرامات الأولياء» والزركلي في «الأعلام» وغيرهم. توفي رضي الله تعالى عنه سنة ٧٦٥هـ بسلا، ودفن بمقبرتها التاريخية المطلة على المحيط وضريحه مقصود للزيارة وخاصة من أصحـاب الأمراض والعاهات، وتلك كانت حالته رضي الله تعالى عنه، فكان إذا جيء إليه بصاحب عاهة أمر عليه يده فيعافى بإذن الله عزَّ وجلّ.



مع دولة المرينيين

سيدي ابن عباد شارح الحكم

(عالم صوفي)

وممن كان يعيش أيام دولة المرينيين في القرن الثامن الهجري من الأولياء الكبار الإمام شيخ أهل عصره وسيدهم سيدي محمد بن إبراهيم بن عباد الرندي المشهور بابن عباد الفقيه الصوفي الزاهد الولي العارف شارح الحكم العطائية. ولد برنده من بلاد الأندلس وبها نشأ.

قال سيدي أحمد زروق: مولده سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، جمع القرآن وهو ابن سبع سنين، ثم رحل لفاس وتلمسان وقرأ بهما الفقه والعربية والأصول، ثم عاد فصحب بمدينة سلا أفضل أهل زمانه علمًا وعبادة سيدي أحمد بن عاشر نفعنا الله به. اهـ.

وقال أيضًا: هو سيد العارفين بالله في زمانه ونخبة عصره وإبانه نسيج وحده وعمدة الصديقين. . . كان ذا سمت وصمت وزهد وعفاف وتجمل متبرئًا من الدعاوى. قال لي بعض فقراء الوقت: ما رأيت أحدًا ممن تكلم في هذا الفن يعني التصوف بريئًا من الرضى عن نفسه بكل وجه إلاَّ ابن عباد. قال: وبالجملة فقد كان رحمه الله تعالى من الأئمة المهتدين ومن أهل الظرافة في الدنيا والدين. اهـ.

وقال فيه: عصريه ابن الخطيب القسنطيني: الخطيب الشهير العالم الكبير من أكابر أصحاب ابن عاشر وخيارهم له كلام عجيب في التصوف وصنف فيه، وله فيه

فلم انفرد به وسلم له فيه بسببه، ألف «شرح حكم ابن عطاء الله» في سفر. قال: وكان يحضر السماع ليلة المولد؛ وما رأيته قط في غير مجلس العلم جالسًا مع أحد وإنما حظ من يراه الوقوف معه خاصة. قال: يخدم نفسه، لم يتزوج ولم يملك أمة، ولباسه في داره مرقعة يسترها إذا خرج بثوب أخضر أو أبيض، له تلاميذ أخيار مباركون بلغني عن بعضهم أنه تصدق حين تاب على يده بعشرة آلاف دينار ذهبًا . . . إلخ.

وقال فيه صاحبه الشيخ أبو زكرياء السراج في «فهرسته»: شيخنا الفقيه الخطيب البليغ الخاشع الإمام العالم المصنف السالك العارف الرباني المحقق ذو العلوم الباهرة والمحاسن المتظاهرة. . . قال: كان حسن السمت طويل الصمت كثير الحياء والوقار متواضعًا معظمًا عند الخاصة والعامة. ثم ذكر شيوخه ومقروآته وأنه أخذ في التصوف وبحث عن الأسرار الإلـٰهية حتى أشير إليه وتكلم في علم الأحوال والمقامات والعلل والآفات. قال: ولقي بسلا الزاهد الورع الحاج ابن عاشر وأقام معه سنين عديدة. قال: قصدته لوجدان السلامة معهم، وكان شيخه ابن عاشر يشيد بذكره ويقدمه على أصحابه ويأمرهم بالأخذ عنه والتسليم له ويقول فيه إنه أمة وحده . . . إلخ.

ومن شيوخه العلاَّمة المجتهد أبو عبد الله الشريف التلمساني صاحب «مفتاح الوصول» والشيخ أبو مهدي المصمودي والشيخ الصالح أبو محمد الفشتالي وغيرهم، وله رسائل كبرى وصغرى في التوحيد والتصوف والسلوك وغير ذلك، وقد طبعت الكبرى منهما في سفر أما شرحه على الحكم فمما سارت به الركبان، شهرته تغني عن التعريف والإشادة به، وهو مفيد للغاية لا يستغني عنه مريد ولا سالك.

ومن كراماته ما ذكره المقري في «نفح الطيب» قال: حدثني الشيخ أبو مسعود الهراس، قال: كنت أقرأ في صحن جامع القرويين والمؤذنون يؤذنون بالليل فإذا أبو عبد الله ابن عباد قد خرج من باب داره وجاء يطير في الصحن كأنه جالس متربع حتى دخل في البلاط الذي حول الصومعة . . . إلخ.

توفي رضي الله تعالى عنه سنة ٧٩٢هـ بفاس ودفن داخل باب الفتوح. قال: سيدي أحمد زروق: وقبره بها مشهور ومزيته معروفة شرقًا وغربًا. وقال في «الجذوة»: وقبره مزارة مشهورة والدعاء عنده مستجاب. وقال في «نفح الطيب»: قد زرت قبره مرارًا بفاس ودعوت الله تعالى عنده، وهو عند أهل فاس بمثابة الشافعي[(١)] عند أهل مصر، وفي «المقصد»: أنه وقف العارف الفاسي على قبره زائرًا له، قال له: إنه ممن تشد إليه الرحال. ترجمه العارف سيدي أحد زروق في غير ما شرح من شروح «الحكم» وأحمد بابا في «النيل» والمقري في «نفح الطيب» وابن جعفر في «السلوة». انظر (٢/ ٣٣، ١٤٢).



(١) هيهات هيهات أن يكون كذلك عند أهل فاس بل هو روضة محاط عليها بجدار داخل باب الفتوح في مقبرة مهملة يتغوط فيها الناس وروضته نفسها كانت كذلك فقد زرتها مرارًا قديمًا وكنت أجد داخلها بعض السكان، ومنذ أربع سنوات كنت زرتها في جماعة من الإخوان فوجدناها ملآنة بالعذرة والأزبال المتراكمة ولم نستطع الدخول إليها ولا الدنو منها بل لم نجد طريقًا إليها فارغا من الغائط فأخذنا العجب من مثل ذلك الإهمال. والحالة أن المقبرة بفاس وفاس. وما أدراك ما فاس ولكننا سلمنا الأمر لله وعرفنا أن في ذلك حكمة لله تعالى. ولما زرت فاسا هذه السنة ١٣٩٨هـ وزرت الروضة المذكورة، وجدت الأمر تبدل فقد نظفت الروضة وأزيل ما كان فيها وسكنها بعض الغرباء والأمر لله وحده، أما المقبرة فلا زالت على حالتها، أما الإمام الشافعي فقد زرته في القاهرة مرارًا فرأيته محترمًا معظمًا مطيبًا منظفًا وعنده مسجد هام ينسب إليه مفروش بالزرابي وتقام به الصلوات الخمس والجمعة فأين هذا من ضريح سيدي ابن عباد. اللهم إلا أن يكون أهل عصر المقري كانوا بفاس كالمصريين في احترام أضرحة أوليائهم وأئمتهم. نعم قد نرى بعض المغاربة على العموم يعظمون بعض الأضرحة التي لا تستحق حتى الزيارة ولله في خلقه شؤون.

مع دولة المرينيين

سيدي محمد بن سليمان الجزولي

(عالم صوفي)

هو الشيخ العالم العارف الولي الصالح بركة مدينة مراكش سيدي محمد فتحا بن عبد الرحمن بن سليمان الجزولي، الشريف النسيب، ولد ببلاده جزولة من سوس، وبها نشأ وقرأ القرآن ثم اشتغل بالعلم ورحل لفاس وبقي به مدة، وبه لقي العارف سيدي أحمد زروق.

وكان علاَّمة على قدم راسخ في فقه مالك، يقال: إنه كان يحفظ المدونة وغيرها. ولكنه انصرف عن ذلك كله واشتغل بعبادة الله عز وجل، وتزهد وتنسك وشغف بالصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ وأولع بالمداومة عليها، واعتزل الأصدقاء وعموم الناس ولزم بيته واشتغل بما يهمه.

وألف كتابه العظيم «دلائل الخيرات»[1] الذي حاز من الحظوة والانتشار ما لم يحزه أي كتاب، وعم دخوله كل البيوت وجميع الطبقات وقرأه حتى ربات الخدور، وقد جرب ملايين المسلمين خيره وبركته والإنتفاع به في المشارق والمغارب عبر العصور والأجيال وشاهدوا له من البركات والأنوار ما لا يخطر على بال، وقد كان المسلمون حريصين على قراءته أفرادًا وجماعات في المساجد والبيوت متفانين في

---

(١) وقد خاب وصل من سمَّاه دلائل الخيبات.

الصلاة على الحبيب الأعظم مادحين له حتى ظهرت وانتشرت الفكرة الوهابية بين الناس وفتن العامة بها ووسوسوا بآراء. . . ابن تيمية ومجدد طريقته ابن عبد الوهاب النجدي فضعف المسلمون عن قراءة «دلائل الخيرات» وفتروا عن الصلاة على رسول الله ﷺ خصوصًا، وعن ذكر الله عمومًا، وسلبوا حسن الظن بالمسلمين حتى بأكابرهم وأئمتهم وانشغلوا بسب الصالحين ومن انتمى إليهم، وضللوا عوام المسلمين وخواصهم وبدعوهم بمجرد جزئيات تطرف فيها ابن تيمية حسب اجتهاده مخالفًا فيها كل الأئمة والعلماء.

والمقصود أن «دلائل الخيرات» قيم لا مثيل له في موضوعه، وكاتب هذه الحروف ممن شاهد ولمس بركته، والكتاب بحمد الله تعالى ليس فيه ما يؤاخذ على مؤلفه إلاَّ ما فيه من بعض أحاديث موضوعة أو التي لا أصل لها، وهذا مما لا يخلو منه كتاب لا يعرف صاحبه الحديث، أما ما انتقدوه عليه كقوله: (وصلِّ على سيدنا محمد عدد علمك)، وقوله: (عدد ما أحاط به علمك، وأضعاف ذلك)، وقوله: (كنت حيث كنت. . .) إلخ. فهي مؤولة ومحمولة على محامل حسنة كما يعرف من جواب أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي كما في «ممتع الأسماع» و «مرآة المحاسن»، أما ما فيه من الاستشفاع برسول الله ﷺ والتوسل به وندائه باسمه: (يا سيدنا محمد). . . إلخ. فالاعتراض على ذلك من وساوس الوهابية وترهاتهم الباطلة، وفي السنة المطهرة ولغة العرب ما يدل لذلك كما يعرفه أهل العلم الصحيح، وكما هو مذكور في كتب الرد على الوهابية وأذنابهم.

وأنا أنصح كل مسلم بملازمة قراءة «دلائل الخيرات»، فإنه إن لازمه مع التفكر في عظمة الرسول الكريم والتحبب إليه فسوف يسعد إن شاء الله تعالى.

نعم إن سيدي الجزولي بعد أن ألف كتابه المذكور اتصل بالعارف سيدي محمد بن عبد الله أمغار فأخذ عنه الطريق ثم دخل الخلوة ومكث فيها أربعة عشر عامًا، وكان ورده الألوف من البسلمة وعدة ختمات من الدلائل وربعًا من القرآن

الكريم كل يوم وليلة، ثم خرج للدعوة والإرشاد والتربية، فكون بفضل الله عز وجل جموعًا غفيرة من المؤمنين الصالحين حتى إنه اجتمع بين يديه من المريدين إثنا عشر ألفًا وستمائة وخمسة وستون كما ذكر سيدي المهدي الفاسي في «ممتع الأسماع».

وكانت طريقته التي يأخذ عليها العهد هي الصلاة على الرسول ﷺ مع الفناء في محبة الله ورسوله ﷺ، وزيارة الأولياء، مع التبري من الحول والقوة، والإعتماد على الله عز وجل.

وسيدي محمد الجزولي، كان قد رحل للديار الشرقية وحج وجاور مدة ولقي بها الأكابر ثم رجع لبلاده واتخذ مدينة آسفي مقرًا لسكناه، فعاداه أهلها وأنكروا عليه أمورًا في الطريق وابتلي بسبب ذلك فكانت نهايته إخراجه منها ونفيه عنها إجباريًا، فرجع لبلاده جزولة وبقي بها إلى أن توفي بها رضي الله تعالى عنه وذلك سنة ٨٧٠هـ، ثم نقل لمراكش بعد سبع وسبعين سنة ودفن برياض العروس، وعلى روضته مهابة وجلالة. و «دلائل الخيرات» يقرأ عنده طوال الأيام، وبجنبه مسجد تقام فيه الصلوات والناس يقصدون زيارته والتبرك بالسلام عليه والدعاء عنده. وقد شرفني الله عز وجل ولله الحمد بزيارة ضريحه مرات كثيرة، وقد خلف لنا سيدي الجزولي رجالاً ورجالاً، من تلامذته وتلامذة أصحابه جمعهم لنا سيدي المهدي الفاسي في «ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع وما لهما من الأتباع» مطبوع بفاس على الحجر وسيأتي لنا بعضهم.

من مناقبه وأخباره:

قال الإمام أبو عبد الله القصار رحمه الله تعالى: كان شيخنا سيدي محمد الجزولي الشاذلي على محبة عظيمة له ﷺ، فقد قيل له: فضلتك على أهل عصرك بكثرة صلاتك على حبيبي محمد ﷺ. وفي «الممتع» قال رضي الله تعالى عنه: رأيت النبي ﷺ، فقال لي: أنا زين المرسلين، وأنت زين الأولياء. وقال رضي الله تعالى عنه: لا تقولوا رحمكم الله أنا آخذ العلم من الأرض أو من السماء، بل آخذه من

الملك الحق من غير أرض[1]، ولا سماء. وذكر أحمد بابا والفاسي في «المرآة» وغيرهما أنه لما نقلوه إلى مراكش ـ وكان الذي نقله السلطان أبو العباس أحمد المعروف[2] بالأعرج، وذلك بعد سبع وسبعين سنة من موته ودفنه بجزولة ـ وجدوه لم يتغير منه شيء ولم تعد عليه الأرض، حتى أن أثر الحلق من شعر رأسه ولحيته كان ظاهرًا كحاله يوم موته، وكان بعضهم يضع أصبعه على وجهه فينحصر الدم عما تحتها، فإذا رفع أصبعه رجع الدم كما يقع ذلك للحي.

قال سيدي المهدي في «الممتع»: وهو حقيق بذلك رضي الله تعالى عنه فقد جمع بين الصديقية العظمى والشهادة لأنه مات مسمومًا . . . إلخ.

وذكروا عنه أنه لما كان بفاس منقطعًا في بيته للعبادة كتب كل جدران المحل بكلمة الموت، ولما اعتزل الناس وتنكر لأصدقائه ذكر بعض الطلبة لوالده ـ وكان بمراكش ـ بأن ولدك يعمل الكيمياء فرحل إليه والده؛ ولما دخل عليه ورأى ما هو عليه مكتوب على جدران البيت دعا معه وانصرف راجعًا وعاتب نفسه ولامها على ما فرط منه.

ولسيدي الجزولي رضي الله تعالى عنه كتاب «سبحان الدائم»، كان قد وضعه لأولاده ونساء بيته كعقيدة لهم، وقد اعتاد قراءته العيساويون أتباع سيدي محمد بن عيسى وهو من تلامذة أصحاب التباع تلميذ الجزولي كما يأتي. كما له رسائل وردود وأجوبة حول موضوعات شتى، كان فقهاء عصره ينتقدونها عليه وعلى أصحابه فانظرها مع بقية ترجمته في «ممتع الأسماع».



(1) على غرار ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وقوله عليه الصلاة والسلام: «لقد كان فيمن قبلكم محدثون. . .» إلخ.

(2) من ملوك السعديين، ولي ذلك بأمر والده الأمير أبي عبد الله القائم الذي كان أول مؤسس للدولة السعدية.

مع دولة[1] المرينيين

سيدي أحمد زروق

(عالم وصوفي)

ومن مشاهير الصوفية الكبار الذين كانوا في عصر المرينيين سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنوسي الفاسي الشهير بزروق، الإمام العالم الفقيه المحدث الصوفي المتضلع المتبحر الولي الصالح العارف بالله، الحاج الرحلة ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة والفوائد العتيدة، ولد ثامن وعشرين من المحرم سنة ست وأربعين وثمانمائة.

وتوفي والدُه وأمه داخل الأسبوع، لم يعق عنه بعد، فتربى في حجر جدته أم البنين الفقيهة فكفلته وأدخلته المكتب، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن عشر سنين، وقرأه على جماعة بحرف نافع، منهم الإمام القوري والزرهوني والمجاصي وغيرهم. ثم اشتغل بالخرازة، ثم تركها واشتغل بالعلم بإرشاد بعض الأكابر فقرأ على الشيخ عبد الله الفخار والشيخ علي السبط وعبد الرحمن الثعالبي وإبراهيم التازي وحلولو والرصاع والسنوسي صاحب «العقيدة» وابن الدمير وآخرين من المشارقة. وقرأ «البخاري» كثيرًا على القوري وتفقه عليه في «أحكام عبد الحق الصغرى» و «جامع الترمذي».

---

(١) أقصد بالمرينيين كل من ينتمي إليهم حتى الوطاسيين.

وأخذ عنه أكابر أهل عصره كالقسطلاني والحطاب الكبير وناصر الدين اللقاني والقطب الشعراني والعارف ابن الحسن البكري، وكان معاصرًا للحافظ[1] السيوطي، ولا ندري هل التقيا أم لا، ولما قدم مصر وفد إليه العلماء والفضلاء، وقالوا: إنه كان يحضر درسه بالأزهر زهاء ستة آلاف نفس، غير أن هذا كان بلا شك في غير قدمته التي قدم فيها مصر متصوفًا طالبًا شيخ التربية.

وكان سيدي أحمد زروق رضي الله تعالى عنه قد توغل في التصوف وصحب جماعة من المشايخ وسلك الطريق وتزهد وتنسك وسلك سبيل المجاهدة والرياضة وانقطع لخدمة العارف أبـي عبد الله سيدي محمد الزيتوني، ثم تركه لحادث حصل بينهما أدى إلى امتحان سيدي أحمد، انظره مبسوطًا في «دوحة الناشر» لابن عسكر وغيرها.

ثم هاجر مدينة فاس ودخل مصر فاتصل بالعارف سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي، وكان قد بشر بقدومه أصحابه قبل مجيئه، فقال لهم قوموا تلتقوا أخاكم، ولما اتصل بالشيخ أنزله بزاوية فضربه شيخه السابق الزيتوني من فاس ضربة هدمت عليه الزاوية وسلمه الله تعالى بواسطة شيخه الثاني الحضرمي، حيث إنه تلقى تلك الضربة حتى تكسرت يده وأراها لسيدي أحمد زروق مكسورة[2]. وبقي معه حتى فتح عليه آخر عمره وكان رضي الله تعالى عنه عالمًا محققًا ورعًا زاهدًا شديد النكير على البدع آية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقافًا عند حدود العلم وأحكام الشرع وآدابه حتى قيل فيه: إنه محتسب الصوفية.

له تآليف كثيرة ورسائل متعددة يميل فيها إلى الاختصار مع التحقيق والإفادة ولا سيما في التصوف وطريق السلوك، فله شرح على رسالة ابن أبـي زيد ــ مطبوع

---

(١) ولما توفي الحافظ ابن حجر كان لسيدي أحمد زروق من العمر نحو سبع سنين.

(٢) في «الدوحة» وغيرها: قال له شيخه: الحمد لله الذي عصمك الله منه يا أحمد هذه آخر عقوبة الزيتوني ولقد ضربك ضربة من أقصى الغرب فدفعتها عنك بيدي وها هي مكسورة من ضربته وأخرجها من تحته مكسورة . . . إلخ.

مع ابن ناجي في مجلدين ــ ، مهم جدًا، وشرح إرشاد ابن عسكر، وشرح مختصر خليل، وشرح الوغليسية والقرطبية وشرح الحكم العطائية. وله فيها أكثر من عشرين شرحًا طبع منها واحد وشرح حزبي البر والبحر للشاذلي وشرح نونية الششتري وله النصيحة الكافية والقواعد في التصوف مهم جدًا، طبع مرتين وكتاب عدة المريد وله غير ذلك. وبالجملة فهو من أفراد علماء الصوفية رضي الله تعالى عنهم.

من كلامه في السلوك وطريقته في سلوك ذلك:

ترجمه جماعة كثيرون وأطالوا في ترجمته ونقلوا عنه من ذلك قوله طفت مشارق الأرض ومغاربها في طلب الحق واستعملت جميع الأسباب المذكورة في معالجة النفس بقدر الإمكان في مرضاة الحق، فما طلبت قرب الحق بشيء إلاَّ كان مبعدي ولا عملت في معالجتها بشيء إلاَّ كان معينًا لها، ولا توجهت لإرضاء الخلق إلاَّ كان غير موف بالمقصود، ففزعت إلى اللجا إليه عزَّ وجلّ في الجميع فخرجت بفضل ذلك علة رؤية الأسباب ففزعت إلى الاستسلام فخرج لي منه رؤية وجودي وهو رأس العلل، فطرحت نفسي بين يدي الحق سبحانه طرحًا لا يصحبه حول ولا قوة فصح عندي أن السلامة من كل شيء بالتبري من كل شيء والغنية من كل شيء بالرجوع إلى الله في كل شيء اعتبارًا بالحكمة والقدرة وقيامًا مع الطباع بشواهد الانطباع ولما يرد منه تعالى أمرًا ونهيًا وخيرًا وقهرًا وعبودية لا تصحبها رؤية ورؤية لا يصحبها اعتماد واتساعًا لا يصحبه ضيق وضيقًا لا يصحبه اتساع متمثلاً في ذلك قول القائل:

قد كنت أحسب أن وصلك يشترى	بنفائس الأموال والأرباح
وظننت جهلاً أن حبك هين	تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من	تختاره بلطائف الأمناح
فعلمت أنك لا تنال بحيلة	فلويت رأسي تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام إقامتي	فيه غدوي دائمًا ورواحي

كلام له حول كتب القوم الصوفية:

قال في بعض شروحه للحكم كتب القوم تحتوي على أربعة أنواع: التذكير والوعظ وهو حظ العوام، وللخواص منه نصيب، ومواده من كتب ابن الجوزي وبعض تعاليق المحاسبي وشيء من كتب الإحياء والقوت وتحبير القشيري وما جرى مجراها. والكلام في الأحكام، أي: أحكام تصفية الأعمال وتصحيح الأحوال من واجب وسنّة ومندوب وآداب ظاهرًا وباطنًا وهو حق المتوجهين من كل فريق وبكل طريق، ومواده من كتب الغزالي والسهروردي ونحوهما. والكلام على الأحوال، أي: تحقيقها وتحقيق المقامات والأذواق والمنازلات، وهو نصيب المريدين وربما كان تنبيهًا أو تشويقًا لغيرهم، ومواده من كتب الحاتمي في المعاملات والبوني في المنازلات ونحوهما، وفي رسالة القشيري مواضع من ذلك، وفي الجميع مهاوي فاحذروها لصعوبة فهمها. والكلام على الحقائق، أي: المعارف والعلوم الإلـٰهية وهو نصيب العارفين المحققين وكتاب الحكم أي لابن عطاء الله؛ محتو على الأطراف الأربعة لا سيما الأخيرين منها، فهو جامع لما في كتب الصوفية المطولة والمختصرة مع زيادة البيان واختصار الألفاظ. اهـ. وقد قدمنا كلامه على بعض كتب القوم المحتوية على المقفلات والحقائق فراجعها مما سبق في ترجمتي الششتري والحاتمي.

كلامه على تصوُّف كل فرقة من الناس:

تعرض في قواعده على تصوف كل طائفة من طبقات المسلمين فأفاد وأجاد، فقال في (قاعدة ٥٩): تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان وحصول الحسن لكل مستحسن، فمن ثم كان لكل فريق طريق فللعامي تصوف حوته كتب المحاسبي ومن نحا نحوه. وللفقيه تصوف رامه ابن الحاج في مدخله وللمحدث تصوف حام حوله ابن العربي في سراجه وللعابد تصوف دار عليه الغزالي في منهاجه وللتمريض تصوف نبه عليه القشيري في رسالته وللناسك تصوف حواه القوت والإحياء،

وللحكيم تصوف أدخله الحاتمي في كتبه، وللمنطقي تصوف نحا إليه ابن سبعين في تآليفه. وللطبائعي تصوف جاء به البوني في أسراره، وللأصولي تصوف قام الشاذلي بتحقيقه. فليعتبر كل بأصله من محله. اهـ.

وهـذا تحقيق رائـق يدل على عـظمة هذا الـرجل وتضلعـه في العلـوم وغوصه على استخراج الحقـائق وتفوقه على غيـره في ذلك فهو بحق محتسب الصـوفية، كما قالوا عنه.

من شطحاته في التصوف:

ومما نسب إليه في نيل الابتهاج هذه الأبيات التالية:

قـد هجـرت الخلـق طـرا بـأسـرهـم ... لعلـي أرى محبـوب قلبـي بمقلتـي
وخلفـت أصحابـي وأهلي وجيرتـي ... ويتمـت نجلـي واعتـزلـت عشيـرتـي
ووجهـت وجهـي للـذي فطـر السمـاء ... وأعـرضـت عـن أفـلاكهـا المستنيـرة
وعلقـت قلبـي بـالمعـالـي تهممـا ... وكـوشفـت بـالتحقيـق عـن غيـر مـرية
وقلدت سيف العز في مجمع الوغا ... وصـرت إمـام الـوقـت صـاحـب رفعـة
وملكـت أرض الغـرب طـرا بـأسـرهـا ... وكـل بـلاد الشـرق فـي طـي قبضتـي
فملكنيهـا بعـض مـن كـان عـارفًـا ... وخلفنـي فيهـا بـأحسـن سيـرتـي
فـأرفـع قـدرًا ثـم أخفـض رتبـة ... لأرفـع مقـدارًا بـأرفـع حكمتـي
وأعـزل قـومًـا ثـم أولـى سـواهـم ... وأعلـى منـار البعـض فـوق المنصـة
وأجبـر مكسـورًا وأشهـر خـامـلاً ... وأرفـع مقـدارًا بـأرفـع همتـي
وأقهـر جبـارًا وأدحـض ظـالمًـا ... وأنصـر مظلـومًـا بسلطـان سطـوتـي
وألهمـت أسـرارًا وأعطيـت حكمـة ... وحـزت مقـامـات العـلا المستنيـرة
أنـا لمـريـدي جـامـع لشتـاتـه ... إذا مـا سطـا جـور الـزمـان بنكسـة
وإن كنـت فـي كـرب وضيـق ووحشـة ... فنـادي أيـا زروق آت بسـرعـة
فكـم كـربـة تجلـى بمكنـون عـزنـا ... وكـم طـرفـة تجنـي بـأفـراد صحبتـي

وهذه القصيدة تدل على أنه كان على قدم عظيم في التمكين والتصريف وهي تنادي منه على أنه كان من أكابر أهل الدوائر، وقد نقلوا عن شيخه الأول الزيتوني أنه قال فيه: إنه رأس السبعة الأبدال نفعنا الله تعالى به آمين، غير أن هذا لعله كان في أخريات أمره لما ذكره أبو العباس ابن عجيبة في شرح النونية، حيث قال: فقد كان شيخ شيوخنا سيدي علي العمراني رضي الله تعالى عنه يقول: ما فتح على الشيخ زروق إلاَّ في آخر عمره أي بحيث لم يؤلف شيئًا بعد الفتح. والله أعلم. قال: وكتبه شاهدة بذلك إذ الكلام وصف المتكلم ومن تكلم عرف من ساعته، فهو في علوم الطريقة إمام، وأما في علوم الحقيقة وأسرار الأذواق فلم ينل منها شيئًا إلاَّ في آخر عمره، كاد أن يخرج منها صفر اليدين، ولذلك كثر اعتراضه على أهل النسبة وظهر في كلامه التشديد والتضييق عليهم. ثم ذكر رؤيا رآها عليه فقال: وكان بعض مشايخنا من الفقهاء يقول: الشيخ زروق محتسب الصوفية. فعلق عليه ابن عجيبة بقوله: قلت إنما يكون محتسب صوفية أهل الظاهر وأهل العبادة الظاهرة والتنسك الظاهر، أما أهل التربية والسر الباطن فلا حسبة له عليهم، إذ لم يحظ علمًا بما عندهم. ولقد سمعت شيخ مشايخ التربية في زمانه مولاي العربـي الدرقاوي الحسني رضي الله تعالى عنه يقول: الشيخ زروق عند أهل الظاهر شيء كبير وعند أهل الباطن شيء صغير، لا يعرف الشوق إلاَّ من يكابده ولا العبادة إلاَّ من يعانيها. قال: ومراتب الأولياء كطبقات الجنان الأعلى يعرف الأسفل دون العكس. اهـ.

من كراماته:

في ترجمة العلاَّمة الزاهد ولي الله سيدي محمد المعروف بالحاج الشطيبي العارف السائح من دوحة الناشر لابن عسكر: قال فيه: وجال كثيرًا في البلاد الشرقية، ولما قدم من الشرق مر على ضريح سيدي أحمد زروق وحلف ألا ينصرف إلاَّ بإذن من الله تعالى، فأقام نحوًا من ثلاثة أعوام والشيخ يتراءى له في النوم ويأمره بالانصراف إلى المغرب، فلم يعمل على رؤية النوم حتى رآه في اليقظة وهو مع النبي ﷺ وقال له: يا محمد إن النبي ﷺ يأمرك بالانصراف إلى المغرب، وإلاَّ

فتسلب. فقال: نعم، فلما أراد الانصراف قال له سيدي أحمد زروق: تأخذنا وحشتك يا محمد. اهـ.

وفي دوحة الناشر أيضًا ما مضمنه أن ابن(1) غازي استدعى الشيخ وأصحابه ليتناولوا عنده طعام العشاء، فلما جاء الوقت قدم الشيخ وحده فسأله ابن غازي عن الجماعة وأخبره بأن الطعام كثير وسيفسد فأجابه الشيخ يصلح إن شاء الله تعالى ولا يفسد، ثم قال له هات ما عندك من الطعام فجعل يناوله قصعة بعد أخرى وهو يدفع ذلك لعوالم من الناس رآهم ابن غازي في براح واسع ولهم ضجيج وهم ما بين رجال ونساء وصبيان، فلما نفد الطعام قال له هل بقي من طعامك شيء، قال لا فسأله عن أولئك فقال له إنهم ضعفاء مدينة تونس مستهم الحاجة وذلك البراح هو صحن مسجد جامع الزيتونة، وقال له ابن غازي هذه من كرامات الأولياء، فقال له الشيخ أحمد الله الذي أراك إياها. توفي سيدي أحمد زروق رضي الله تعالى عنه بقرية مسراتة من ليبيا سنة ٨٩٩هـ، رحمه الله تعالى وإيانا رحمة واسعة وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.



(1) ابن غازي هو العلامة المتضلع الفقيه محمد بن أحمد العثماني المكناسي ثم الفاسي كان شيخ الجماعة في وقته بفاس له تاليف كثيرة في القراءات والحديث والفقه والعربية والحساب وغيرها. وكان فاضلاً حسن الأخلاق معظمًا عند الخاصة والعامة جاهد بنفسه مرارًا ورابط مرات كثيرة وخرج في آخر عمره للقصر الكبير للحراسة فمرض ورجع لفاس فاستمر به إلى أن توفي سنة ٩١٩هـ من شيوخه الإمام القوري ومن تلامذته الونشريسي.

مع آخر دولة الوطاسيين المرينيين وأوائل دولة السعديين

سيدي عبد الله الغزواني

(عالم صوفي)

وممن كان ظاهرًا ومشهورًا آخر أيام المرينيين وأوائل دولة الشرفاء السعديين سيدي عبد الله الغزواني العارف الكبير والقطب الشهير الوارث المحمدي ذو الأحوال السنية والكرامات الربانية.

كان والده ولي الله سيدي عجال من الشاوية، وسكن القصر الكبير وبه توفي ودفن، وكان سيدي عبد الله الغزواني تعلم القراءة وحفظ القرآن، ثم رحل لفاس لطلب العلم فسمع بالشيخ أبـي الحسن سيدي علي صالح[1] الأندلسي فذهب إلى زاويته في جماعة من الطلبة فلما أخذ الفقراء في الذكر دخل معهم فأدركه في باطنه أمر عظيم.

قال في «مرآة المحاسن» إنه كشف له فيه من العرش إلى الفرش، ويقال إنه غسل أيدي الفقراء بعد الطعام وشرب الماء الذي غسلوا فيه أيديهم، فلما نزل به ما نزل، جلس بين يدي شيخ أولائك الفقراء وهو الشيخ أبو الحسن علي صالح وقص عليه قصته وطلب منه أن يقبله مريدًا، فقال له الفقراء: يا سيدي اقبله، فقال لهم:

(١) أصله من غرناطة ودخل المغرب فأخذ عن سيدي عبد العزيز التباع بفاس وكانت له زاوية بوادي الزيتوني من عدوة الأندلس بفاس وصحبه خلق كثير أكثرهم أندلسيون وكان رجلاً صالحًا توفي في حياة شيخه ودفن بروضة الأنوار خارج باب الفتوح.

هذا عربي قوي بل أبعثه للشيخ، فبعثه لمراكش للشيخ أبي محمد عبد العزيز التباع فصحبه وخدمه، وكان من أمره ما هو مشهور.

وفي «الدوحة» و«الممتع» وغيرهما إنه لما اتصل بشيخه التباع[1] أمره برفع الحطب إلى الزاوية ورعاية الدواب، فبقي على ذلك مدة ثم استعمله على حياطة بستانه وخدمته فاستمر على ذلك إلى أن قال الشيخ يومًا لأصحابه قوموا بنا إلى بستان الغزواني، فانهبوا ما فيه فذهبوا إليه وهم مثون والشيخ خلفهم، فلما وصلوا إليه وجدوا البستان عتيدًا حصينًا لم يستطيعوا دخوله ولا تسوره فكلموه أن يفتح لهم الباب فامتنع حتى جاء الشيخ، فقال لهم ما منعكم من الدخول فقالوا لم نجد سبيلاً إليه. فقال مثل الغزواني من يحمي حماه ثم قال له اذهب فقد كمل حالك. ويقال إنه بقي في خدمة شيخه مع التجرد للعبادة عشر سنين ثم توجه إلى قبيلة بالهبط تسمى بني فزنكار فبنى بها زاوية فأقبل الناس إليه من كل جهة وضجت الأرض بصيته وشاعت كراماته وانتشر صيته وشد عدة رحلات للدعوة إلى الله تعالى في قبائل جبالة، وأسس فيها عدة زوايا من أشهرها زاوية سيدي عبد الله بقبيلة بني يدر الموجود أثرها حتى يومنا هذا، وقد قدمنا الإشارة إلى بعض هذا في ترجمة مولاي عبد السلام، وقد كون وأنجب شيوخًا عظامًا بهذه الديار وغيرها، من أشهرهم وأكبرهم سيدي يوسف التليدي وسيدي عبد الله الهبطي وسيدي عبد الوارث اليصلوتي وسيدي محمد الطالب[2].

---

(١) التباع هو أبو فارس سيدي عبد العزيز كان عالمًا عاملاً مربيًا شيخ عصره بلا منازع أخذ عن العارف سيدي محمد الجزولي وصحبه إلى أن توفي فأوصى به الشيخ الصغير فلازمه إلى أن أذن له بالذهاب لمراكش فانتشر صيته وعظمت جلالته وأخذ عنه الأكابر من المشايخ توفي بمراكش سنة ٩١٤هـ، ودفن قرب جامع ابن يوسف وهو مشهور وقد زرته مرارًا.

(٢) سيدي يوسف التليدي هو الولي الكبير صاحب الشأن العظيم والهمة العالية أحد الأفراد والمشايخ الهداة صاحب الزاوية المشهورة ببني تليد من قبيلة الأخماس أخذ عن الغزواني ومن أكبر تلامذته العارف الكبير سيدي علي الشلي السريفي توفي سنة ٩٥٠هـ، ودفن بزاويته وله أوقاف ودخل يصرف على الزوار وغيرهم إلى الآن وله موسم سنويًا.

وعندما ذاع صيته وكثرت أتباعه والآخذون عنه حسده الفقيه عبد الكبير البادسي، وكان يصحب الولاة فوشى به إلى سلطان الوقت أبي عبد الله محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي، فشد الرحلة سيدي عبد الله وأصحابه لزيارة مولاي بو سلهام فتعرض له العروسي قائد الوطاسي بالقصر الكبير، فألقى عليه القبض بأمر السلطان فأخذ لفاس مكبلاً في الحديد، ويقال إن السبب في ذلك ما ذكره غير واحد من أنه كان يصرح بأنه السلطان حتى أن السلطان مر بموضع فولولت عليه امرأة فقال لها الشيخ علي فلتزغرتي يا بنت الحزينة، إذ أنا سلطان الدنيا والآخرة.

وفي «الممتع» و «المرآة» أنه قال للفقراء إذا قيل لكم من زاهدكم فقولوا سيدي عبد الكريم الفلاح، وإذا قيل من عابدكم فقولوا سيدي علي بن إبراهيم، وإذا قيل لكم من مجذوبكم فقولوا سيدي محمد بن داود، وإذا قيل لكم من مائدتكم فقولوا سيدي رحال الكوش، وإذا قيل لكم من عالمكم فقولوا سيدي سعيد بن عبد المنعم، وإذا قيل من سلطانكم فقولوا سيدي عبد الله الغزواني. وكتب إليه الشيخ ناصر الدين اللقاني من مصر يسأله تفسير الفاتحة على طريق القوم، فكتب إليه بشيء من ذلك، فلما بلغه الجواب أعجب به فأعاد الكتابة إليه يشكره ويطريه وسأله عن القطب أين هو؟ فكتب إليه يشير إلى نفسه فلما بلغه الجواب، قال للحاضرين من أصحابه هذا

= أما سيدي عبد الله الهبطي فهو العلاّمة المتضلع العارف بالله الداعية الكبير ذو الأحوال والكرامات أصله من طنجة وهاجر جده للأخماس بعد احتلال البرتغال طنجة سنة ٨٤١هـ، وكان آية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أخذ عن الغزواني وكان مرافقًا للتليدي وله وقائع معه توفي سنة ٩٦٣هـ قرب شفشاون.

وأما سيدي عبد الوارث فهو الأخماسي العلاّمة الصوفي الناسك الزاهد أخذ عن الصغير السهلي وعن الغزواني وتوفي ببني دركول من الأخماس سنة ٩٧٠هـ.

وأما سيدي محمد الطالب فهو خليفة سيدي عبد الله الغزواني كانت له زاوية بفاس داخل باب الفتوح وبها دفن، وهي اليوم خراب في غاية الإهمال، يتغوط فيها السفهاء وكان سيدي محمد هذا عابدًا زاهدًا عارفًا محققًا يدعي رؤية الله بالبصيرة ويجعلها كرؤية البصر وكان يقول كحل عينك بذكر الله تسمع نبك أنا أنا. توفي سنة ٩٦٤هـ.

صاحب الوقت، فمن أراد لقاءه فليتوجه إليه. اهـ.

من كلامه ووصاياه:

وكان يقول: من خصص بتخصيص التوحيد شهد الله أنه لا إلـه إلاَّ هو، وكان يقول: يا فلان لا تنظر إلى لفظ ولا إلى معنى، ويقول: يا فقراء اختاروا الفقراء في الفقراء، ويقول لأصحابه محذرًا لهم من الدخول في الفضول حاضًّا على الاشتغال بما يعني الدنيا بسلاطينها والدنيا بحكامها والدنيا بقضاتها والدنيا بكذا يعدد أهل الخطط إلى أن يقول والدنيا بفقرائها يعني أهل الفضول وأنتم ها ويريهم السبحة لا إلـه إلاَّ الله محمد رسول الله ﷺ.

من كراماته:

وللشيخ خوارق وكرامات، منها أنه لمَّا كان في السجن بفاس عند الوطاسيين وكانوا قد وضعوا السلسلة في عنقه فكان ينزعها من عنقه ليلاً ويخرج من السجن ولا يدري السجناء أين يذهب فإذا جاء النهار دخل إلى موضعه ورد السلسلة في عنقه، فأخبر السلطان بذلك فأطلق سراحه واعتذر إليه وطلب منه الدعاء ورغب منه أن يسكن بفاس فأجابه إلى ذلك.

ومنها: أنه لما استولى السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشريف وأخوه محمد الشيخ على مراكش وحاصر مراكش الوطاسي البرتغالي وكان الشيخ بها ركب مع أصحابه وخرج على باب الشيخ أبـي العباس السبتي فوجدوا رماة السلطان المريني يرمون فوقف الشيخ يعتبر فجاءته رصاصة فوقعت في صدره فخرقت قشابة صوف كانت عليه ووقفت، ولم تصل إلى لحمه وصارت كأنها ضربة في صخرة صماء، ثم قبض عليها فقال لا إلـه إلاَّ الله، هذه خاتمة حربهم ثم رجع إلى البلد فجاء الخبر بأن أولاد عم الوطاسي المرينيين قاموا عليه بفاس فرجع قافلاً لحينه ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، بل استولى على ملكهم الشرفاء السعديون وكانوا أحسن حالاً من المرينيين.

فإن في عصر المرينيين احتل البرتغاليون كل سواحل المغرب وموانئه، وأصبح المغرب في هرج وفوضى وحروب متوالية، ولما جاء الأشراف السعديون حرروا المغرب من استعمار البرتغال الذي كان قد حكم المغرب مدة طويلة جدًا وكسروه وقضوا عليه بالمرة، وكانت نهاية ذلك هي غزوة وادي المخازن المشهورة التي كانت تشبه بغزوة بدر، وكانت سنة ست وثمانين وتسعمائة الموافق سنة ثمان وسبعين وخمس عشرة مائة ميلادية.

وكان سيدي عبد الله الغزواني عندما رحل من فاس قاصدًا مراكش، قال ارتحل الأمر عن بني مرين برحيلي عنهم، فكان ما كان مما سبق، ومن كرامته أنه لمَّا توفي الشيخ سيدي عبد العزيز التباع حار أصحابه في وارثه فانتدب سيدي عبد الكريم الفلاح خديم الشيخ لجمع أعيان الأصحاب فأخبرهم بأن الشيخ عهد إليه بأن الوارث فيهم لا يتعداهم فأقسم عليهم بأن من كان عنده شيء من ذلك فليظهره، فتكلم جماعة بما عندهم فقال سيدي رحال الكوش، أنا ركاب العرائس، من لم أركب عروسه لا تركب وأنا صاحب الإغاثة في البر والبحر، وقال سيدي علي بن إبراهيم وأنا عابدكم أصلي الليل وأصوم النهار، وقال سيدي سعيد بن عبد المنعم: وأنا عالمكم من احتاج إلى علم الظاهر أو الباطن فليأتني، فأنا صاحبه. وقال سيدي عبد الكريم الفلاح: وأنا مائدتكم من أحب الطعام فليأتني، حتى قال: كل واحد ما عنده، وسيدي عبد الله الغزواني ساكت فسألوه أن يتكلم، فقال لهم: وأنا سلطانكم وصاحب سِكَّتِكُم، عندي تضرب فمن طبعت درهمه أو ديناره جاز ومن لا فلا، فسكتوا استنكارًا لذلك فأخرج يده ومدها وقال الله ماذًا عليها وقبض بيده قبضة في الهواء وضم أصابعه فقال لهم ماذا تقولون وما عند كل واحد منكم فأنكروا قلوبهم ولم يجدوا فيها شيئًا مما كانوا يعهدوا وما كانوا يخبرون عنه، فعلموا أنه وارث الشيخ وأن قوله صحيح فأذعنوا له وخضعوا فمد يده ثانيًا وقال الله فرد عليهم أحوالهم وأمرهم بالانصراف فتفرقوا مجتمعين عليه، ثم إن سيدي رحالاً الكوش ظهر بمراكش فقال له سيدي عبد الله إما أن تتركها لي أو أتركها لك، وأما حنشان في غار فلا

يجتمعان. فقال له سيدي رحال أنا أخرج عنك فخرج لنواحي مراكش.

ومن كراماته أنه كان مرة مع أصحابه في زيارة فقال لهم إذا لقيتم قافلة عنب فخذوها فلقوها فأخذوها فجعل أهلها يصيحون ويستغيثون، وقالوا لهم إنها هدية لسيدي عبد الله الغزواني فقال لهم إنه الذي أمرنا بأخذها، وها هو ذاك. وكرامته كثيرة.

وعلى الجملة فقد كان من الأفراد ومحاسن رجال الطريق رضي الله تعالى عنه، توفي سنة ٩٣٥هـ بمراكش ودفن بالقصور، وبذلك يعرف إلى الآن فيقال له صاحب القصور.



سيدي علال الحاج البقال

وممن كان يعيش في القرن العاشر الهجري أيام الدولة السعدية العلاَّمة الإمام، القدوة الهمام، الشريف النسيب، ولي الله والعارف به والدال عليه، صاحب العظمة والمهابة، ذو الكرامات والخوارق والآيات سيدي علي الحاج البقال الأغصاوي. المعروف بسيدي علال الحاج. ينحدر نسبه الشريف من سيدي حمزة بن مولانا إدريس الأنور، دفين فاس بن مولانا إدريس الأكبر فاتح المغرب ومؤسس الدولة الإدريسية بن مولانا عبد الله الكامل بن مولانا الحسن المثنى بن مولانا الحسن السبط بن الإمام مولانا علي ومولاتنا فاطمة الزهراء بنت سيد العالمين عليهم جميعًا الصلاة والسلام.

كان سيدي علي الحاج عالمًا فقيهًا مشاركًا متقنًا أديبًا ذا فصاحة، له رحلة وسعة النطاق للديار الشرقية، قضى فيها نحوًا من ستة عشر عامًا، تجول خلالها في كثير من الأقطار الإسلامية وأخذ عن علمائها وتبرك بمشايخها، واستفاد منهم علومًا جمة وجاور بالحرمين الشريفين، وأخذ عن علمائها والطارئين عليها من الحجاج والزوار والمعتمرين، ثم رجع إلى بلاده بعلم غزير، ثم اتصل بالعارف سيدي عبد الله الهبطي الشفشاوني وأخذ عنه الطريقة الشاذلية، ثم أخذ عن العارف أبي عبد الله سيدي محمد الخروبي السفاقسي وعليه عول في التصوف. . .

ثم انقطع بقرية أسلافه الحرايق من قبيلة أغصاوة وجد واجتهد في العبادة، وشمر عن ساعد الجد واختلى بنفسه واعتزل الناس وأقبل على الله ولازم النسك والتبتل إلى الله وكان على أمر عظيم من الصيام والقيام، والتلاوة والذكر، ومراقبة الله

تعالى مع رياضة النفس وتهذيبها. . . حتى فتح عليه ولاحت له الأنوار وظهرت على يديه الخوارق، وانتشر صيته، وقصده الناس للأخذ عنه والاهتداء بهديه والتماس بركته، وكثر أتباعه ومريدوه، وأصبحت له مكانة بين الأوساط في الحواضر والبوادي، حتى كان لا يرد له أمر ولا نهي. . وزار مدينة فاس مرتين أيام السعديين، فخرج واليها الغالب إلى لقائه بظاهر المدينة، وهو محفوف بالجماهير من أصحابه. فقضى حوائج الناس على يديه ولم يرد له شفاعة ولا طلبًا، وما ذلك إلاَّ لما كان قد ألبسه الله تعالى عليه من الجلالة والهيبة.

ومن مكاشفاته أنه أخبر عن هذا الوالي بموته قبل ثلاثة أشهر فكان كما قال. . . وله أخبار يطول ذكرها.

وبيت هذا السيد بيت خير وبركة لا يكاد يَعْدِلَهَ بيت من تعدد الأولياء ما بين سالك ومجذوب في الكثير من حواضر المغرب وبواديه منذ أزمان كما قال الإمام سيدي محمد بن جعفر رحمه الله تعالى في «سلوة الأنفاس».

وقد أدركنا جماعة من مجاذيب هذا البيب نساءً ورجالاً ولنا إخوان وأصدقاء منهم، أثر الصلاح لايح عليهم.

وأكثر البقاليين بالمغرب منحدرون من هذا الرجل العظيم سيدي علال الحاج، فهو قطب دائرتهم، وجد من جاء منهم بعد القرن العاشر، ويوجد فيهم كل الطبقات، ففيهم العلماء، والخطباء والأئمة، والدكاترة، والأساتذة، والقضاة والمحاسبون، ورجال الأعمال، وكبار موظفي الدول، والأغنياء الأثرياء، والفقراء والدراويش. . .

توفي سيدي علال الحاج البقال رضي الله تعالى عنه بقرية أسلافه الحرايق بقبيلة أغصاوة عمالة شفشاون، سنة ٩٨١هـ، ودفن بزاويته العامرة التي يعقد عندها موسم له سنويًا يقيمه حفدته ويحضره أولاده وغيرهم من جميع أنحاء المغرب.

بعض حفدة الشيخ من المجاذيب:

ومن مشاهير حفدة سيدي علال الحاج من المجاذيب وأهل الخصوصية ما يلي:

فمنهم: ولده سيدي محمد الحاج الشهيد الذي قتله الشيخ السعدي المأمون بن أحمد المنصور الذهبي.

وكان السبب في ذلك أن الشيخ السعدي كان سلم مدينة العرائش للاسبان فأنكر عليه جماعة من العلماء منهم هذا الشريف فكاتبه في ذلك وأغلظ عليه فبعث إليه... فقتله شهيدًا وكان رجلاً عالمًا صالحًا مجذوبًا ذا أحوال صحب أبا الشتاء وبقي عنده مدة مسلسلاً ثم صحا وسلك وظهرت له كرامات واتخذ مريدين وأتباعًا.

قتل سنة ١٠١٨ بفاس ودفن بالسياج حيث ضريحه اليوم.

ومنهم: العارف المجذوب ولي الله المحبوب ذو الكرامات والآيات سيدي محمد الحاج بو عراقية دفين طنجة ولد بقبيلة بني حسان وقرأ بالأخماس ثم استوطن طنجة وبها توفي سنة ١١٣٠ وهو حفيد الشهيد قبله.

وله شهرة عظيمة في سائر أنحاء المغرب مقصود للزيارة لا يخلو ضريحه من الزوار، ويقام له موسم سنويًا من طرف حفدة أخيه سيدي الغزواني، وقد غلط من نسب البقاليين الطنجيين إلى سيدي محمد الحاج هذا وإنما هم حفدة أخيه... لأن سيدي محمد الحاج لا عقب له.

ومنهم: الولي الصالح المجذوب الهائم سيدي العربي البقالي من حفدة سيدي علال الحاج كان مقيمًا بفاس لقيه العارف الكبير مولاي العربي الدرقاوي وأثنى عليه في رسائله وذكر أنه لقيه مرة بفاس وضمه إلى صدره ووضع لسانه على فمه وقال له: مص مص مص، ثم قال له: سر أعطيناك الشرق والغرب. توفي بفاس ودفن مع سيدي محمد الشهيد.

ومنهم: البركة الصالح ذو الأحوال سيدي عبد الله الحاج التطواني كان صالحًا مقصودًا للزيارة والتبرك به والاستشارة معه وكان ذا أحوال كانت له وفرة شعر تبلغ إلى نصفه وهو من رجال القرن الثاني عشر وقبره في زاويته المنسوبة إليه في الغدان من مدينة تطوان.

ومنهم: العارف الكبير والولي الشهير سيدي محمد الهسكوري دفين الهساكرة من قبيلة بني يدير عمالة تطوان، كان ذا صلاح وبركة يحكى عنه خوارق وكرامات شوهدت له حتى بعد موته وكانت له زاوية لا زالت قائمة بقريته التي يسكنها حفدته توفي ظنًّا في النصف الأول من القرن الثالث عشر ودفن بقريته.

ويقام له موسم سنويًّا، وهو من حفدة سي أحمد بن عمر صاحب الزاوية المشهورة بشرق قبيلة بني يدير وكلاهما من حفدة سيدي علال الحاج المذكور رضي الله عنهم. فبيت البقاليين من البيوتات النادرة عندنا بالمغرب في كثرة المجاذيب والصالحين.



سيدي رضوان الجنوي

وممن كان يعيش أيام السعديين الإمام الشيخ الورع الصالح المحدث ورع أهل زمانه سيدي رضوان الجنوي. أصله من جنوى، وأسلم والده وهاجر لمغربنا وتزوج يهودية مسلمة فأنجبا هذا الرجل العظيم، فكان يقول خرجت من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، ويقال إن أباه رأى في منامه كأنه بال ياقوتة فعبرت رؤياه بأنه يلد ولدًا صالحًا.

ولد ونشأ بفاس حفظ القرآن الكريم وطلب العلم بفاس ومراكش وصحب العارف أبا محمد عبد الله الغزواني، ثم خليفته سيدي محمد الطالب، وأخذ بعدهما عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الشطيبي، رحل إليه لبني زروال وكان واسع العلم والمعرفة، وكان إذا ذكره يعظم أمره ويجل قدره، أخذ عن الإمام زروق وتوفي سنة ثلاث وستين وتسعمائة، وأخذ أيضًا عن الشيخ أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي نزيل الجزائر ودفينها المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة، ثم استقل بنفسه وانتهت إليه الرئاسة في تربية السالكين وتهذيب المريدين، وظهرت بركته وخيره على كثير ممن صحبه وأخذ عنه. ووصفه في «السلوة» بقوله الشيخ الإمام علم الأعلام حسنة الليالي والأيام حامل لواء المحبة والمراقبة والشهود والعيان القائم في مقاماتها بميزان القسط على ما عرف من أكابر هذا الشأن سراج العارفين وشمس المريدين محيي رسوم الطريقة الشاذلية بعد اندراس آثارها ومطلع شموسها الولي الصالح القدوة الحجة الناصح الورع الزاهد العالم العامل الوارث الكامل الموصل الواصل

المحدث الصوفي المتفق على علمه وصلاحه ودينه المجمع على ورعه وزهده ويقينه أبو النعيم وأبو الرضى سيدي رضوان بن عبد الله الجنوي، ثم الفاسي . . . إلخ.

وذكر مترجموه أنه كان إمام أهل الزهد والورع والعلم والعمل على سنن السلف الصالح حافظًا للحديث راوية له في وقته، شديد الخشوع والخشية، كثير البكاء حتى كان شيخه في العلم أبو محمد عبد الرحمن سقير يسميه برضوان البكاء، وكانت تصدر منه أحيانًا صيحة تكاد القلوب تنفطر من عظمها لغلبة الوجد عليه مراعيًا لأوقاته شديد الورع في تصرفاته وأحواله شديد الاتباع لأحكام الشرع وآداب السنَّة محافظًا على استعمال الأذكار والدعوات المختلفة باختلاف الأحوال، أوقاته عامرة بالذكر والصلاة والتلاوة والمطالعة شديد التحرز من الغيبة، لا يكاد يذكر غائبًا أو يذكر بحضرته إلَّا بما يقتضيه العلم، بعيدًا من الرخص منزويًا عن الدنيا زاهدًا فيها بريئًا من الدعوى، لا يدع أحدًا يقبل يده.

قال فيه أبو عبد الله القصار سيدي رضوان الرجل الصالح لو أدركه أبو نعيم لجعله صدر حليته أو قال مع أويس القرني.

وقال تلميذه العلاَّمة أبو العباس أحمد المرابي، ولقد وجدت بخط الولي الصالح الورع الزاهد سيدي أبي الحجاج يوسف الشريف ما نصه: كنت مرة بفاس أقرأ بالمدرسة فاشتقت أنا وبعض الفقراء زيارة الولي الصالح سيدي يوسف الذي كان بالحارة من باب الجيسة، فقصدناه والتقينا به، فكان مما قال لنا كيف تزورونا ولسنا أهلاً لذلك. لو تعلمون بالرجل الذي يظهر بعدنا لما كانت قلوبكم تطمئن إلاَّ به، فسألناه عنه فقال رضوان لو أقسم على الله لأبره. وقد أفرده بالترجمة تلميذه المذكور في كتاب سماه «تحفة الإخوان ومواهب الامتنان في مناقب سيدي رضوان». ومما قال فيه الأبيات التالية:

أكـرم بـه حـاز المعـالـي كلهـا	طـوبـى لعبـد قـد رأى بمقلتـه
قطـب الـزمـان وغـوثـه وإمـامـه	كهـف الأنـام وملجـأ لـرعيتـه
أقسمـت مـا شـاءت عيـونـي نظيـره	فـي النـاس لا بـل مـا رأيـت كطلعتـه

راقـت محـاسنـه وعـز قـرينـه	إن القلـوب تحبـه مـن صبـونـه
فـي وصفـه تعيـا القلـوب فكلـه	نـور علـى نـور يـرى فـي جلستـه
شيـخ التقـى بحـر النـدا علـم الهـدى	بـدر بـدا يسبـي العقـول بخلقتـه

توفي رضي الله تعالى عنه بفاس سنة إحدى وتسعين وتسعمائة، ودفن خارج باب الفتوح. ترجم في «الجذوة» وفي «درة الحجال» وفي «سلوة الأنفاس» وغيرها. وقد لخصنا منها ما أردنا والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

* * *

مع دولة الأشراف السعديين

سيدي عبد الرحمن المجذوب

(عارف كبير)

ومن مشاهير أولياء الدولة السعدية العارف الكبير صاحب الأحوال العجيبة والكرامات الغريبة آية الله الكبرى سيدي عبد الرحمن بن عياد بن يعقوب بن سلامة الصنهاجي الأصل، ثم الفرجي الدكالي المعروف بالمجذوب، كان مقر أسلافه بساحل بلد آزمور من دكالة، وهناك ولد ثم رحل والده مع العائلة إلى نواحي مكناس ثم سكن هو مكناس نفسها.

ولما أراد الله تعالى به الخير وإظهار كرامته عليه وخصوصيته لديه آوى إليه بعض الفقراء فاستضافوه فأضافهم وأكرم مثواهم، فرأى في منامه رجلاً ضربه فبقي عامًا مولها مصطلمًا يصيح الله الله ولا يدري من ضربه ولا أين هو، فبينما هو بباب القرويين إذا هو بسيدي علي الدوار الصنهاجي[1]، فأقبل عليه وأمسكه وحركه، ثم

---

(١) سيدي علي هذا كان من المجاذيب أرباب الأحوال له الكرامات العجيبة وكان شأنه عظيمًا دخل مرة لدار بفاس بسرعة ونساء الدار كاشفات عن أفخاذهن فوقف بصحن الدار وإذا بصبي قد سقط من السطح فتلقاه وقال لأمه لهذا دخلت.
ووقف مرة على باب دار وأخذ بجانبي بابها وجعل ينادي اخرجوا، اخرجوا فلما خرج كل من في الدار ذهب فسقطت الدار. وكان المرينيون يكرمونه ويحترمونه توفي بفاس في وسط المائة العاشرة.

دفعه دفعة فإذا به بالبرج الجديد بوادي فاس يمكنه من الخطوة وطي الأرض، ورأى في تلك الحال أن الشيخ سيدي عليًا رفعه من سرته بأصبعه وأهل الله مجتمعون وهو يقول لهم من أحبني فليعط هذا، ثم سار إلى بلده فجعل يلقى المشايخ من أهل الله ويعطونه كما رأى فلقي بمكناس سيدي أبا الروايين[1] وسيدي سعيدًا المشترائي، ويقال أنه به تماسك ورجع إلى وجوده وكان قبل مقتطعًا عن حسه يريق على نفسه ما يكون من مائع الطعام واستشاره مرة في المشي إلى الحج فقال له يا سيدي عبد الرحمن مكة عشاقة الذي تبغيه هي تزوره في داره، فجعل يقول أجاد ابن سعيد الحبيب أجاد ابن سعيد الحبيب.

ولقي القطب سيدي عمر الخطاب صاحب جبل زرهون، وهو عمدته في التربية وسلوك الطريق ووقعت له معه حكاية، وذلك أنه قال لأصحابه ممن كان ينسب إلى الجذب لا يبقى مجذوب إلاَّ المجذوب، وأمرهم بتغطية رؤوسهم فغلبت هذه التسمية عليه وحده دون باقيهم، وهذا الشيخ هو الذي أمره بسكنى القصر الكبير كما يأتي.

---

(١) أبو الروايين كان من أصحاب سيدي محمد بن عيسى الفهري العارف المشهور المتوفى بمكناس سنة تسعمائة ونيف وثلاثين وهو شيخ العيساويين.
وكان تلميذه أبو الروايين من المجاذيب أرباب الأحوال وعقلاء المجانين قال ابن عسكر في «دوحة الناشر» لما ألح السلطان الشيخ بالحصار على فاس جاءه الشيخ أبو الروايين وقال له اشتر مني فاسًا بخمسمائة دينار، فقال السلطان: ما أنزل الله بهذا من سلطان هذا شيء لم تأت به الشريعة فقال والله لا دخلتها هذه السنَة فبقي أشهرا والأمر لا يزداد إلاَّ شدة فقال ابن السلطان وهو الأمير أبو محمد عبد القادر لأبيه يا أبت افعل ما قال لنا الشيخ أبو الروايين فإنه رجل مبارك من أولياء الله تعالى ولم يزل به حتى أذن له في الكلام معه فكلمه الأمير عبد القادر، فقال له: ادفع المال فدفعه إليه، فقال له: عند تمام السنَة يقضي الله الحاجة وأمري بأمره سبحانه [يعني ما شاءه يقضيه الله له] ثم فرق المال من يومه ومن ذلك اليوم والسلطان في الظهور فدخل فاسا. اهـ. باختصار.
وكان قبل ظهور السعديين ينادي يا حران جيء فإني قد أعطيتك الغرب ولم يكن الناس يدرون ما مراده حتى ظهر أبو عبد الله الشيخ وكان أحد أولاده الذين يتقدمون الحرب ـ الحران ـ انظر ممتع الأسماع والاستقصا.

وهكذا كان يلتقي مع المشايخ ويرث ما عندهم، فأول من ورث سيدي علي الدوار ورثه أولاً هو وأخته في الشيخ السيدة آمنة بنت سيدي أحمد القاضي خديمة سيدي علي وضجيعته، دخل عليه قرب احتضاره فأعطاه خبزة وقال له إياك والنساء، فمشى فلقيته السيدة آمنة المذكورة فقالت له هات الخبزة فناولها إياها فأخذت ثلثها وأعطته الباقي فقال لها لولا ما قسمت بالعدل لخشيت على نفسك، ثم ماتت فورثها وقال الآن حصل لي إرث أبـي كاملاً وآخر من ورث سيدي عمر اللواح السريفي ورثه في آخر أمره بعد امتلائه، فكان يقول كل شيء قدرت عليه إلاَّ متاعك يا لواح، وكان يظهر أثر قوة ما نزل به من ذلك في جلده، ولما كمل حاله وانتهى أمره وصلح لانتفاع الخلق به أمره شيخه سيدي عمر الخطاب بالذهاب للقصر ليؤدي مهمته ويسلم رسالته وسره لصاحبها سيدي أبـي المحاسن يوسف الفاسي فبقي هناك معه مدة إلى أن كبر وطلب العلم وتزوج، ورباه وسلكه، ثم انتقل راجعًا إلى مقره الأول كما سيأتي في ترجمة أبـي المحاسن إن شاء الله تعالى.

قال في ممتع الأسماع كان الشيخ يعني المجذوب عظيم الحال باهر الخوارق، كثير الكرامات غزير المكاشفات، فكان كثيرًا ما يخبر بالشيء قبل أن يكون وكانت له الإغاثة في البر والبحر، والخطوة فلقد كان يقف كل سنة بعرفات وكان يجري في كلامه الأخبار عن اللوح المحفوظ ورؤية ما فيه.

قال وكان لا يكترث بالخلق في إقبالهم ولا في إدبارهم مجموعًا على مولاه لا يلتفت لغير ما به تولاه بل كان يعد إقبال الخلق عليه ليلاً وإدبارهم عنه نهارًا، يفر طول دهره من نفسه ومما سوى الله إلى الله قد صفا باطنه من شوائب الكدر واستوى عنده الذهب والمدر والمدح والذم والشدائد والنعم بل يعد نعمة الدنيا منعًا وبلاء الشدة عطاء ورخاء أعرض في بدايته عما سوى الله فحصل في نهايته من فضل الله ما لا يعلمه إلاَّ الله، وكان مردودًا عليه للشريعة مترسمًا برسمها مقيمًا لوظائفها سؤلا عنها متبعًا للسنَّة عاملاً بها، وكان من شأنه إذا كان في غمرات الحال وقبضة الوارد فسمع آذان المؤذن للصلاة قال هذا بريح السلطان، قد أتى، وقام إلى الصلاة وكأنما

كان عليه ثوب نزعه، وإذا حضر الوقت ولم يكن من يؤذن أذن بنفسه وكان يوصي أصحابه بعدم الاقتداء به فيما يخرج فيه عما يعرفونه من ظاهر الشريعة مما يجبره عليه وارد الحقيقة قال وكان يتسبب ويحرث ويتزوج ويلد ويعطي كل ذي حق حقه... وكان متواضعًا متأدبًا خصوصًا مع أهل الله مواظبًا على خدمتهم ... إلخ.

من كلامه وحِكَمه:

ولسيدي عبد الرحمن المجذوب كلام ملحون لا يخلو من فوائد وحكم، وقد جمعه بعضهم وشرحه وطبعه أخيرًا، وإلى القارىء بعض عيونه:

بسم الله نِبْدَأْ قَولِي ... بسم الكريمْ وبابُ الجَنَّة
وعَلَى الله نَفْنِي عُمْري ... والخَاتْما رسولُ الله
هذا وما دَلِّي لِدَا ... ما أحْلَى ذِكرِ المُمَجَّدْ
العاشْقِين وَلاَ رَاحَا ... صابُوا الدَّوا في مُحمدْ
إذا أذْكَرْتِكْ يَا لامْجَدْ ... نْصِيبْ رَاحَا في نَفْسِي
لولا حَبِيبِي مُحمدْ ... ما كانْ عَرْشْ ولا كُرسي
الحُبْ مِنكْ ما هُو لِي ... وأنتَ الحبيبْ إلِّي نِهْوَى
أيَا حْبِيبِي مُحمدْ ... رِيتْ حُبَّكْ فِيهِ دْوَا
الرْجالْ وقْفوا يا ربْ ... بِالبابْ ما عرْفوا غَيرَكْ
أيا حْبِيبِي مُحمدْ ... وما عَلِينا إلاَّ خيرَكْ
قَلْبِي مْوَلَّعْ مْزَلَّعْ ... مَجْذوبْ لَشْ تْلُومُونِي
أوَّه يا رَب مولايْ ... أهْلِ المَحَبّْ فَاتُونِي
مَجذوبْ محبوبْ مرغوبْ ... ساكَنْ في أرض العَلاَلِي
إلِّي قْضَى رَبْنا كانْ ... في الراسْ ما يمْتَحى لِي
مجذوبْ مَا أنَاشْ مجنونْ ... الأحوالْ هذي إلِّي بِيَا
نْظرتْ في اللوحْ المحفوظْ ... السَّابْقَا سِبْقَتْ لِيَا
إذا تَرَوْنَ مْزَهْرَة ... تْقُولُوا ما لِي ذخِيرا

كَيف الحِجَاب المُؤَلّف ... في مَنَافِع كْثِيرَا
نصعد عْلَى كُل كُرسِي ... نُورِي أَشْرق في المَواطِن
شرْقت عْلَى المغرب شَمْسِي ... ونْسِير سَيْر السَّلاَطِن
أقَازِين عِلم التوحيد ... هُنا البُحُورَ الّي تْغَبِّي
هَذا مْقام أهْل التجريد ... الواقفين مَع رَبِّي
أَقَارين علم الأوراق ... فِي قْلُوبكُم مَا يِتْمَر شِي
قُومُوا ذِكْرُوا رَبّي ... وِتْعَظّمُوا النَّبِي القرشِي
إذا هُو عِلم الأوراق ... حَدّ الحَلاَ وَاللّسَانِي
وإذا هُو سِرّ الأذواق ... أنَا سَاكِن فِي كِنَانِي
مِنّي فَقِير وشَاعِر ومدّاح ... ومَا أنا في ذا الحال بَادِي
عُشرِي وَيُمْنِي مْسرَح ... نخبط بْهَذِي وهَذِي
مَن شاهَد الكوْن بالكَوْن ... عَزّة فِي غمّي البصيرَا
ومَن شَاهَد الكَوْن بِالمُكَوّن ... صَادِف عْلاَج السّرِيرَا
غِيّبت نَظْرِي في نَظْرُو ... وفْنِيت عن كُل فَانِي
حَقّقْت مَا وْجَدت غَيْرُو ... وأمسيت فِي الحَال هَانِي
طْلَع النهار على قَلبِي ... حَتّى نْظَرت بْعَيْنيَا
أنت دَلِيلِي يا رَبِّي ... وأنت أوْلَى منِّي وْلِيَا
طْلع النهار على الأقمار ... ولاَ أبْقَى إلاّ رَبِّي
الناس زارت مُحمد ... وأنا سْكن لِي في قلبي
لاَ مْحَبّا إلاَّ بوصُول ... ولاَ وْصُول إلاّ عَالِي
لا تَحْسِبُوها رْخِيصا ... وَأكُل مَعْشُوق غالِي
ما تِنحِصد صَابَت الصَّيْف ... إلاّ بِبَرد الليالِي
أخفِر لِسِرّك وْذِكْرُو ... في الأرض سَبْعِين قامَا
وَخَل الخلائق يشكُو ... إلى يوم القيامَا

اشْقَـــالـــوا سَـــادَاتْنـــا العُلمَـــا   فـــي ذَا الكُتُـــبْ إلاَّ شَـــافُـــوا
مـــا هُـــو الشيـــخ إلاَّ حُـــرْمـــا   يَنْعَـــزْ بِـــهِ إلِ عَـــرْفُـــوا
شُـــقْ الجِبِـــل شَـــقْ مِنشَـــارْ   تَقْطَـــعْ وَلَـــوْ تكـــون حَـــافِـــي
جْلِـــسْ مـــعْ غيـــرْ الأخيـــارْ   تَـــرْذِلْ ولـــو تكـــونْ صَـــافِـــي

إلى آخر كلامه العجيب المملوء فوائد وحكمًا.

من كراماته:

ولسيدي عبد الرحمن خوارق ومؤيدات فمنها أن إنسانًا من أهل القصر كان يستهزىء به وكان يقول فيه المجذوم بالميم، فبينما هو ذات ليلة نائم إذا بالشيخ وقف عليه وبيده جعبة قصب فأدناها من وجهه ونفخ فيها أو نفث فطارت رشاشة منها على وجهه، فلما أصبح إذا آثار ذلك في وجهه جذاما، ثم انتشر ذلك في سائر جسمه، فجعلوا له خارج البلد بيتًا من قصب، فكان أهله إذ أتوه بمؤونته جعلوها في رأس قصبة طويلة ثم ناولوها إياه، وبقي على ذلك طريدًا فريدًا مهانًا إلى أن توفي بعد أن كان ذا رياسة وجاه وظهور، نسأل الله السلامة من معاداة أهل الله وإذايتهم.

ومنها أنه كان مرة في زيارة مع أصحابه، فمروا بقطيع من البقر فقال لهم خذوا ذلك النحل لعجل أراهم إياه فأخذوه وذبحوه واشتغلوا به، فبينما هم كذلك إذا بربته تبحث عنه وتذهب يمينًا وشمالاً حتى وصلت إليهم فسألتهم عنه وقالت لهم والله ما بـي إلاَّ أنه عندي لسيدي عبد الرحمن المجذوب. فقالوا لها إن صاحبه قد أخذه وأخبروها بالقصة.

ومنها أنه كان في أيام إقامته بمكناس وقف على قبر سيدي عمران بن موسى المجاور لـه هنـاك فأخـذ وتـدا ودقـه حيث قبـره الآن. وقـال هنا نعمر على سيدي عمران، فلما قرب أجله وكان بمصمودة أمر أصحابه بالسفر به إلى مكناس فحملوه فتوفي بالطريق، ولما أرادوا دفنه بمكناس وحفروا قبره وجدوا ذلك الوتد بحاله وكان ذلك عن غير قصد منهم ولا علم بالوتد حتى أخبروا بذلك. وأخباره في ذلك كثيرة،

توفي رضي الله تعالى عنه ليلة الجمعة من عيد الأضحى سنة ست وسبعين وتسعمائة ودفن خارج باب عيسى وهو اليوم في مقبرة محاط عليها بجدار مرتفع على يمين الداخل لضريح المولى إسماعيل العلوي رحمه الله. وقد زرناه مرات كثيرة رضي الله تعالى عنه.

ولما توفي جاء بعض المجاذيب إلى سيدي يوسف الفاسي بالقصر الكبير، فقال له إن شيخك قد توفي فقال له من أخبرك بذلك فقال له إنه كان يحضر بعرفة كل سنة وهذه السنة لم يحضرها، فسافر سيدي يوسف لحينه فوجد الأمر كذلك. وسيأتي بعض ما يتعلق بالموضوع في الترجمة التالية.

وصلَّى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.



مع الأشراف السعديين

سيدي يوسف الفاسي

(عالم وصوفي كبير)

وممن كان يعيش في هذا العصر سيدي يوسف بن محمد بن يوسف الفاسي، ثم القصري المعروف بأبـي المحاسن العلاَّمة الكبير والقطب الشهير العارف الواصل شيخ وقته وإمام عصره، كان أسلافه بالأندلس، فرحل جده إلى هذه العدوة وسكن القصر الكبير وولد صاحب الترجمة ليلة الخميس لتسع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين أو ثمان وثلاثين وتسعمائة بالقصر، وبه نشأ وحفظ القرآن وتعلم مبادىء العلوم، ثم رحل لفاس فواصل دراسته وحصل ما قدر الله له فرجع للقصر بعلوم غزيرة فاشتغل بالتدريس والإفادة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأقبل عليه الناس إقبالاً عظيمًا وحصل له صيت وجاه وظهور وتفرد بالرئاسة العلمية وبقي على حاله كذلك إلى أن انتقل لفاس وطنه الأخير ومرقده النهائي.

أخذ عن جماعة من العلماء والمشايخ كالشيخ أبـي زيد عبد الرحمن بن محمد الخباز القصري المتوفى سنة ٩٦٤هـ. قرأ عليه رسالة ابن أبـي زيد وألفية ابن مالك واللامية والصغرى للسنوسي والشيخ أبـي محمد عبد الوهاب بن محمد الزقاق المتوفى شهيدًا[١] سنة ٩٦١هـ. والشيخ أبـي زيد عبد الرحمن الدكالي المتوفى سنة ٩٦٢هـ، والشيخ أبـي عبد الله محمد بن أبـي الفضل خروف التونسي المتوفى سنة

(١) قتله أبو عبد الله الشيخ السعدي أمر بقطع رأسه بشاقور رحمه الله تعالى.

٩٦٦هـ، وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن التلمساني خطيب القرويين والأندلس بفاس مدة من ٢١ سنة المتوفى سنة ٩٨١هـ، لازمه كثيرًا وقرأ عليه التفسير والتوحيد والفقه وغير ذلك.

وأخذ الطريق أخذ تبرك وانتساب عن العارف سيدي محمد بن علي الهواري المعروف بالطالب، وعن العارف العلاَّمة سيدي عبد الله الهبطي. وعن العارف سيدي سعيد بن أبي بكر المشترائي. وعن العارف سيدي محمد بن مخلوف الضريسي. وعن العارف سيدي الحسن بن عيسى المصباحي. وعن والده أبي عبد الله سيدي محمد بن يوسف وغيرهم من أصحاب التباع والغزواني.

وعول في الطريق والإرادة والتربية والسلوك على أبي زيد سيدي عبد الرحمن المجذوب، فهو شيخه الوحيد الذي رباه وسلكه، فقد قيضه الله تعالى له وهو لا يزال في المكتب صغيرًا، فقد أتاه ووكل به وجعل يراقبه من صغره، وكان يذكر للناس ما سيئول إليه أمره، وكان يقول سبقت إليه قبل أن يأتيه غيري، وجاءه يومًا بالمكتب ومسح رأسه وقال له علمك الله علم الظاهر والباطن ثلاثًا، ثم التفت للمعلم وقال له لا بد نوارة هذا تفتح وإذا أحياك الله ترى، وكان قبل ذلك يأتي الحومة ويقول بدار الفاسي نوارة لا بد أن تفتح وكان يقول فيه: مصباح الأمة، ويقول إنه لا بد أن يكون في مقام الغزالي، ويقول لا يوجد مثله ولو فتش المفتش ما عسى أن يفتش، ويقول من أحب أن ينظر إلى قلبي فلينظر ابن الفاسي، وكان يقول أواخر أمره سيدي يوسف كنت أنا شيخه واليوم هو شيخي.

وكانت تربية سيدي عبد الرحمن المجذوب صعبة لا يطيقها أحد، ولم يصبر عليها غير سيدي يوسف، فكان يمتحنه بالأمور العظام فيقف ويثبته الله تعالى حتى أنه عندما تزوج جاءه وأجلسه في بيت الزفاف وهو مزين مفروش، فقال للحاضرين إيتوني بحطب فأتوه به فأوقد النار في ذلك البيت ليصطلى بها وكثر الدخان وغص الناس به وجعل ينظر إلى سيدي يوسف فلم يتغير لذلك فقال له سر معي فسار معه إلى أن وصل به بيته فتركه به فسلط عليه الحمى الباردة وكان غطاؤه برذعة كانت

هناك، فبقي على حالته كذلك أربعين يومًا، فلما أتمها أخرجه وقال له قم فاذهب إلى أهلك.

وكان سيدي يوسف قد شغف بشيخه وفني في محبته، وكان يخدمه بنفسه مع جاهه ورئاسته وكان لذلك يتعرض لاذايات بالغة من طرف الكثيرين من أهل العلم والطريق، وكانوا يلومونه على صحبته له، فكان يقول والله لو ضربتموني بسيوف النار ما رجعت عنه، ولما لم يرجع عن صحبته رفعوا به شكاية لعلماء فاس وشيوخه ليرغموه على مفارقة شيخه الذي أنكروا عليه بعض ما كان يصدر منه حالة غيبته، ولكنهم فشلوا فرجعوا خائبين وانتصر عليهم أبو المحاسن رضي الله تعالى عنه. وكما كان يخدمه بنفسه كذلك كان ينفق عليه ماله حتى افتقر وجاءه مرة بمفاتيح الدار وسلمها له وقال له بعها واصرفها في مصالحك فأمره بإمساكها، وقال له الدار دارنا إن احتجنا إليها أخذناها. ولما توفي الشيخ المجذوب وحصل لسيدي يوسف إرث شيخه فاضت عليه الأنوار وأشرقت عليه شمس الحقائق والمعارف، وفتح عليه الفتح الأكبر فانتقل لمدينة فاس سنة ٩٨٨هـ، وكان ذلك بإعلام من شيخه أيام حياته فأقبل عليه الناس ودخلوا في طريقه وكثرت الجموع لديه وتصدى للإرشاد والتربية.

من أوصافه وملابسه وأخلاقه:

كان سيدي يوسف جميل الصورة، معتدل القامة مهيبًا معظمًا محترمًا تلحظه العيون ويتسابق الناس للتبرك به والتسليم عليه، مقتصدًا في أموره بعيدًا عما فيه شدة كان يلبس قميصًا حسنًا وسراويل ويزيد في الصيف قميصًا لا أكمام له من ملف جيد أبيض وربما لبس تحته قنطانًا، ثم يشتمل على ذلك بكساء صوف رقيق، وكانت ثيابه إلى إنصاف ساقيه أو تحتها بيسير، فإذا سافر لبس[1] برنسًا أبيض، وكان إذا خرج

---

(١) قال أبو الوليد ابن رشد البرانس ثياب في شكل الغفائر عندنا مفتوحة من أمام تلبس على الثياب في البرد والمطر، وقال النووي: في كتاب الإيمان من شرح مسلم البرنس كل جبة لها رأس منها. وعلى هذا فالجلابية المغربية لباس عربي إسلامي شبيهة بالبرنس فما يقوله المتفرنجون بأنها من أصل لباس الرهبان هو قول باطل.

يتحرى مواضع الخلوة، وإذا خرج لصلاة الجمعة لا يصحبه إلاَّ رجل أو رجلان يجالس أصحابه ويتحدث معهم ويضحك مما يضحكون، جميل العشرة لين الجانب، حسن الأخلاق شديد الحرص على العمل بالسنَّة في كل شؤونه، محافظًا عليها، لا يتميز عن الناس في شيء، يعرف به في ظاهره مداومًا على أوراده وعبادته من لدن بدايته إلى نهايته، متوكلاً على الله، راضيًا بقضاء الله دائم العكوف على الحضرة الإلـٰهية محافظًا على الشريعة وآدابها، متحققًا بالعبودية متذللاً لربه، لا يجعل بينه وبين الأرض حائلاً في الصلاة إلاَّ ما كان ضروريًا، ويقول إن العبد حقيق أن يعفر وجهه في التراب بين يدي سيده، وقليل ذلك في حقه.

وكان كثير الصدقة رحيمًا بالضعفاء صبورًا شديد التحمل لأذاية الخلق، لا يقابل أحدًا أساء إليه بإساءة بل يعفو ويصفح ويكرمه، كان له كثير من الأعداء فكانوا يؤذونه بكثرة وهو يقابلهم بالإحسان والإغضاء والحلم والبشاشة، وكان بعيدًا عن رجال الدولة والحكومة، لا يحب ملاقاتهم ولا الاجتماع بهم، ويثقل عليه ذلك وربما فر منهم أو اختفى عنهم إذا رآهم حتى لا يقابلهم ويسلم عليهم، وذلك كله خوفًا منه على نفسه وقلبه من ظلمانيتهم.

وذكر ولده في «المرآة» من رسائله إلى العارف سيدي محمد الشرقي يعرفه بنفسه وحاله ومقامه، قال: كنت من صغري مستغرق الأوقات في تعلم علم الظاهر حتى حصلت منه ما يسر الله سبحانه وتعالى وحصل لي به في بلادي صيت عظيم وجاه في الخلق، ثم إن الله تعالى أخذني إليه وغسل من قلبي الأكوان، ولم تقف همتي على شيء دونه وحببني فيه ورفع همتي إليه وشغلني به عما سواه واستوى عندي منه العز والذل والفقر والغنى، وغير ذلك من الأضداد، فكل ما يفعله به أستحليه وأتلذذ به، وهذا كله على سبيل الاضطرار لا على سبيل الاختيار، ثم كنس وجودي أفناني عن شهودي لغيبتي في مشهدي تارة بكشف صفاته وتارة بمشاهدة آثار عظمة ذاته، واستولى على باطني أمر الحق تعالى، وتقدس حتى لم يبق هاجس ولا وسواس وكادت تستولي علي الغيبة عن الإحساس، ثم ردني للوجود وأبقاني به لبعض مصالح

عباده، فأنا مع الخلق بالحق نشاهد الجمع في بساط الفرق . . . إلخ.

ولما بلغ هذا الكلام لسيدي محمد الشرقي، قال: هذا صاحب الوقت وشيخ الطريقة ورأسي تحت قدميه.

أعماله في اليوم والليلة وأوراده وعباداته:

كان رضي الله تعالى عنه كثير قيام الليل والتهجد بالقرآن، فإذا طلع الفجر صلَّى ركعتي الفجر بمنزله وذكر بعض الأذكار كيا حي يا قيوم لا إله إلاَّ أنت أربعين[1] مرة ثم خرج فيتقدم للصف الأول فيقف خلف الإمام، وكان ولده أبو العباس أحمد هو الإمام الراتب، فإذا سلم جلس في مكانه حتى يفرغ من المعقبات ثم ترفع الأيدي للدعاء وتمسح الأوجه بها فإذا فرغ قام لصدر الزاوية فيجلس ويجتمع إليه الفقراء فيقرؤون الأحزاب المرتبة[2]، فإذا أسفر دخل منزله فأخذ المصحف وقرأ حزبه، وكان يختم في كل سبعة أيام، فإذا فرغ خرج إلى المسجد وجلس فيجتمع إليه أصحابه فيسلمون عليه ويجلسون معه فيتكلم معهم ساعة ثم يدخل منزله، فإذا حلت

---

(١) ذكر الحكيم الترمذي أنه رأى رب العزة ــ يعني في المنام ــ ألف مرة وفي كلها يقول يا رب إني أخاف زوال الإيمان فأمرني ربي جل جلاله أن أقول بين صلاتي الفجر والفريضة أربعين مرة، يا حي يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا الله لا إله إلاَّ أنت أسألك أن تحيي قلبي بنور معرفتك أبدًا سرمدا يا الله وقال الشيخ أبو عبد الله الكناني رأيت رسول الله ﷺ في المنام فقلت ادع الله أن لا يميت قلبي فقال قل كل يوم أربعين مرة يا حي يا قيوم لا إله إلاَّ أنت. نقله في مرآة المحاسن ص ٤٥.

(٢) الحزب هو الورد المعمول به تعبدًا ونحوه وهو في الاصطلاح مجموع أذكار وادعية وتوجهات وضعت للذكر والتذكير والتعوذ من الشر وطلب الخير واستنتاج المعارف وحصول العلم مع جمع القلب على الله سبحانه بذلك ولم تكن في الصدر الأول ولا من بعدهم بقريب لكن جرت على أيدي مشايخ الصوفية وصالحي الأمة لحكم التصريف والنظر السديد إشغالاً للبطالين وإعانة للمريدين وتقوية للمحبين وحرمة للمنتسبين وترقية لهمم المجتهدين من العباد والزهاد ذكره سيدي أحمد زروق في شرح حزب البحر للشاذلي وعنه نقله الفاسي في المرآة ص ٧٤، ٧٥.

النافلة صلَّى صلاة الإشراق، ثم الضحى وكان لا تجده في بيته إلاَّ مصليًا أو تاليًا أو ذاكرًا أو مطالعًا، وكان له جزء من التفسير يطالعه كل يوم أوائل النهار، وكان يعتني كثيرًا بتفسير ابن عطية وكان في كثير من السنين إذا دخل فصل الشتاء يأخذ في القرآن ختمة باللوح اعتناء بكتاب الله ومحبة فيه، وكان إذا صلَّى العصر جلس بالمسجد فيقرأ بين يديه ولده أبو العباس سيدي أحمد صحيح البخاري أو صحيح مسلم غالبًا، وربما قرأ قوت القلوب لأبي طالب المكي والأحياء لحجة الإسلام الغزالي.

هذا دأبه سائر السنَّة فإذا كان رمضان اقتصر على صحيح البخاري فيختم آخر الشهر، وكان يحضر هذا المجلس جماعة من الأعيان، وكان يستمر إلى قبيل المغرب، فإذا صلَّى المغرب تنفل بعدها ثم دخل داره فيتنفل ويذكر الله تعالى. وكانت له سبحة من عود العنب فيها سبعمائة حبة لا تفارقه ولا سيما في طرفي النهار إلى وقت نومه. قال ولده في المرآة والسبحة من شعار القوم، وقد كانت للجنيد وغيره ولها أصل في السنة، وقد ألف في ذلك شيخ الإسلام[1] السيوطي، قال فإذا صلَّى العشاء دخل منزله فيصلِّي عشر ركعات يقرأ فيهن أحزابًا من القرآن، ثم يصلي الشفع والوتر... ثم ينام جزءًا من الليل ثم يقوم لأوراده وتهجده وتلاوته. قال وكان أحيانًا يقرأ غدوة الشريشية[2] في آداب السلوك فيتكلم عليها ويحضر لذلك خلق كثير وكان له مجلس في كل يوم جمعة غدوة إلى الآذان الأول، كندوة بين أصحابه فتتوارد عليه الأسئلة ويجيب عنها أجوبة ممتعة فائقة، وكان يقول إنه ربما لم يكن عندي جواب سابق في المسألة فإذا سئلت عنها أرتسم جوابها في باطني أو قال أراه يكتب

(١) له المنحة في اتخاذ السبحة ذكر أدلتها ومن اتخذها من المشايخ والأكابر وفائدتها وهي في الحاوي في الفتاوى.

(٢) هي منظومة في طريق التصوف من إنشاء العلاَّمة العارف سيدي أحمد البكري المعروف بالشريشي ضمنها عوارف المعارف للسهروردي وشرحها العلاَّمة سيدي أحمد بن يوسف الفاسي رضي الله تعالى عن الجميع وهذا الشرح مطبوع وبها مشه النصرة النبوية.

فتحمل الإفادة لي وللسائل. قال: وقد تمت بين يديه قراءة عدة كتب صوفية كرسالة القشيري وعوارف المعارف لشهاب الدين السهروردي، ومنازل السائرين لشيخ الإسلام الهروي ومذاهب الصوفية لأبي النجيب السهروردي والحكم العطائية. قال وكان في أواخر أمره اقتصر على التفسير والحديث والتصوف . . . إلخ.

ومن رسائله العلمية:

وقد ذكر ولده في المرآة فصلاً خاصًا وضعه لذكر رسائل الشيخ وأجوبته وهي رسائل ممتعة لولا خوف الإطالة لنقلناها بأتمها، ولكننا نشير إلى بعضها تتميمًا للفائدة، فمن ذلك قوله بعد كلام وأرفع همتك إلى الله تعالى وأطرح ما سوى الله مع صدق التوجه إليه، وكن فيه إليه به ولا تكن بنفسك أو بشيء من عوالمك تكن مع غيره، فيفوتك عذب مؤانسته ولذيذ مناجاته، ومن فقد الله لم يجد شيئًا وإلاَّ فراقبه في سائر أحوالك وسرك وعلانيتك وأجر على قلبك، وإن لم تحرك به لسانك قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ تجد بركة ذلك إنشاء الله تعالى، ومنها أساس الإرادة خمول الذكر، وليس على المريد أضر من الشهرة إلاَّ أنه في البداية مقصود وفي النهاية ملحوظ فكيف يليق التعرض للمناصب والمراتب وفيهما شرف وظهور وهو مفسد للدين كما ورد، ولو ذكرنا لك ما نزل بنا واختبار الحق لنا بمثل ذلك لبهر عقلك فخلصنا الله سبحانه وأعاننا والحمد لله والآن أقول لك ألزم بيتك وخالف جنسك واجمع قلبك وما يحول بينك وبين قلبك اقطعه قبل أن يقطعك ولو كان فيه حتف نفسك واعلم أن البصيرة كالبصر أدنى شيء يغير النظر . . . إلخ.

ومنها: اعلم أن سر الطريق الوجهة لله عن صدق بما يرضى، ومن حيث يرضى مع جمع الهمة عليه ونسيان ما سواه وليكن الجمع في باطنك والفرق في ظاهرك، ولتكن في أمورك على وفق مراد الله وسلب اختيارك تكن عبدًا وأعبده لأنك له وبه لا أنه لك تكن راشدًا، ولتكن ملازمًا لذكر الله تعالى وأفضله لا إلـه إلاَّ الله هجيرًا

أبـي بكر لا إلـه إلاّ الله. ولا تزل تطالع كتب ابن عطاء الله وما شابهها لأنها أقرب للتعرف والجمع على الله، ودع ما سواها ككتب الشيخ الحاتمي والشيخ ابن الفارض لأنها تفسد عليك باب الفتح ولازم باب الله بكلك وبعضك، ودع ما سوى الله تجد الله ومن وجد الله ما فقد شيئًا، ومن فقد الله ما وجد شيئًا، كان الله ولا شيء معه فاتخذ الله صاحبًا ودع الناس جانبًا، لأن الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس، ولا سيما الرؤساء، ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ . . . الآية.

ومنها: اعلم أن المثابرة على الأذكار والدوام عليها تكسب نوارنية تحرق الأوصـاف وتثير وهـجًا وحرارة في الـطباع تخرج عـن حد الاعتدال إلى الانحراف، فـإن صحب الاعتقـاد وغلب سلـطانه كان جبـرًا محـضًا، وإن واخى الأحـوال كـان جمـعًا صـرفًا، وإن اقترن بالأعمـال رجحت حقيقتـه وإن حـاد أو مازج الأقوال صار اتحـادًا، فمـن ثـم أمر عنـد ذلك بالصـلاة على رسـول الله ﷺ لأنهـا كالمـاء تقـوي النفوس وتذهب وهج الطباع، ولهذا قال بعض[1] الشيوخ من لم يجد شيخًا مربيًا فليكثـر من الصلاة على رسـول الله ﷺ، وإنهـا لكذلك لمـا فيها مـن سر الاعتـدال الجامـع لكمـال العبـد وتكميلـه ففـي الصـلاة عـلى رسـول الله ﷺ ذكـر الله وليـس ذلـك عكسه، فلهـذا يحصل الانحـراف بالذكر دون الصـلاة والسلام فهو عجيب إلى آخر ذلك فلتراجـع في مرآة المحـاسن ففيهـا فوائد هـامة وخاصة فيمـا يتعلـق بالذكر والسلوك.

---

(١) نص على ذلك سيدي أحمد زروق والقطب الشعراني كما في العهود وكذا الصاوي في حاشيته عـلى الجلالين ومـولاي العربـي الدرقـاوي في رسائله وغيـرهم من المتقـدمين والمتأخـرين رضي الله تعالى عنهم.
وذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه في العهود المحمدية أن هذه كانت طريقة شيخه نور الدين الشوني فكان ورده كل يوم منها عشرة آلاف وكذا العارف أحمد الزواوي وكان ورده منها أربعين ألفًا وذكر له أن طريقتهم الإكثار من الصلاة على النبي ﷺ حتى يصير يجالسهم يقظة ويصحبونه مثل الصحابة ويسألونه عن أمور دينهم . . . إلخ. وذكر مثله أيضًا في لطائف المنن والأخلاق.

من كراماته:

وكان لسيدي يوسف الفاسي كرامات وخوارق كثيرة. فمن ذلك أنه كان مرة في زيارة مولاي أبي سلهام فمر على موضع في جماعة كثيرة من أهل فاس والقصر وقبائل العرب، وكانوا يتسابقون بالخيل فتصادم رجل من أهل القصر بشجرة فأصابت مرفقه فزاغ عظم ذراعه عن عظم عضده فسقط مغشيًا للأرض، فجيء به إلى الشيخ فوضع بين يديه كالميت فمسح الموضع وتفل عليه فقام من حينه كأن لم يكن به شيء، ومنها أن رجلاً كان من جيرانه بفاس وكان له ولد صغير مقعد لا يقوم فجاء به يومًا للشيخ والفقراء يقرؤون حزب الغداة، أجلسه لجنب الشيخ وجعل يبكي ويطلب من الشيخ بركته، فبعد مدة قال له قم معافى بإذن الله تعالى فقام من حينه ومشى مع أبيه على قدميه.

ومنها أنه كان في بعض زياراته مع خلق كثير فأمر تلميذه المجذوب سيدي إبراهيم الصيادي ليلة أن ينادي في أصحابه من معه دابة فليتركها هذه الليلة فإنه لا يصيبها مكروه ففعلوا إلاَّ رجلاً قيد دابته بقيد حديد ففقدت دابته من بين سائر الدواب، فجاء إلى المجذوب صباحًا فشكى له ذلك، فقال له ألم تسمع النداء فقال بلى فقال له المفرط أولى بالخسارة، ثم قال له إن الشيخ منذ خروجه والجن تطلب منه حرس البهائم وهو يجيبهم بأنه غني عن ذلك إلى أن رأى حرصهم على الخير، وقال لا يحرمهم من الخير فأعطاهم هذه الليلة . . . إلخ.

ومنها: أن نهر القصر المعروف بلوكوس جاء مرة بسيل عظيم وفاض على المدينة كعادته وجعلوا يرحلون فاستغاثوا به فقام الشيخ إلى أن وصل إلى المواضع التي وصل إليها الماء وهو في حال الزيادة فركز عصاه وقال إن كنت مأمورًا فأنا مأمور، فما زاد فانتقص الماء وأخذ في الرجوع.

ومنها: أنهم كانوا مرة في زيارة بعض الأولياء فوصلوا لدكالة فخرج عليهم جماعة من اللصوص، فلما دنوا منهم عموا عنهم فلم يبق إلاَّ فرس الشيخ وكانت أنثى، فانقلبت صخرة فجعل اللصوص يتساءلون فيقول بعضهم ها هنا كانوا عند هذه

الصخرة، ثم ذهبوا. وكراماته كثيرة وقد استوعب كل ذلك نجله في مرآة المحاسن فارجع إليها.

توفي أبو المحاسن رضي الله تعالى عنه ليلة الأحد ١٨ ربيع الأول سنة ١٠١٣هـ، ودفن بمقبرة باب الفتوح من فاس، وضريحه معروف وقبله على يمين الداخل إليه أخوه العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي وبجنب بنايتهما غربًا قبة ضريح العارف سيدي أحمد بن عبد الله وسيدي قاسم الخصاصي الأول قبالة الصاعد الداخل، والثاني يمينه غربًا رضي الله تعالى عن الجميع، ونفعنا بمحبتهم وزيارتهم آمين وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه.



سيدي محمد بن عبد الله معن الأندلسي

ومن أكابر أصحاب العارف سيدي يوسف الفاسي الشيخ الإمام الولي الكبير العارف الكامل المحقق الواصل المتمكن الراسخ الوارث الرباني، أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن عبد الله بن معن الأندلسي المعروف بمعن وبابن عبد الله، وهو من ذرية يعقوب المنصور الموحدي، وقيل أنهم شرفاء والله أعلم.

ولد صاحب الترجمة تقريبًا سنة ثمان وأربعين وتسعمائة، وحفظ القرآن الكريم، وجوده على جماعة منهم سيدي الحسن بن محمد الدراوي، ثم طلب العلم مدة حصل فيها النصيب الأوفر منه، ثم اشتغل بالتكسب وحببت إليه العبادة. ولما بلغ من العمر نحو الثلاثين جمعه الله بأبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي فسلم له الإرادة وألقى إليه قيادة، وانتفع به انتفاعًا قويًا، ولما توفي صحب العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي فبقي في صحبته ثلاثًا وعشرين سنة وهو عمدته، وبه تهذب وتكمل وكان يخدمه بنفسه، وكان سيدي عبد الرحمن يجله ويقدره ويقول فيه إنه من أرباب القلوب، وإنه لا يوجد مثله في الشرق ولا في الغرب، وإنه ليس تحت قرص السماء مثله، وكان يقول فيه أيضًا إنه كالشوكة في الطين يعني أنه من أساء إليه تصيبه سهامه كما تصيب الشوكة في الطين واطئها ولا علم له بها.

ولما توفي العارف الفاسي لزم المترجم له داره ولم يؤذن له في الانتصاب للإرشاد والدلالة على الله فزار مرة القطب مولانا عبد السلام رضي الله تعالى عنه، فوقع له إذن هنالك كما أخبر به عن نفسه، فلما رجع جلس في زاوية شيخه سيدي يوسف، وكانت سكناه بالمخفية فأتاه الناس من كل جهة، وقال لهم اركبوا هذه الرقبة فقد هددت بالسلب إن لم أخرج إليكم وتغرغرت عيناه بالدموع وتصدى حينئذٍ للإرشاد

وتربية المريدين، وكانت الجن تحضر عنده وتخدمه، وكان يقول أول من يخدم المخصوص الجن، لأنه أكيس من الآدمي وبقي في زاوية شيخه نحو الستة أشهر، ثم بنى زاويته التي بأعلى المخفية سنة ثمان وثلاثين وألف، فانتقل إليها.

وكان رضي الله تعالى عنه قوي الظاهر والباطن عارفًا راسخًا، يضرب به المثل في اتباع السنَّة وإحيائها مواظبًا على الأوراد والتلاوة ويحض على ذكر الله كثيرًا ويعيِّن: لا إلـه إلاَّ الله والصلاة على النبـي والاستغفار. وكان يقول ينبغي الإكثار من الاستغفار ولا سيما في هذا الزمان، لكثرة الخطايا والفتن، ويحض على الإكثار من لا إلـه إلاَّ الله بلا عدد، وعلى الورد من الصلاة على رسول الله نحو خمسمائة، وكان ينهى عن ذكر الأسماء لتحصيل الدنيا، لأن ذلك يعود على صاحبه بالخسارة، وكان معظم نصيحته ووصيته النهي عن مخالطة الخلق عمومًا، ومتفقرة الزمان خصوصًا لقلة الصادقين الناصحين، كما ينهى عن مخالطة أبناء الدنيا والرؤساء، وكان يقول الذي يخالطنا إن لم يحصل له شيء من إرث الحقيقة حصل له صلاح دينه وزوال الغرة منه، وكانت له مؤيدات وخوارق. سأله يومًا بعض أصحابه قائلاً: يا سيدي هل رأيت النبـي ﷺ، فقال له: نعم رأيته ومسح بيده الشريفة على وجهي، ولذلك كان كل من رآني أحبني.

وقال مرة للعارف الفاسي: إن النبـي ﷺ لا يغيب عني فقال له: ما الذي تشاهد روحانيته أو جثمانه؟ فقال: روحانيته. فسكت عنه ثم بعد أيام سأله هل ذلك باق، فقال له: نعم يا سيدي الصفة لا تفارق الموصوف، فسر بذلك وظهر البشر على وجهه وكان يخبر عن ثمار الجنة وأحوالها كالمعاين لها فيتكلم في ذلك بما لم يسمع وأحواله وأخباره واسعة.

توفي رضي الله تعالى عنه سنة إثنتين وستين وألف. ودفن بالقباب قريبًا من قبة سيدي يوسف الفاسي عن يمينها غربًا.

ووارث سره هو ولده سيدي أحمد بن عبد الله الذي وُضِعَ فيه كتاب «المقصد الأحمد في التعريف بسيدنا ابن عبد الله أحمد» للعلاَّمة الفاضل الشريف عبد السلام القادري. والله أعلم.



سيدي أبو بكر الدلائي

وفي أواخر الدولة السعدية ظهر في غرب جنوب مغربنا علم من أعلام هذا القطر العزيز وإمام من أئمته وقائد من قاداته ذلكم هو الشيخ العارف آية الله الكبرى، ملجأ القاصدين وساقي الواردين، سيدي أبو بكر بن محمد بن سعيد الدلائي المجاطي الصنهاجي الحميري. أصل أسلافه من صنهاجة ثم لمتونة وسكنوا قديمًا ملوية وولد صاحب الترجمة سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة ببلاده، ولما شب اجتمع بالعارف الكبير الشيخ أبي عمر القسطلي المتوفى بمراكش سنة ٩٧٤هـ. فألبسه قلنسوته فلم تسع رأسه فجعل الشيخ يدخلها بكلفة، قال: ففتح علي عند ذلك بأمر عظيم من الملك والملكوت، وعالم الملائكة، ثم الغيبة عن ذلك كله. وبقي في صحبته ويتردد إلى زيارته إلى أن توفي، وكان في حياة شيخه إذا مر بتادلا ببلاد سيدي محمد الشرقي، أحس بنقص في نفسه فألهم أن ذلك من قبل الشيخ فجعل يتجنب طريقه، وكان سيدي محمد الشرقي قويًا ذا عناية يغار أن يظهر معه أحد ثم زاره مرة في رفقة من إخوانه فأقبل عليه سيدي محمد الشرقي ورحب به ودعا له بخير وقال له اذهب يا ولدي فإن جميع الأولياء كسرت سواقيهم إليك.

ولما توفي شيخه وجد النقص في حاله وفقد ما كان يعهده من نفسه، فلم تقله أرض ولم تظله سماء، وهام على وجهه في البرية مع الوحوش والسباع، وأقبل على تلاوة القرآن الكريم، فقرأ ختمات كثيرة فلم يرجع له حاله ثم أقبل على ذكر لا إله إلاَّ الله، فلم ينجبر ثم اشتغل بالصلاة على النبي ﷺ فعاد إليه حاله، ثم استقل بنفسه

وأسس زاويته المشهورة في التاريخ بالزاوية الدلائية جعلها مقر دعوة ومنطلق إشعاع توجيهاته وإرشاداته. قال في مرآة المحاسن هو من أكابر مشايخ المسلمين وأولياء الله المقربين واحد عصره ونسيج وحده مترسم بالشريعة متحقق بالحقيقة، بحر جود لا ساحل له يعطي عطاء من لا يخاف الفقر. . . أقام الله به رسم الجود، وأفاض به نعمته على الوجود، يكل اللسان والقلم عن استيفاء فضائله التي هي أشهر من نار على علم، وحسبك أن المغرب لما تداعت قواعده وانهدت أركان الملك به فاختل النظام وهاج الناس. كان موئلاً لأهل العلم والدين وموردًا للضعفاء والمساكين فاعتصم الإسلام بربوة منه ذات قرار مكين فهو الذي أمسك رمقه . . . إلخ.

وفي ممتع الأسماع وحدث عنه بعض حفدة الشيخ أبـي المحاسن الفاسي أنه سمعه يقول إن أهل الله أشاروا عليه باتخاذ الزاوية لإطعام الطعام، فأرسل إلى الشيخ أبـي المحاسن ينظر ما يقول في ذلك فبعث إليه أبو المحاسن ببرمة وكسكاس موافقة منه على ذلك قال وكان مراعيًا للشريعة محافظًا على السنَّة جاريًا عليها بحاثًا عن العلم، حاضًا على تعلمه وتعليمه تاليًا للقرآن، كثير الذكر والصلاة على النبـي ﷺ، زاهدًا في الدنيا غير ملتفت إليها ولا ناظرًا إلى زهرتها ولا مغتر بزخرفها ولا مفتون بزينتها، وكل ما يفتح عليه به منها يصرفه في مصارفه في الحين على الفقراء والمساكين والعلماء والشرفاء وغيرهم، ولا يتلبس من ذلك بجليل ولا حقير وكانت الرحمة والحنان على جمع المؤمنين وصفًا غالبًا عليه بما يسرهم ويغتم ويهتم بما يؤلمهم ويضرهم.

وبركاته كثيرة وكراماته ومكاشفاته شهيرة أذكر منها أنه كان يومًا جالسًا فجاءه إنسان يسأله كسوة وعليه ثياب خلقة ممزقة، فقال: لإنسان عنده قم يا فلان فاذهب به وفتش ما عليه ففتشه فوجد في درابيله عددًا كبيرًا من الدنانير، فأتى بها الشيخ، فقال له اشتر له منها كسوة ففعل وأتاه بها فأعطاه إياها وناوله ماله، وقال له: هكذا ينبغي للرجل أن يكسو نفسه ولا يكون لأحد عليه جميل، قال: ومن كلامه في تقبيل اليد من مد يده إلى التقبيل وهي يده فحقها القطع، ومن منعها من التقبيل وهي يد الله فحقها القطع. اهـ.

وقد نقل صاحب نشر المثاني عن حفيد المترجم العلاَّمة أبي عبد الله المسناوي كرامات للشيخ وهذه بعضها:

فمنها: أنه كان يفهم منطق الطير وغيرها من الحيوانات العجماء وقد مر يومًا بشاة وهي تغير وتصيح فقال لمن معه أتدري ما قالت تلك الشاة في صياحها، فقال: لا، فقال: إنها قالت لولدها أسرع لئلاً يأكلك الذئب فقد أكل أخاك في ذلك الموضع في السنة الماضية فسئل الراعي عن ذلك فأخبر بأن الأمر كذلك.

ولما قربت وفاته جعلت الدجاج تتوجه إليه وتحدق به وتصوت عنده فقال له بعض بناته: ما هذا، فقال: هذه نوائح أبيك.

ومنها: إخباره بقرب أجله فكان يقول قبيل وفاته: بلغ وقت محمد يعني ولده، ويقول: محمد أراد أن أتخلى له من الطريق.

ومنها: إشارته لولاية[1] حفيده سيدي محمد الحاج، وذلك أنه احتاج يومًا إلى فرس ليركبه فجيء له بفرس الحفيد المذكور، فقال: لا أركب فرس المخزني وذكر أشياء فارجع إليه. توفي رضي الله تعالى عنه سنة إحدى وعشرين وألف بزاويته بالدلاء وبها دفن.

وكانت زاويتهم بعد هذا الشيخ مشهورة بنشر العلوم الإسلامية، وخاصة أيام العارف سيدي محمد بن أبي بكر، وقد تخرج منها كبار العلماء كالإمام أبي الحسن اليوسي والإمام المسناوي وغيرهما، وكان يتردد إليها وإلى الاستفادة من رجالها أكابر أئمة المغرب كأبي العباس المقري وأبي العباس بن أبي المحاسن الفاسي والإمام عبد الواحد بن عاشر والعلاَّمة الشيخ ميارة وغيرهم، وهكذا بقيت الزاوية إلى أن قام حفيد الشيخ الحاج محمد على السعديين واستولى على مناطق من جنوب المغرب وشرقيه، وقويت شوكته وضعف السلطان محمد الشيخ بن زيدان السعدي، وذهب ملكه، ثم قام الأشراف السجلماسيون لأسباب اقتضت ذلك حتى ملكوا

(١) لأنه قام فيها بعد على الدولة السعدية.

الصحراء، ثم كان آخر الأمر أن حصلت بينهم وبين الدلائيين حروب ومعارك، وكان أول من قام المولى محمد بن الشريف إلى أن سقطت الزاوية الدلائية وانتهى أمرها على يد المولى الرشيد فخربها ونقل أهلها لمدينة فاس والأمر لله وحده. وكانت نهاية سقوط الزاوية المذكورة سنة ثمان وسبعين وألف.



مع آخر دولة السعديين وأوائل الدولة العلوية

مولاي عبد الله الشريف الوزاني

(عالم صوفي)

مولاي عبد الله هذا هو القطب الهمام قبلة الصلاح القدوة الطاهر والشريف الزكي الزاهد أبو محمد مولاي عبد الله الشريف بن إبراهيم بن موسى بن الحسن بن موسى بن إبراهيم بن عمر بن أحمد بن عبد الجبار بن محمد بن سيدي يملح بن سيدي مشيش والد القطب مولاي عبد السلام. فهو من الشرفاء العلميين يتصل نسبه بعم مولانا عبد السلام سيدي يملح. ولد رضي الله تعالى عنه بجبل العلم بتازروت من قبيلة بني عروس على نحو من عشرة كيلو من ضريح مولاي عبد السلام لجهة الجنوب، وهناك نشأ ثم استوطن مدينة وزان من قبيلة مصمودة، وكان في حال طفولته يتردد لزيارة خالة له بجبل العلم كانت زوجة للولي الصالح العارف سيدي الحسن بن ريسون رضي الله تعالى عنه، فكان ينوه بأمره ويخبر خالته بعلي قدره ومكانته ويقول لها سيكون من أمره كذا وكذا.

ولما شب جعل يبحث عمن يأخذ بيده فكان كلما سمع بشيخ يشار إليه بالصلاح قصده. فكانوا يدلونه على العارف الكامل والولي الواصل سيدي علي بن أحمد الصرصري، فلم يزل جادًا في طلبه إلى أن اجتمع به فلقنه الورد الجزولي الشاذلي، ثم قبضه عنده في جبل صرصر وجعله في بستان يشتغل فيه ويقوم بما يصلحه من نقشه وسقيه وتعبيد سواقيه، وبقي على ذلك مدة، ثم أرسله إلى تطوان

بقصد طلب العلم فدخلها وأخذ عن كبار علمائها ونبغائها وقته، ثم رحل لفاس فواصل دراسته وأتم قراءته وكان أيام قراءته كثير الخلوة والعزلة عن الناس، منقبضًا عنهم بعيدًا عن مجامعهم.

ولما توفي شيخه وذلك سنة ١٠٢٧ نزل قرية شكرة من قبيلة مصمودة واعتزل الناس ودخل الخلوة وبقي فيها يعبد الله تعالى نحوًا من أربعة عشر شهرًا لا يلقى أحدًا غير رجل من أصحابه يقال له سيدي عبد الكبير اعلوات، فإنه كان يأتيه بما يحتاجه، وكان يقول هذا الصاحب ما دخلت على سيدي عبد الله في أيام خلوته ليلاً أو نهارًا إلاّ وجدته قائمًا على قدميه يقول اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلّم ولا يفتر عن ذلك إلاّ إذا كان متلبسًا بالصلاة وكان ورده منها عشرات الألوف ولم يخرج من الخلوة حتى أذن له رسول الله ﷺ في الخروج للدعوة والإرشاد خمسًا وثلاثين مرة، فلما خرج أقبل عليه الناس واحتف حوله جموع لا يحصون حتى أنه أطعم مرة ليلة واحدة أربعة عشر ألفًا من الزوار. ثم انتقل لوزان وسكن دار مولاي بوسلهام إلى انتقاله وكان رضي الله تعالى عنه منقطع النظير في الزهد والورع والإعراض عن الحياة والإقبال على الله تعالى.

وكان يعيش في وقت كانت الفتن فيه كنزول المطر من السماء حروب طاحنة متوالية بين السعديين والعلويين وبين المسلمين والإسبانيين والإنجليزيين وثوار متلصصون هدفهم الإفساد في الأرض ونهب الأموال يضاف إلى ذلك ما كانوا يصابون به من نكبات الحياة كضيق في المعيشة وارتفاع في الأسعار وجدب وقحط وزلازل وهزات.

في هذا العصر كان يعيش مولاي عبد الله الشريف وكان يعيش معه فيه العارف سيدي عبد الرحمن الفاسي، المتوفى سنة ١٠٣٦هـ. والعارف سيدي رحال الكوش، المتوفى سنة ١٠٥٠هـ. والعارف العلاّمة سيدي العربي بن سيدي يوسف الفاسي صاحب «مرآة المحاسن»، المتوفى سنة ١٠٥٢هـ. والشيخ العلاّمة ميارة الفاسي، المتوفى سنة ١٠٨٢هـ. والعارف بالله سيدي قاسم الخصاصي، المتوفى

سنة ١٠٧٣هـ، والعارف بالله سيدي محمد بن ناصر الدرعي، المتوفى سنة ١٠٧٥هـ، والعارف بالله سيدي عبد القادر الفاسي، المتوفى سنة ١٠٩١هـ. والعلاّمة الصوفي أبو سالم العياشي، المتوفى سنة ١٠٩٠هـ. والعلاّمة سيدي المهدي الفاسي صاحب «شرح دلائل الخيرات»... وغيرهم من الأعلام كالإمام أبي الحسن اليوسي، المتوفى سنة ١٠٠٢هـ... وأمثالهم.

من كراماته:

ولسيدي عبد الله هذا، آيات وخوارق عادات، فمن ذلك وهي من أجلها اجتماعه يقظة بسيد الخلق ﷺ. ففي تحفة الإخوان عن العارف سيدي قاسم بن رحمون عن العارف الحاج الخياط عن خادم الشيخ سيدي عبد الكريم قال: كان اليوم الذي فتح الله عليه فيه دخلت عليه فوجدته مستلقيًا، وكان ذلك بغلس، فقلت له: يا سيدي أمثلك يتكىء في هذا الوقت. فقال له: يا عبد الكريم لا علي الآن قمت أو اتكأت الآن فتح علي دخل علي رسول الله ﷺ فقال لي يا عبد الله أمدد يدك ورجلك واقبل من جاءك فمن قبلهما فهو آمن من النار. وقال فاعتذرت له بأني ضعيف لا أقدر على ملاقاة الناس فأعاد علي أمدد يدك ورجلك... إلخ.

ومنها: أنه لما بعثه شيخه إلى تطوان لطلب العلم، مر بموضع من قبيلة بني يوسف فسمع التراب والحجر والنبات والشجر يناديه بلسان فصيح الله ينصر مولانا عبد الله الشريف، فظن أن ذلك شيطان، فلما رجع إلى شيخه كاشفه بذلك وقال له لا تخف مما سمعت والخير إن شاء الله أمام.

ومنها: أنه بات مرة بدار سيدي محمد بن عطية مع الإخوان، وكان في صحن الدار شجرة مغروسة فجعل الفقراء يذكرون فضاق الصحن على الفقراء، فقام إلى تلك الشجرة وقلعها ثم رماها وراءه، وقال لها خل هذه الليلة لغيرك.

ومنها: أن سيدي قاسمًا الرحموني كان مرة جنبًا وأراد القيام آخر الليل فوجد الأزقة لم تفتح بعد، فأراد النوم ريثما تفتح الأبواب ليذهب للحمام، فبينما هو كذلك

إذا بحمام دخل عليه من النافذة التي على باب البيت ونزل على الوسادة التي عند رأسه، فإذا هو مولاي عبد الله الشريف حسب ما كان يعرفه من صفته وألقى ذلك أيضًا في روعه فقال لي يا ولدي إن كان لك عذر فقم ولا تنم في هذا الوقت واقبض سبحتك واذكر الله تعالى وصل على النبي ﷺ إلى أن يمكنك الخروج. قال فطار ورجع من حيث دخل.

ومنها: ما ذكره في تحفة الإخوان (ص ٥١) عن سيدي قاسم بن رحمون قال: كنت أعرف رجلاً من أصحاب سيدي محمد بن ناصر يعني الدرعي أخذ عنه ولازمه إلى أن مات... وظهر له أنه حصل على شيء، وأنه استغنى عن معرفة الأشياخ فتولته الشياطين وصحبه الجان وجعلوا يطلعونه على العجائب ويطوفون به على قبائلهم. ففتن بذلك وانشغل عن ورده وعبادته، ولما تحقق من ذلك جعل يرقى على الآكام ورؤوس الجبال وينادي بأعلى صوته الغياث الغياث يا أولياء الله الغياث الغياث، تشفعت لكم برسول الله ﷺ ويذكر كل من يعرف من الأولياء ويكثر من النداء على شيخه. فبينما هو ينادي في بعض الأيام إذا أقبلت عليه كتيبة من الخيل فلما دنت منه جاءه عدوه من الجن كان يعرفه فأخذه وفر به وجعلت الكتيبة تجري خلفه ولهم صياح فجعلوا يتأخرون زمرًا زمرًا حتى لم يبق إلاَّ أربعة رجال إثنان على فرسين أحدهما أدهم والآخر أشهب، وإثنان طائران، قال: فخاض في البحر فخاضوا خلفه فخرج إلى البر فتبعوه، فلما تحقق الهلاك رمى الرجل وفر أمامهم فلحقوه وقتلوه وجاءوا بالرجل، فقال لهم نشدتكم الله أخبروني من أنتم الذين تفضل الله علي بكم. فقال له صاحب الفرس الأشهب أنا عبد السلام بن مشيش، وقال صاحب الأدهم أنا أبو يعزى، وقال أحد الطيارين أنا محمد بن سليمان الجزولي، أو قال أبو سلهام: قال سيدي قاسم والغالب على ظني أنه قال أبو سلهام، وقال الرابع أنا عبد الله بن إبراهيم يعني صاحب الترجمة، بتصرف.

وفي هذه الكرامة ما يدل على تصرف بعض أكابر الأولياء بأرواحهم بعد موتهم، وقد حصل ذلك للكثير من أفرادهم ونص المحققون من الصوفية والعارفين

على ذلك وقالوا إن الولي إذا مات انقطع تصرفه في هذا العالم إلاَّ بعض الأكابر، فإن الله تعالى يوالي لهم التصرف في الكون ولو بعد موتهم(١)، ولا مانع يمنع من ذلك ما دام الأمر أمر الله وأنه ليس مما يحيله العقل فإنه قد ثبت بنصوص القرآن والسنَّة إحياء الأموات وإرجاعها لهذه الحياة وقضاؤها ما كان باقيًا لها من أجالها، فكيف يحجر على إعطاء بعض عبيده المحبوبين التصرف بأرواحهم بعد موتهم إن ذلك يعد تعجيزًا لقدرة الله تعالى. وكون المنتقد والمعترض لا يجد لذلك دليلاً من الشرع لا يدل على عدم الوقوع ولا فقدان ما يدل عليه لا سيما وأكابر الصالحين أخبروا بذلك عن مكاشفة وهم عدول مصدقون.

توفي مولاي عبد الله الشريف رضي الله تعالى عنه سنة ١٠٨٩هـ، بمدينة وازان وبها دفن بجوار المسجد الأعظم وهو يعد رئيس وقطب دائرة الأقطاب والشرفاء الوزانيين رضي الله تعالى عنهم. وبوازان جماعة، من أكابرهم: القطب مولاي محمد بن مولاي عبد الله وارث سر أبيه المتوفى سنة ١١٢٠هـ. والقطب مولاي التهامي بن مولاي محمد المتوفى سنة ١١٢٧هـ. والقطب مولاي الطيب بن سيدي محمد بن مولاي عبد الله المتوفى سنة ١١٨١هـ. فهؤلاء السادات كلهم مقبورون بوازان رضي الله تعالى عنهم، وقد زرت جميعهم مرات متعددة، والحمد لله وصلَّى الله وسلَّم وبارك على سيدنا محمد وآله وصحبه.



(١) وقد نص على ذلك كثير من محققي الصوفية وفي الباب حوادث كثيرة وحكايات عديدة تجدها في كتب الكرامات وتراجم الأولياء ولا يستبعد ذلك إلا قاصر.

مع دولة الشرفاء العلويين

سيدي عبد العزيز الدباغ

(صوفي كبير مع عاميته)

هذه شخصية أخرى غريبة في الأمة الإسلامية إنه طراز عجيب في أقطاب الأمة المحمدية، لا نعلم له مثيلاً في وضعه وشكله وسيدي عبد العزيز هذا من الشرفاء الأطهار الدباغين المشهورين بفاس، ولد سنة ١٠٩٥هـ. ونشأ في حجر أبويه وكان في صغره قد دخل الكتاب وتعلَّم وحفظ بعض سور حزب سبح ولم يقدر له استمرار في القراءة ولا جلس بين يدي عالم قط، ولأمر ما أراده الله عز وجل بهذا الرجل العظيم على عاميته وأميته، وبعده عن الميادين العلمية حفه الله عز وجل بعنايته وأحاطه بكامل رعايته واختار له أبوين كريمين: أبوه شريف نسيب حسيب من السلالة الطاهرة النبوية ينتمي نسبه إلى سيدي عيسى بن مولاي إدريس: أما والدته فهي بنت أخت العارف الكبير سيدي العربي الفشتالي رضي الله عنه. توفي والدها وهي صغيرة وتزوجت والدتها رجلاً ثانيًا وبقيت البنت تحت كفالة خالها سيدي العربي فوجه إليها عنايته ورعايته، ولما بلغت الحلم زوجها من سيدي مسعود الدباغ والد سيدي عبد العزيز، وكان من جملة أصحابه الذين يقرؤون القرآن ويجودونه ويصححونه عليه.

وكان سيدي العربي الفشتالي يقول: رأيت النبي ﷺ فقال لي إنه سيولد ولي كبير عند ابنة أختك. فقلت: يا رسول الله ﷺ ومن أبوه فقال ﷺ أبوه مسعود الدباغ،

وقالت والدة سيدي عبد العزيز كان سيدي العربي يقول سيولد لكم ولد اسمه عبد العزيز له شأن عظيم في الولاية، وكان سيدي العربي يتمنى إدراك ولادته ولكنه فاجأه أجله سنة تسعين وألف قبل ولادته بخمس سنوات، ولما حضرته الوفاة أوصى لسيدي عبد العزيز بطاقية وحذاء تركهما عند والديه، وقال لهما هذه أمانة الله عندكما حتى يولد لكما عبد العزيز فأعطوه هذه الأمانة.

ولما ولد وبلغ من العمر نحوًا من أربعة عشر عامًا ألهم الله عز وجل والدته فجاءت بالأمانة وقالت له يا ولدي إن سيدي العربي الفشتالي أوصى إليك بهذه الأمانة، فأخذها ولبس الطاقية في رأسه والحذاء في رجليه فتغيرت أحواله وانقلبت عوالمه ونزلت به حالة وعرف لحينه ما قال له سيدي العربي الفشتالي وما أشار به إليه.

وعقب هذا توفيت والدته فارحة رضي الله تعالى عنها، فتزوج والده امرأة أخرى فكانت تسيء إلى سيدي عبد العزيز، وكانت بجانبها أيضًا أمة لوالده فكان يقاسي شدائدهما معًا، وبمناسبة ذلك يذكر لنا حادثة عجيبة ومشهدًا غريبًا حصل له في ذلك الابان فيقول: وقد وقع لي عام أحد عشر بعد موت أمي ما يستغرب، وذلك أن أبي تزوج امرأة أخرى واستجور أمة له فجاءت فضربتني فقلت أي هم أقاسيه هم الأمة أم هم المرأة، فتكدرت وتغيرت ثم جرت لي سنة فرأيت جميع ما يقع لي إلى انصرام أجلي فرأيت من التقى معي من الأشياخ ورأيت المرأة التي أتزوجها ومضت المدة إلى ولادة ولدي محمد وذبحت له وسبعت ثم رأيت جميع ما يقع لي بعده إلى ولادة إبنتي فاطمة ورأيت الفتح الذي وقع لي بعد ولادتها وجميع ما أدركته لا يغيب عني شيء منه، ومن جميع ما وقع لي في عمري وهذا كله في سويعة ولست بنائم حتى يكون رؤيا منام. اهـ.

تشوفه للعبودية الخالصة وبحثه عمن يأخذ بيده:

لقد حدَّث عن نفسه أنه منذ لبس تلك الأمانة تاقت نفسه للعبودية

الخالصة، فجعل يبحث عن الوارث المحمدي فكان لا يسمع بشيخ مشهور إلا شيَّخه[1]. وأخذ عنه ثم يتركه ويأخذ عن غيره لما كان يجده في صدره من ضيق وبقي على حالته تلك متحيرًا في أمره مدة من ثلاثة عشر عامًا من سنة تسع إلى إحدى وعشرين، وكان يعتاد المبيت بضريح العارف سيدي علي بن حرازم رضي الله تعالى عنه كل ليلة جمعة مع جماعة لقراءة بردة المديح، فخرج ليلة من الضريح وإذا به برجل جالس حذاء الروضة تحت شجرة، فجعل يكلمه ويكاشفه بأموره، ولما تحقق منه أنه ولي الله عز وجل استأذنه في تلقين الورد فتغافل عنه مدة إلى أن برق الفجر، ثم أذن له بعد أن أخذ عليه العهد أن لا يتركه وكان فيما لقنه أنه يذكر يوميًا سبعة آلاف اللهم يا رب بجاه سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ اجمع بيني وبين سيدنا محمد بن عبد الله في الدنيا قبل الآخرة، ثم خرج عليهما العارف سيدي عمر بن محمد الهواري رضي الله تعالى عنه وكان قيمًا لروضة سيدي علي فأوصاه به خيرًا، فكان هذا آخر عهده بالرجل ولم يدر من هو ولا أين توجه. ثم يحدثنا أنه عرف بعد الفتح أنه سيدنا الخضر عليه السلام كما أخبره أيضًا به سيدي عمر الهواري عند وفاته، ويصرح لنا سيدي عبد العزيز بأن سيدي الهواري أخبره عند وفاته بأن شيخه هو سيدي العربي الفشتالي وأنه كان حاملاً لبعض أسراره، ثم ينتقل الجميع لسيدي عبد العزيز بواسطة الهواري.

حصول الفتح الإلـٰهي لسيدي عبد العزيز ومبادىء ذلك:

لكل شيء سبب وللفتح عند الصوفية أسباب وطرق لا بد للسالك من قطعها وهي تختلف باختلاف الأشخاص، فقد تكون على بعض القوم وعرة شاقة وقد تكون على آخرين ميسرة سهلة، وذلك حسب الأوعية والاستعداد الواقع من النفوس، وقد مر على سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله تعالى عنه ما يقرب من ثمانية عشر عامًا وهو متشوف للوصول والفتح جادًا في الطلب دؤوبًا على العبودية

(١) وكان في عصره من المشاهير القطب مولاي محمد بن مولاي عبد الله الوزاني وولده القطب مولاي التهامي والعارف سيدي أحمد بن محمد ناصر الدرعي.

ولم يحصل على شيء حتى انتقل سيدي عمر الهواري وبلغ سيدي عبد العزيز عنفوان شبابه[١] وأشرف على بلوغ الأشد فحينئذٍ أتاه الفتح وحصل على الأمانة التي كان بابها موت الهواري وتلك هي السعادة الكبرى ومنىٰ كل سالك.

فلقد حدثنا رضي الله تعالى عنه أنه عقب موت سيدي عمر بثلاثة أيام فتح الله تعالى عليه، وكان ذلك ثامن رجب سنة خمس وعشرين ومائة وألف، وكان ابتداء ذلك أنه خرج يومًا لقضاء حاجة داره فداخلته قشعريرة عند باب الفتوح ثم رعدة كثيرة ثم اشتد به الحال وجعل صدره يضطرب اضطرابًا عظيمًا، ثم خرج شيء من ذاته كأنه بخار الطعام، ثم جعلت ذاته تتطاول حتى صارت أطول من كل شيء ثم جعلت الأشياء تنكشف له وتظهر كأنها بين يديه فرأى جميع المدن والقرى وكل ما في هذا البر، ورأى كما يقول النصرانية ترضع ولدها وهو في حجرها، ورأى جميع البحار، ورأى الأرضين السبع وما فيهن من دواب ومخلوقات، ورأى السماء وكأنه فوقها وهو ينظر ما فيها، وإذا بنور عظيم كالبرق الخاطف فحاذه من جميع جهاته وأصابه منه برد عظيم حتى ظن أنه مات فبادر فانبطح على وجهه ليلاً ينظر ذلك النور، فلما انبطح رأى لكل ذاته عيونًا يبصر بها لا يحجبها شيء، ثم استمر الأمر عليه ساعة وانقطع ثم جعل يبكي فعاوده ساعة ثم انقطع فجعل يأتيه ساعة وينقطع أخرى إلى أن اعتادته ذاته فصار يغيب ساعة في النهار ومثلها في الليل ثم صحبه فجعل لا يغيب عنه. هذا ما حصل له أول أمره. اهـ.[٢].

وهذه المفاجأة المهولة كثيرًا ما تأتي المقربين الذين قدر لهم أن يكونوا أوعية

---

(١) جاءه الفتح وهو في سن الثلاثين من عمره ولم يعمر بعده إلا ست سنين لأنه توفي سنة ١١٣١.

(٢) وقد تحدث عن صفة الفتح وما يكاشف به السالك كثير من العارفين كحجة الإسلام الغزالي في المنقذ وفي الاحياء وابن العربي الحاتمي في رسالة الأنوار وفي مواقع النجوم وفي الفتوحات والسهروردي في العوارف والسيوطي في تنوير الحلك وفي تشييد الحقيقة واليافعي في نشر المحاسن وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

لأسرار الله عز وجل، وبما أن هذا المشهد لم يعهده من نفسه ولا سمع مثله من أحد حكى قصته لرجل صالح كان يتصل به فثبته وبشره خيرًا ثم عقب هذا الحادث جمعه الله عز وجل بولي الله تعالى غريب يقال له سيدي عبد الله البرناوي لقيه بباب الجيسة فجعل ينظر إليه ويصعد فيه النظر فقال له أريد منك أن ترجع معي إلى المسجد لنجلس ساعة نتحدث فيها فرجع معه فجعل يكاشفه بحاله ويقول له إني مريض بكذا وكذا وحصل لي كذا وكذا للحالة التي وقعت له، ثم صارحه بأنه من بلاد برنو وأنه ما جاء لفاس إلا لأجله فبقي معه يربيه ويقويه ويراقبه من رجب إلى عشر ذي الحجة، فلما كان اليوم الثالث من عيد الأضحى رأى سيد الوجود ﷺ يقظة فقال له عندئذٍ سيدي عبد الله البرناوي يا سيدي عبد العزيز قبل اليوم كنت أخاف عليك واليوم حيث جمعك الله مع رحمته تعالى سيد الوجود ﷺ آمن قلبي واطمأن خاطري فاستودعك الله عز وجل، ثم ذهب إلى بلاده. قال وكانت إقامته معي بقصد أن يحفظني من دخول الظلام علي في الفتح الذي وقع لي إلى أن يقع لي الفتح في مشاهدة النبي ﷺ لأنه لا يخاف على الفتوح حينئذٍ.

معارف سيدي عبد العزيز وآياته وخوارقه:

إن سيدي عبد العزيز الدباغ كما قدمنا شخصية نادرة غريبة الوجود في هذه الأمة فهو مع كونه أميًا لم يحفظ القرآن ولم يجلس بين يدي عالم قط، قد فتح الله تعالى عليه وتكلم بالعجب العجاب وصدرت منه النوادر والغرائب وحل من المشاكل ما حارت فيه ذووا الألباب من فطاحل العلماء، وخاض في علوم تاهت فيها عقول الفحول، وله من الآيات الباهرات والكرامات الواضحات والمكاشفات الصادقات ما تنبهر لها العقول.

فمنها وهي من الغرابة بمكان معرفته للعلوم وتفرقته بين كلام الله عز وجل وحديث رسول الله ﷺ ومعرفته للحديث الموضوع وما لا أصل له، ويقول إنه يرى لكلام الله عز وجل أنوارًا باهرة عظيمة عند تلاوته، وللحديث النبوي نورًا كذلك غير أنه أضعف من الأول بينما كان يرى للحديث الموضوع والذي لا أصل له ظلمة تخرج

معه، وهذا شيء عجيب ما سمعنا بمثله لغيره رضي الله تعالى عنه، ولذلك فقد بين عدة أحاديث وافق فيها حفاظ الحديث على وضعها، بل بلغ من أمره في التحقق بهذا المقام أنه كان يفرق بين أحاديث البخاري ومسلم وغيرهما، بل كان يعرف أقوال أهل العلم في التفسير والحديث والفقه الإسلامي على سائر المذاهب، وكان يذكرها ويرجح ما هو الحق عند الله تعالى فيها، ويذكر عنه تلميذه وخريجه سيدي أحمد بن المبارك أنه كان يرجع إلى كتب أهل العلم فيجهد نفسه في المطالعة والتحصيل ويقارن بين كلامهم في الموضوع الذي يريده، وما يعتمده كل واحد منهم ثم يأتيه فيوجه إليه السؤال في ذلك فيجيبه بما قرأه ويزيده من النقول والفوائد والتحقيقات، ما لم يطرق سمعه قط.

وقد سرد سيدي أحمد بن المبارك في كتابه «الإبريز» الذي وضعه في ترجمة هذا العارف كثيرًا من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال العارفين والعلماء التي استشكلت عليه أو على من قبله من العلماء، فحلها وأجاب عن كل ذلك بما لا يوجد عند غيره، ولذلك فقد استفدنا منه كثيرًا وكثيرًا كبطلان قصص عوج بن عنق والغرانيق وهاروت وماروت، وبيان كيفية نزول المطر ومن أين مصدره ومخالفته لعلماء الهيأة وتحقيق الحق في قوله تعالى يمحو الله ما يشاء ويثبت ونفيه النبوة عن النساء وموافقته في ذلك للجمهور وتحققه بمعرفة توحيد السلف الصالح[1] وإبطاله لقصة ثعلبة المشهورة في سبب نزول قوله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ. . . ﴾ الآية [التوبة: ٧٥]. وتفسيره قوله تعالى في قول إبراهيم ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى. . . ﴾ الآية [الأنعام: ٧٦].

---

(١) وكان يقول لا يفتح على أحد إلا إذا كان على عقيدتهم ولو فتح عليه لوجب عليه أن يتوب بعد الفتح ويرجع إلى عقيدتهم وكان يختار في أحاديث صفات الله تعالى التفويض الذي هو طريق السلف ويقول أن شأن الربوبية عظيم ولا يقدر العباد قدرها، ولا يطيقون الوصول إلى شيء من كنهها . . . إلخ. وهذه العقيدة السلفية هي عقيدة المحققين من كبار الصوفية والعارفين رضي الله تعالى عنهم فهم لا يعطلون ولا يشبهون بل يقولون آمنا به كل من عند ربنا وبهذه العقيدة ندين الله تعالى والحمد لله على توفيقه وفضله ولا نزال عليها حتى الموت إن شاء الله.

وتكلمه على ما أشكل من أحوال الأنبياء، وتكلمه على عظمة رسولنا الكريم ﷺ وشخصيته وأنه أصل الأنوار وإفاضته في ذلك بما يسبي العقول، وكلامه على ما يشاهده العارف المفتوح عليه من العوالم من إنس وجن ونبات ومعادن وحيوانات وبحار ورياح وسحاب وأمطار وثلوج وجنة ونار وبرزخ وأرواح الملائكة والأنبياء والأولياء والأموات، وتكلمه على نزول الملائكة على الأولياء وإطلاع الله أولياءه على المفاتح الخمس؛ إن الله عنده علم الساعة. . . إلخ. وإن الولي لا يتمكن من التصرف حتى يعلمها وأن النبي ﷺ ما توفي حتى عرفها وجوابه عن آية ﴿ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ . . . ﴾ الآية [الجن: ٢٦].

وتكلمه على مشاهدة الأولياء لنبي الله ﷺ يقظة، وإن هذا المقام لا يصل إليه العارف حتى يقطع آلاف المقامات وأن العارف ينزع منه سبعون عرقًا من عروق الظلام منها عرق حب الزنا والخمر والدنيا والحسد والعجب، وتكلمه على حمل السر الإلـهي والمعرفة وصعوبة ذلك، وتكلمه على الفتح النوراني والظلماني والفرق بينهما وأن الأول خاص بأهل الاستقامة، والثاني قد يقع حتى لعبدة غير الله من البراهمة والفلاسفة وغيرهم وأنهم قد يكاشفون بما في العالم ويتصرفون فيهم كما يحصل للأولين ولا فارق غير أن لأهل الفتح النوراني خصائص إلـهية خصوا بها لا يعرفها الآخرون ولا يتحققون بها، وتكلمه على أشياء وأمور تزيد في الايمان وتبيينه أنواع الظلام الداخلة على القلوب وتكلمه على تطور الأنبياء والأولياء في صور شتى، وان نبينا ﷺ له من الذوات التي تتشكل روحانيته عليها مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، وتكلمه على الجمادات وغيرها وأنه شاهدها تسبح الله تعالى بلغات مختلفة.

وتكلمه على ساعة الإجابة الليلية ووقت التجلي الإلـهي وإن ذلك وقت فجر الحجاز وقت ولادة نبي الله ﷺ وتكلمه على ديوان الأولياء وأنظمتهم وتصرفهم، وإنهم يحضرون بغار حراء ويحضر معهم نبي الله ﷺ والخلفاء الأربعة والحسنان وفاطمة الزهراء رضي الله تعالى عنهم، وبعض الملائكة والكمل من الروحانيين

الميتون واستعانة الأولياء بالملائكة والجن فيما ليس في طوقهم من التصرفات، وتكلمه على تصرف الأولياء في بعضهم وتصرف الولي الكامل في العالم حتى ما فوق العرش. وأن مدده يسري إليه من النبي ﷺ، ثم تكلمه على الشيوخ والمشيخة وشروطها والمريد وآدابه والخلوة وفائدتها وشروطها والمقصود منها عند القوم، وفائدة النسبة وأخذ الورد والتلقين وحشر الأولياء وأتباعهم مع نبي الله ﷺ، وما يتوخاه السالكون من الرياضات والمجاهدات وما يجب أن يكون عليه السالك وأن السلوك للحصول على الكرامات معلول مدخول لا إخلاص فيه وأن العبودية بنية الوصول إلى مقام الإخلاص لا خلل فيها، لأن الإخلاص[1] واجب وما لا يتوصل للواجب إلا به كان واجبًا.

وتكلمه على المذاهب والتأدب مع أربابها وأن العارفين لا يتقيدون بمذهب واحد، وذكر لذلك مثالاً خالف فيه هو مذهب مالك رحمه الله تعالى وأنه في استطاعته بإذن الله تعالى أن يُحيي الشريعة ولو تعطلت بأسرها، وإن له من القوة ما يهلك به البر كله، وإن المفتوح عليه الفتح الكامل لا يغيب عن مشاهدة الحق كما لا يغيب عنه رسول الله ﷺ، وتكلمه على قول الغزالي ليس في الإمكان أبدع مما كان، وعلى قول أبي يزيد خضنا بحرًا وقفت الأنبياء بساحله إلى غير ذلك مما تجده مبسوطًا في «الإبريز»، وكل ما ذكره ليس بغريب ولا ببعيد على من فتح الله عليه

---

(١) ومثل هذا عند العارف الأمير عبد القادر الجزائري في المواقف ج ١/ ١٣٤/ ١٣٥ فقد قال فالعمل لأجل تحصيل الولاية التي معناها القرب من الله تعالى برفع الحجب وإخلاص العبودية إليه وصدق التوكل عليه والانحياش ظاهرًا وباطنًا إليه ليس بعلة قادحة في العبادة قال ومن المعلوم ضرورة أن الإخلاص في الأعمال واجب بإجماع. وأجمع أهل الله تعالى أنه لا يصح الإخلاص لأحد إلا بعد موت النفس، وأجمعوا على أن موت النفس لا يكون إلا بعد معرفة حقيقتها التي هي شرط في معرفة ربها فمن البعيد أن يكون هذا القصد والطلب علة قادحة في العبادة لأن ما لا يتوصل إلى الواجب إلا به فهو واجب وأما إذا قصد بالعمل الولاية التي معناها ظهور الخوارق والكرامات وانتشار الصيت وإقبال الخلق (فهذا لا يشك أحد أنه علة، بل شرك).

وعلمه من لدنه علمًا وكتب القوم ملآنة بمعارف وحقائق لا يعرفها علماء الظاهر الذين أفنوا أعمارهم في تحصيل العلوم على اختلافها نقلاً وعقلاً. فرضي الله تعالى عن سيدي العارف عبد العزيز الدباغ وأسبل على روحه شآبيب رحماته، ورحم الله تلميذه ووارث سره الإمام ولي الله تعالى سيدي أحمد بن المبارك الذي أفادنا عن هذا الإمام علمًا جمًا وعرفنا بهذه الشخصية الفذة.

ومن الغريب أن يكون هذا العارف عاميًا أميًا ويتتلمذ له أعلم[١] عالم تخرج من القرويين لم يكن في عصره وأقرانه له نظير إن في ذلك لأعظم عبرة بل أكبر دليل وأصدق شاهد على صحة طريق القوم وأن الله تعالى يمنحهم ما لا يمنح غيرهم من العلوم والمواهب والخصائص والمزايا، فحيا الله عز وجل روضة الدباغ وضجيعه ابن المبارك، وحيا الله تعالى مقبرة باب الفتوح التي ضمت في خباياها جثثا من أكابر هذه الأمة، وحيا الله مدينة فاس، فكم أنجبت لنا من عارف وكم أظهرت فيها من سالك وكم ولدت من مرشد ومرب، فحياكم الله يا رقاد الفاسيين وطيب الله ثراكم.

توفي سيدي عبد العزيز الدباغ سنة ١١٣١هـ. ودفن بالقباب خارج باب الفتوح وعمره دون الأربعين سنة، ودفن معه تلميذه العلامة سيدي أحمد بن المبارك[٢].

---

(١) ومثل هذا ما حصل للقطب سيدي عبد الوهاب الشعراني مع سيدي علي الخواص. فإن الأول يعتبر في عصره من كبار العلماء المتبحرين في سائر العلوم، والمتضلعين في علوم الشريعة، ومربيه سيدي علي الخواص أمي لا يقرأ ولا يكتب. وهذا العارف سيدي أحمد بن عجيبة عالم تطوان في عصره وإمام أهلها قد طأطأ رأسه لشيخه العامي سيدي محمد البوزيدي العارف الذي ما زاد في شبيبته على حفظ القرآن شيئًا وهو وما أدراك ما هو.

(٢) انتقد بعض المتأخرين سيدي أحمد بن المبارك، وكاد أن يكذبه فيما جاء به في الإبريز وما قال عن سيدي عبد العزيز وحاول بذلك استجهال الدباغ وقال انه غير معروف ولم يذكره غير ابن المبارك وهذه وسوسة لا دليل عليها وابن المبارك رجل ثقة مصدق فيما ينقله وكون غيره لم يعرفه لا يدل على جهالته، هذا إذا سلمنا تفرده بذكره والأخذ عنه كيف وهذا العارف سيدي عبد الوهاب التازي شيخ العارف الكبير سيدي أحمد بن إدريس المشهور ممن أخذ عنه، وكذا العلامة الصوفي سيدي محمد بن محمد بن عبد العزيز المرابط السجلماسي =

الإبريز لابن المبارك والوصية به :

وفي الختام وقبل أن نضع القلم من الإشارة إلى ترجمة هذا الإمام الجليل الذي أصبح اليوم كباقي إخوانه من الأولياء غرضًا لسهام الطاعنين والمنتقدين ومسخرة للسفهاء والجاهلين، لا ننسى أن نؤكد بالوصية بقراءة الأبريز والاهتمام به واتخاذه أنيسًا الآونة بعد الأخرى، فإن لقراءته مزايا هامة مفيدة سيدركها القارىء أثناء قراءته بحول الله تعالى وقوته فاستعن بالله وفقنا الله وإياك لما فيه محبته ورضاه، وجنبنا وإياك ما فيه بغضه وسخطه، وختم لنا ولك بخاتمة خير آمين وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.



= المتوفى بعد الأربعين ومائة وألف، وله كتاب تيسير المواهب في بعض ما للشيخ أبي فارس من المواهب مخطوط هو ممن أخذ عنه أيضًا فالمسارعة إلى الانتقاد ليس من شأن أهل الورع والإيمان الصحيح، بل هو شأن المتهورين في دينهم.

مع دولة العلويين

مولاي العربي الدرقاوي

(شيخ مشايخ الصوفية المتأخرين)

مولاي العربي الدرقاوي هو شيخ مشايخ الصوفية المتأخرين، وعروس الأولياء وسلطانهم، مجدد الطريق ومحييها، المربي الكبير، العارف الشهير، أبو عبد الله سيدي محمد العربي بن أحمد الدرقاوي الزروالي، الشريف الحسني، ينتمي لجده العارف سيدي محمد بن يوسف، دفين تامسنة، من قبيلة الشاوية الملقب بأبي درقة[1] من ذرية أبي العباس سيدي أحمد بن المولى إدريس الأنورا بن مولانا إدريس الأكبر.

ولادته وأوائل أمره:

ولد مولاي العربي أوائل النصف الثاني عشر بقرية بني عبد الله من قبيلة بني زروال[2]. وبها نشأ وتعلم القراءة وحفظ القرآن الكريم، وعندما صححه وأتقنه

---

(١) كني بذلك لأنه كانت له درقة يتوقى بها في الحروب ولذلك نسب أولاده إليه فقيل لهم الشرفاء الدرقاويون ثم نسب إليه كل من سلك طريق مولاي العربي وانتسب إليها، جعلنا الله من صالحي أهلها.

(٢) بني زروال من القبائل الجبلية المغربية المباركة تمتاز بكثرة الفلاحة وأشجار الزيتون والعنب والتين وغيرها وفيها أولاد الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم وموقع القبيلة يأتي شمال مدينة فاس وتتصل بجبال الريف شمالاً ويحدها شرقًا كتامة وغمارة وغربًا بني مسارة وبني =

بالروايات السبع اشتغل بطلب العلم فرحل لمدينة فاس وأقام بها مدة قرأ خلالها على أكابر علمائها وقته ما قدر الله له من العلوم.

عبادته ومجاهداته أيام الطلب:

وكان في تلك الفترات أيام الطلب مثابرًا على مجاهدة نفسه وحملها على العبادة من صيام وقيام وتلاوة وذكر مع فطمها عن المخالفات حتى أنه كما يحكى هم مرة بمعصية فخرج في جسده قروح كثيرة فاستغفر الله تعالى فذهبت في الحين فضلاً من الله عز وجل، وهذه عناية كبيرة من الله عز وجل وتأييد إلـهي لا دخل للإنسان فيه، فالعصمة للأنبياء والحفظ للأولياء.

زيارته للأضرحة:

ويحكي لنا أنه كان في ذلك الإبان كثير الزيارة لأضرحة الأولياء طوافًا عليهم مترددًا على مشاهدهم من وقت لآخر ولا سيما ضريح مولانا إدريس دفين فاس ومولانا عبد السلام بن مشيش رضي الله تعالى عنهم.

بحثه عن المربـي:

وفي أثناء ذلك الوقت تاقت نفسه لطلب الشيخ المربـي فجعل يبحث عنه ويطلب الله عزَّ وجلَّ أن يجمعه به حتى أنه ختم بضريح مولانا إدريس بفاس ستين ختمة من القرآن الكريم في سبيل ذلك وعندما أتم هذا العدد سأل الله تعالى مع خشوع وتضرع وبكاء شديد فهداه الله تعالى للاجتماع بالشيخ وأجاب دعوته لصدقه وإخلاصه فجمعه الله تعالى بضالته سيدي علي الجمل.

= مزكلدة وجنوبًا فشتالة وبني ورياغل وسلاس والحياينة وشمالاً بني أحمد وعمالتها مدينة فاس.

ورجالها أبطال شجعان لهم مواقف مشهورة في التاريخ، والقبيلة ملآنة بالذرية النبوية الطاهرة. وقد زرت القبيلة مرتين مرة من فاس ومرة من الشاون.

شيوخه وطريقته:

وكان في عصر مولاي العربي شيوخ كثيرون ولكنه لم يسلم نفسه لأحد منهم بل كان يحتاط لنفسه ويقتصر على مجرد التبرك بهم وقد عد من شيوخه الذين تبرك بهم القطب مولاي الطيب الوزاني والعارف البركة الشريف سيدي محمد بن علي بن ريسون العلمي كان يزوره من فاس وبني زروال والمجذوب الكبير سيدي العربي البقالي والعارف الكبير سيدي علي الجمل[1] العمراني وهو عمدته وعليه عول كما يقول، لقيه بمدينة فاس بزاويته بالرميلة سنة ١١٨٢هـ، وهو ابن ثلاث أو أربع وعشرين سنة تقريبًا، ولما اتصل به وعلم صدقه وتحقق حسن ظنه وإخلاص نيته لقنه أولاً الورد العام، وهو: مائة من (أستغفر الله) ومائة من (اللَّهم صلِّ على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا)، وألف من (لا إله إلاّ الله)، وعلى رأس كل مائة يختم بـ (سيدنا محمد رسول الله ﷺ). ثم قال له: هذا عندنا من طريق أهل الظاهر السادات الناصريين رضي الله تعالى عنهم، ثم لقنه الاسم الأعظم ﴿الله﴾ من غير عدد وقال له هو عندنا من طريق أهل الباطن السادات أولاد ابن عبد الله[2] أهل المخفية بالمدينة الفاسية ثم صحبه بقية عمره وفني في محبته وسلم له الإرادة

---

(١) سيدي علي الجمل من الشخصيات العظيمة في هذه الأمة أخذ عن مولاي الطيب الوزاني وخدمه مدة ثم بعثه لفاس، فلازم العارف سيدي العربي بن العارف سيدي أحمد بن عبد الله بن معن الأندلسي، فلازمه ستة عشر عامًا إلى أن توفي، ثم استقل بنفسه وبنى زاويته بالرميلة فكثرت أتباعه وكان مستغرقًا في رؤية رسول الله ﷺ يقظة ومنامًا لا يريد رؤيته إلاّ رآه حالاً مع أصحابه العشرة وكان أقوى من القطب أبي العباس المرسي، كما قال مولاي العربي في الرسائل وقد نوه به فيها كثيرًا. وكان العارف سيدي عبد الواحد الدباغ يقول لا يعرف سيدي علي إلاّ من كان هو سيدي علي، أي من كان في مقامه، توفي سنة ١١٩٤هـ عن سن عالية فقد عمر مائة وستة أعوام ودفن بزاويته رضي الله تعالى عنه.

(٢) أولاد ابن عبد الله هم العارفون سيدي محمد بن عبد الله بن معن الأندلسي وولده سيدي أحمد وولد هذا سيدي العربي وزاويتهم لا تزال بالمخفية حتى يومنا هذا وأضرحتهم بالقباب بمقبرة باب الفتوح.

فحكمه في نفسه وثابر على ذكر الاسم المفرد حتى فني في الله تعالى وتحقق وشاهد رسول الله ﷺ يقظة في أوائل أمره وفتح الله تعالى عليه الفتح الأكبر في مدة وجيزة، وفوجىء بعلوم ومعارف كالبحار حتى أصبح كما يقول في «الرسائل» (ص ١٦٣): إني تبحرت في العلم تبحرًا عظيمًا حتى أني لو سئلت عن ألف مسألة لأجبت عنها جوابًا بالغًا إذ صرت كالمصباح، فلو شعل مني جميع المصابيح لم ينقص من ضوئي شيء . . . إلخ.

ولما توفي شيخه استقل بالمشيخة والإرشاد والتربية وورث سر شيخه فقام على ساق الجد فأحيى الطريق بعد دروسها وجددها بعد خلوقها وأنجب رجالاً ورجالاً وكون شيوخًا كان لهم الأثر العظيم في نشر الطريق، وقد ذكر العلاَّمة الصالح الشريف سيدي أحمد بن الخياط رحمه الله تعالى عن شيخه سيدي عمر بن سودة[1] أنه قال: ما توفي الشيخ مولاي العربي حتى خلف نحو الأربعين ألف تلميذ كلهم متأهلون للدلالة على الله تعالى. اهـ.

غير أن الذين تفرعت عنهم طريقته وانتشرت في المشارق والمغارب هم العارفون سيدي محمد البوزيدي المتوفى سنة ١٢٢٩هـ. والمدفون بتجساس من قبيلة بني زيات الغمارية على شاطىء البحر الأبيض المتوسط وهو يعد من أكابر أصحابه، وقد توفي في حياة شيخه كتلميذه العارف ابن عجيبة وسيدي الحاج أحمد بن عبد المؤمن المتوفى بتجكان من القبيلة المنصورية الغمارية سنة ١٢٦٢هـ. وسيدي محمد الحراق المتوفى بتطوان سنة ١٢٦١هـ. وسيدي أحمد البدوي زويتن الفاسي المتوفى بها سنة ١٢٧٥هـ. وسيدي أبو يعزى المهاجي وسيدي الطيب الدرقاوي المجوطي. فعن هؤلاء تفرعت الطريق الدرقاوية وعنهم انتشرت وإليهم ترجع، فالصديقية والعجيبية ترجع إلى سيدي الحاج أحمد والحراقية إلى سيدي محمد الحراق والبدوية إلى سيدي أحمد البدوي والعلوية والسليمانية والبودشيشية

---

(١) وقد كان أدرك مولاي العربي فإنه ولد سنة ١٢١٨هـ، وتوفي سنة ١٢٨٥هـ، فحينما توفي مولاي العربي كان لسيدي عمر هذا نحو من ٢١ سنة.

والبوдليمية والكركرية كلها ترجع إلى سيدي أبـي يعزى المهاجي، والدرقاوية المطلقة ترجع إلى مولاي الطيب، وكلها تعتبر درقاوية شاذلية، وفي أهلها الصالح والطالح والصادق والكاذب كباقي فرق المسلمين وهيآتهم، جعلنا الله عز وجل من صالحيهم بمنه وكرمه ووفقنا وجميع المسلمين لما فيه خير ورشاد.

ومن هنا نعلم أن مولاي العربـي هو المحور الذي تدور عليه فرق الشاذلية ويعتبر المجدد لها والمحيـي لمعالمها.

أما طريقته التي كان ينهجها ويأمر بها ويدعو إليها هي تعلم لوازم الدين الضرورية أولاً من غير تغلغل وتعمق في العلوم[1]. ثم القيام بالمفروض وبما تأكد من السنون ولزوم الصمت والإقلال من الأكل والمخالطة وترك ما لا يعني والزهد في الدنيا والتجرد من العلائق والعوائق ظاهرًا وباطنًا مع المثابرة على ذكر الله عز وجل حسب الاستطاعة والتعلق بالله تعالى والقيام بالعبودية الخالصة من غير نظر إلى حظوظ أو لحوظ كما هي طريقة المحققين من الصوفية، وكان يأمر بإسقاط المنزلة وإذلال النفس وقتلها، وذلك بمخالفة المألوفات والعوائد وكان يوصي أصحابه كثيرًا بالتواضع والتمسكن والتظاهر بالفاقة والافتقار إلى الله تعالى وتخريب الظاهر، وكان في نفسه على حالة التجريد المطلق والزهد الكامل والانقطاع التام إلى الله عز وجل، وكان في ابتداء أمره أيام مجاهداته متقشفًا في مأكله وملبسه يختار الخشن من الثياب كالتليس والمرقعة والكساء الغليظ المخطط بالسواد أو جبة صوف مقلوبة وحدها وشاشية خلقة نقية مرشوقة بل كان يردف شواشي متعددة بعضها على بعض فوق رأسه ويحمل على ظهره جرابات متعددة ويكشف رأسه ويمشي أحيانًا حافيًا ويتعرض للسؤال بالأسواق ويرقد بالطريق ويسقي الناس لله تعالى من قربة كان يحملها على

(١) لأن التضلع من العلوم الدينية زيادة على الضروري ليس بواجب، بل هو إما فرض كفاية والمشتغلون به كثير، وإما تطوع ونافلة بخلاف القيام بالعبودية وتهذيب النفس ومجاهدتها وتطهيرها من الأخلاق الساقطة الدنيئة وتحليتها بالأخلاق الكريمة السامية وحملها على الإخلاص في كل شؤونها. فإن كل ذلك من الفروض العينية اللازمة وهذا ما لا ينازع فيه عالم منصف.

ظهره وغير ذلك مما كان يقتل به نفسه من الأمور الشاقة على النفوس الثقيلة الصعبة، وكان لذلك يأمر بهذه الأشياء كل من يريد الوصول إلى معرفة الله تعالى، ويقول لا وصول إلى الله ــ والمراد به العلم به ــ إلاَّ من طريق موت النفس وتهذيبها وتطهيرها من العيوب والرعونات، كما هي طريقة الأكثرية من الصوفية[1].

هذا ملخص طريقته كما في رسائله. وأخصر منه ما ذكره العارف ابن جعفر في سلوة الأنفاس (١/ ١٧٧) بقوله: وطريقته مبنية على اتباع السنَّة في الأقوال والأفعال والعبادات والعادات ومجانبة البدع كلها في جميع الحالات مع كسر النفس وإسقاط التدبير والاختيار والتبري من الدعوى والاقتدار والإكثار من الذكر آناء الليل وأطراف النهار والاشتغال بالمذاكرة وما يعني . . . إلخ.

رسائل مولاي العربي:

أما رسائله فنافعة جدًا وفيها فوائد عزيزة تتعلق بالطريق والعبودية والمعاملة مع الله تعالى، ولذلك قال فيها ابن جعفر في «السلوة»: ورسائله من أنفع الرسائل للمريدين وأدلها على كيفية السلوك والتجريد، لا يستغني عن مطالعتها سالك ولا يجحد خيرها وفضلها إلاَّ هالك . . . إلخ.

---

(١) وهذه الطريقة وعرة شاقة، ولا سيما في هذه العصور التي استولت فيها الشهوات على النفوس وأسرها سلطان الهوي وماتت فيها الهمم. وهناك طريق آخر سهل سمح مقرب وهو طريق التفكر والمراقبة وجمع الهمة على الله تعالى وهي طريقة النقشبندية وبعض القادريين وهي أقرب إلى الجذبة من غيرها وقد ذكر كيفيتها ولي الله الدهلوي في الحجة البالغة، وكذا ذكرها الإمام محمد فضل الله الهندي في التحفة المرسلة ــ رسالة مخطوطة في وحدة الوجود ــ ومن هذا القبيل ما كان يقوله العارف سيدي سهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنه مما تلقاه عن خاله محمد بن سوار رضي الله تعالى عنه وهو: الله معي، الله ناظر إلي، الله شاهدي. فأمره أن يذكرها بقلبه أولاً ثلاثًا، ثم أمره بها سبعًا، ثم إحدى عشرة مرة، وقال له دم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ففعل فوجد لها خيرًا كثيرًا وكان من أمره ما كان وانظر ما سبق في ترجمة العارف سيدي يوسف الفاسي وما أمر به بعض أصحابه من إجراء على قلبه، قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ﴾ [يونس: ٦١].

من فوائده في الرسائل:

ومن فوائده فيها ما ذكره (ص ٢٩) فيمن تحير عمن يأخذ الطريق فقال: فالرجل الذي ذكرت لنا أنه قد تحير فيمن يأخذ بيده عن أهل الوقت رضي الله تعالى عنهم، ولم يدر ما يفعل. قل له: يعتكف بمسجد خال أو بضريح ولي كبير أسبوعًا أو أسبوعين أو ثلاثة، وليكن طاهر البدن والثوب والمكان واللسان من الكذب، والبطن من الحرام، وليكن أيضًا في المدة المذكورة إما مصليًا أو تاليًا أو مصليًا على رسول الله ﷺ أو ما شاء الله من التلاوة وما شاء الله من الصلاة على النبي ﷺ. وهكذا من غير كلفة ولا تعب فإن الله تعالى يحق له الحق ويبطل له الباطل والله على ما نقول وكيل والسلام.

ومنها: فالأخ الذي تحيرت في أمره، قل له: يقوم بالمفروض وبما تأكد من المسنون، ثم يقول بعد ذلك: (حسبنا الله ونعم الوكيل) ثلاثًا، و (لا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم) ثلاثًا، (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) ثلاثًا، (ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدًا) ثلاثًا، (اللهم صلِّي على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلَّم) ثلاثًا، صباحًا ومساءً، تر عجبًا سواء سافر أو أقام، وإذا فعل ما ذكرنا فإنه يتقوى عزمه على الجهة التي له الخير فيها قوة لا يستطيع أن يردها . . . إلخ (ص ٣٠، ٣١).

ومنها: فقد كان أستاذنا رضي الله تعالى عنه لا يعتبر في الفقراء المقال إنما كان يعتبر فيهم الحال، وكان يقول: أصبعان من العمل خير من مائة ذراع من العلم. والأمر كما قال؛ لأنا نرى الألسن كثيرة غاية الكثرة والقلوب كادت لا توجد. والبركة لا تنقطع إن شاء الله تعالى، وكان العارف بالله شيخ شيوخنا ولي الله أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الله الفاسي رضي الله تعالى عنه يوصي كثيرًا بتصفية اللقمة وترك الخلطة واجتناب متنقرة الوقت لغلبة الهوى عليهم وقلة وجود الصادقين فيهم، وكثيرًا ما يقتصر على ذلك في وصيته مَنْ قَصَد زيارته واستنصحه . . . إلخ (ص ٣٠).

ومنها: ما ذكره (ص ٢٨) بقوله وهو يتحدث عن شيخ التربية: ومن زعم أنه يستغني عن الشيخ فقد أعرض عن الباب وأقبل على الحائط؛ إذ لو بقينا على ما آتانا به رسول الله ﷺ ولم تخالفه قلوبنا ولا جوارحنا قط لاستغنينا برسول الله ﷺ والله عن الشيخ، وحيث بدلنا وغيرنا حتى نسيت قلوبنا وجوارحنا ووقع بنا ما وقع من الكدر، فكيف لا نفتقر إلى الشيخ، فهذا لا يقوله إلاَّ متكبر أو جاهل أو راض عن نفسه، والسلام.

ومنها: فلا ينبغي للمحب الصادق أن يهمل الصلاة على النبي ﷺ في صلاة الفريضة ولا في صلاة النافلة لأنها محل بركة وخير وفضل، ونبينا ﷺ أهل لأن يذكر هنالك وفي كل محل شريف، وينبغي له أن يستحضر السلام عليه كما يستحضر الصلاة عليه، ويكون هكذا دائمًا في المحل الذي ذكرنا وفي غيره من الأوقات العظيمة . . . إلخ (ص ٢٨).

ومنها ما ذكره (ص ٧٢، ٧٣)، بقوله: ونحبكم بارك الله فيكم أن تقربوا من رحمة الله دائمًا، أو نقول: تستغرقوا في الرحمة دائمًا، ورسول الله ﷺ عينها فادنوا منه بكثرة الصلاة عليه والسلام كما قلنا قبل هذه الأيام، وابعدوا أيضًا من كل ما يشغلكم عن ربكم، ولا تقربوا منه، وأهملوا بطونكم وظهوركم ما استطعتم؛ إذ في إهمالهما من الفوائد خرق العوائد، حتى لقد يظهر لي أن من قنع من الدنيا وأفطم[1] نفسه دائمًا عنها وأهمل ظهره وبطنه وقام بالمفروض وبما تأكد من المسنون وترك دائمًا ما لا يعني كان والله محيطًا بالسنَّة المحمدية، ومن لم يكن هكذا وكان على كثير من غيره، فليس بسني . . . إلخ.

وعلى كل ففوائده في هذه الرسائل كثيرة فلتراجع، فقد ملأها توجيهات إرشادية ونصائح خالصة رائقة لإخوانه الفقراء، ولمن يريد الاقتداء به ممن يأتي بعده. وأكثر ما فيها ما ذكرته ملخصًا في بيان طريقته، وفيها غير ذلك، كأمره الفقراء

---

(١) كذا بالأصل والمعروف فطم.

بالصبر على الأذايات والإعراض عن سفه الجاهلين، وحضه على إتقان الصلاة والطهارة والمحافظة على صلاة الضحى والاستخارة وقيام الليل ولو ساعة قبيل الفجر، وزيارة الأولياء أحياء وأمواتًا وخاصة رجال الطريق منهم. وينقل كثيرًا من الفوائد عن شيخه سيدي علي ويستشهد بحِكَم ابن عطاء الله في كل آونة، كما ينقل كثيرًا عن مشاهير رجال الطريق كابن الفارض والششتري وسيدي عبد الرحمن المجذوب وغيرهم رضي الله تعالى عنهم.

بعض خوارقه وكراماته:

كل من أخلص لله تعالى في عبادته لا بد وأن يكرمه الله عز وجل بطرف من الخوارق، ولمولاي العربي الحظ الأوفر من ذلك، وإلى القارىء بعض عيونها.

فمن ذلك ما ذكره في رسائله (ص ٤١) بقوله: وقد أكرمني ربي سبحانه في ابتداء أمري في حال شبابي ونحن إذ ذاك بفاس سنة ١١٨٢هـ. إذ كنت لا نرى في نفسي ولا في كل شيء إلاَّ الله تعالى، لكن بنفس ما نرى الله تعالى نرى النبي ﷺ وبنفس ما نراه ﷺ نرى الله تعالى[(١)].

وذكر ذلك بعبارة أخرى (ص ١١٥) فقال: إني كنت لا نرى في كل شيء إلاَّ ذات رسول الله ﷺ، وكنت نرى ذات الله في ذات رسول الله ﷺ، وذات رسول الله في ذات الله تعالى، والكون قد فقدته ولم نجده قط والله على ما نقول وكيل . . . إلخ.

ومنها: ما ذكره (ص ١٢٩، ١٣٠) بقوله: إني كنت آخر ليلة أذكر الله تعالى بضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف نفع الله به إذ سمعت مناديًا ينادي باضطرار كبير فمددت يدي إليه وجمعت إلي وذلك وقت ندائه ولم أدر هل هو امرأة أم رجل إلاَّ أني عرفت الجهة التي نادى منها ولم أعرف عينه، ثم إنه لما لم يظهر لي بعينه كذبت نفسي ثم اشتغلت بتوبيخها فإذا بامرأة بين يدي صبيحة ذلك اليوم من

---

(١) وراجع ما ذكره العارف الدباغ في الموضوع أيضًا.

الجهة التي عرفت وهي من حوز الولي الصالح سيدي الحاج بن محمد الزروالي نفع الله به فقلت لها: كيف أنت؟ فقالت: كأني معلقة في الهواء ولم ندر كيف جرى لي حتى كنت ههنا بين يديك، وقد علمت ما نزل بها قبل أن تأتيني بنحو إحدى عشرة سنة إذ كان زوجها من أشياخي في القرآن . . . إلخ.

ومنها: قوله (ص ١١٥): كنت أدرر[1] الصبيان هنالك بحومة العيون وأنا أتلو القرآن العظيم والصبيان يقرؤون ألواحهم أمامي، إذ وجدت نفسي بسفينة بالبحر بمدينة تونس حرسها الله وأنا أتلو القرآن كما كنت أتلوه بالمكتب أمام الصبيان، ومن كان بالسفينة كل منهم كان يتحلى بتلاوتي، فإذا بسفن عديدة للنصارى قد بادرت إلينا لتأخذنا فتعلق بـي حينئذٍ كل من كان معي بالسفينة إذ كنت عندهم من أولياء الله تعالى حقًا فغطى الله وصفي بوصفه ونعتي بنعته فدفعت السفينة إذ ذاك إلى السفن وأحطت بها بسطوتي وعنايتي فبعضها غرقت وبعضها كسرت وبعضها أسرت والله غالب على أمره. ثم بعد ذلك وجدت نفسي بمكتبي وحالي كحال المريض، ومن مرض بالعين فعظمى كأنه دق بالمرازب فأخبرت الشيخ بما وقع لي فجعل يده على فيه ثم تبسم وقال إيه ما عرف أحد القطبانية أين هي، هل هي في الجبال ترعى المعز أو هي في المكاتب تعلم الصبيان؟ ثم جاء الخبر بما وقع في الحين ولعنة الله على الكاذبين. اهـ.

ومنها: ما ذكره (ص ١٣١) بقوله: إني كنت مقبوض الحال غاية القبض فزرت ضريح الولي الصالح سيدي الحاج الشطيبي الزروالي، ثم أحببت أن أرى منه ما يذهب بقبضي فإذا به نفع الله به قدامي وهو يقول لي أتل ما تيسر من القرآن وقد رأيته يقظة لا منامًا، ولا شك أنه كان من الأقوياء، فلذلك بادر لي بالدواء رضي الله تعالى عنه.

ومنها: ما ذكره (ص ١٣٠) بقوله: إني كنت ذات يوم أغتسل غسل جنابة بشعبة

(١) يعني: كان يحفّظهم القرآن.

خالية بقرب دارنا الكائنة بقرب ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف نفع الله به بربع بومعان بالقبيلة الزروالية أول هذه السنَّة هي ١٢٠٩هـ، إذ وجدت نفسي بجبل عظيم محيط بالدنيا وراء ما في علمي وهو على لون الخضرة وليس به عمارة ولا بجواره بل بعيد من العمارة غاية البعد، وأنا في حالتي هنالك أغتسل كما كنت أغتسل بقرب داري من غير زيادة ولا نقصان فتحيرت في أمري غاية إذ وجدت نفسي في كلا الموضعين في وقت واحد وقد بعد ما بينهما غاية البعد ــ وعادتي أن أطول في الوضوء والغسل ــ ثم إني لما طالت حيرتي تفرست بعقلي في حالتي غاية الفراسة هل هو كما وجدت أم هو حلم أم عبث فصح عندي أني كنت ببني زروال وبجبل قاف في وقت واحد ثم طال الأمر بـي هكذا حتى فرغت من الغسل وانصرفت فحينئذٍ فقدت الجبل ووجدت بني زروال والله على ما نقول وكيل. اهـ.

وبعد فلنمسك عنان القلم عن الاسترسال في أخبار هذا الإمام العظيم، فإن أمثاله يعز وجودهم في هذه الأمة ولا سيما في العصور المتأخرة منها، ومولاي العربـي قد ساعده الحظ وقضى الله عليه أن يوجد في[1] عصر الإمام العظيم الخليفة الراشد سيدي محمد بن عبد الله العلوي الذي يعد من أفضل وأكرم ما أنجبته النخبة العلوية النبوية الطاهرة كما يشهد بذلك التاريخ.

نعم، قد تأخر مولاي العربـي حتى خلافة مولاي سليمان بن سيدي محمد، فقد وافاه أجله المحتوم سنة ١٢٣٩هـ بعد ما عاش نحوًا من ٨٠ سنة، وذلك بزاويته حيط ليلة أو كدية ليلة ونقل لزاويته القديمة ببوبريح وبها دفن رضي الله تعالى عنه.



(١) وكان مولاي العربـي قرينًا لسيدي أحمد التيجاني، فولادتهما متقاربة، وأدرك في شبيبته القطب سيدي أحمد الصقلي رضي الله تعالى عنه.

سيدي محمد البوزيدي

ثم يأتي دور الإمام شيخ المشايخ العارف المربـي سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الشريف الحسني السلماني الغماري.

وُلد بقبيلة بني سلمان الغمارية وبها نشأ وشب، ولما قرأ القرآن الكريم وأتقنه وجوده انقطع لعبادة الله تعالى والسياحة سنين طوالاً واستقر مدة بشاطىء بحر سيدي قاسم بن مولانا إدريس بضواحي طنجة يعبد الله تعالى ولا تزال خلوته وأثر بنائها بتلك الناحية حتى يومنا هذا، وبها جاءه بعض الصالحين وبقي معه مدة، ثم قال له يومًا إن حاجتك بفاس عند مولاي العربـي الدرقاوي فشد الرحلة إليه فاتصل به وأخذ عنه الطريقة وسلم نفسه إليه ولازم خدمته، وبقي تحت تربيته نحو ستة عشر عامًا ما بين فاس وبني زروال قائمًا بمجاهدة نفسه ورياضتها والدؤب على الاستقامة الكاملة والسلوك التام إلى أن فتح الله عليه الفتح الأكبر ثم أذن له شيخه في الإرشاد والتربية والرجوع إلى قبيلة بني سلمان، فلبى أمره وانصرف فنزل بقرية بوسلامة فتصدى للدعوة إلى الله تعالى وتلقين الأوراد للواردين والأخذ بيدهم، فانتفع به وتاب على يده خلق كثير.

ولنترك أبا العباس سيدي أحمد بن عجيبة تلميذه يملي علينا حالته في ذلك، فقد قال في شرح رائية شيخه المذكور: ثم أرسله يعمر زاويته بغمارة فحييت به العباد واشتهر ذكره في أقصى البلاد فأظهر الطريق بعد خمود أنوارها وأشرقت شموس المعارف بعد كسوف أسرارها. قال: وله سياحات في بدايته وكرامات كثيرة تركناها خوف التطويل. اهـ.

إن البوزيدي بحق كان آية من آيات الله الكونية، وخاصة في آداب العبودية وطريق السلوك والكلام في المعارف والحقائق، ومن أراد معرفة هذا الرجل العظيم فليرجع إلى رائيته وتائيته وكتابه «أدب المريد» الذي قال فيه ابن عجيبة: لم يؤلف مثله في الإسلام. فإنك برجوعك إليها والنظر فيها تدرك نفسية البوزيدي وتقف على رسوخ قدمه في الطريق، مع أنه كان كما حدث عن نفسه بقوله: ما جلست قط مجلس علم، فما هو ـ كما قال تلميذه ابن عجيبة ـ إلا علم لدني، وكفانا شهادة له ما كان يصفه به شيخه العارف مولاي العربي الدرقاوي، فقد كان يشهد له بالخصوصية الكاملة ويصفه بأوصاف عالية ويسمه بأوسمة راقية.

قال سيدي أحمد بن عجيبة في شرح التائية وفي فهرسته، وقد سمعت منه ـ يعني مولاي العربي ـ مرارًا يقول: هو خليفتي حيًا وميتًا، وقال أيضًا: إن شمسه تقدمت على شمسنا. قال ابن عجيبة: وحدثني ـ يعني البوزيدي ـ قال: كنت ذات يوم في بيتي وأنا في بني زروال فأتاني الشيخ ـ يعني مولاي العربي ـ وقال لي: هذه ثلاثة أيام وأنا أريد أن نأتيك لنقول لك كلامًا ما أذن لي أن أقوله لك والقدرة تمنعني، واليوم أذن لي في ذلك فاستقبل القبلة. وقال: والله الذي لا إلــه إلا هو لا يدخل ذراعك أبو العباس المرسي ولا الشيخ زروق ولا أضرابهما . . . إلخ.

وكتب مولاي العربي رسالة في شأنه إلى بعض إخوانه الفاسيين وغيرهم ينوه بذكره ويحض على تعظيمه ومعرفة قدره، وهذا نصها:

إلى كافة إخواننا أهل التجريد الظاهر أهل فاس وغيرهم، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، أما بعد، فإياكم ثم إياكم من قلب الحقائق، والله ما هي خدمة محمد بن أحمد البوزيدي الغماري لنا إلا لله، والله ما هو عمله إلا لله، ولو كان لغير الله حتى يعيى منها، والله ما خدمنا الله عشر العشر من خدمته، والله ما هو إلا سيدنا كلنا صغيرنا وكبيرنا أحببنا أم كرهنا، والله لا يتكلم فيه بسوء إلا فاسق أو منافق ومخدوع أو حاسد أو راض عن نفسه أو من فيه دعوة نافذة، اللهم أرزقنا ما أعطيته

من النية الحسنة والمحبة والصدق، وبارك في عمره وأرزقنا وإياه الأدب حتى نلقاك يا رب يا رب يا رب . . . إلخ.

وكتب رسالة أخرى في شأنه أيضًا، ونصها:

إلى كافة من بفاس من إخواننا المتعلقين بنا، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد، فقد أجزنا محمد بن أحمد البوزيدي الشريف فاحترموه وعظموه ووقروه وزوروه واسمعوا له؛ إذ هو خليفتنا في حياتنا وبعد مماتنا رغمًا على أنفسنا، والله ما علمت أحدًا من فقراء الوقت يعرف طريق القوم مثله، وأنتم وأنا في أثره لأن شمس سعادته وصلت إلى وسط السماء وشمسنا وراءه، فقد أحببناه لا بأنفسنا بل بربنا أن يقدم إلى بلده يذكر عباد الله كسيدي الشاذلي والله يبارك فيه وفيكم . . . إلخ.

وكتب إليه رسالة جاء فيها: اعلم يا أخي أن الله قد أعطاك عطاء كبيرًا حيث فتبعك في طريق أوليائه وجعلك من ورثة أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين فاشكره . . . والله يا سيدي محمد بن أحمد ما علمت حاجة بقيت لك عندي ولا عند غيري، ولنا عندك حوائج بارك الله فيك وفي حوائجك إلى يوم القيامة، واعلم يا سيدي أن الله علمك علمًا لدنيا . . . إلخ.

نقلت هذه الرسائل من شرح ابن عجيبة لتائية شيخه المذكور. فهذه نبذة من شهادة مولاي العربي في سيدي البوزيدي وهي شهادة عادلة صادقة صدرت من طرف إمام كبير من أئمة القوم وقطب أهل عصره بدون نزاع.

وقال ابن عجيبة أيضًا ولقد شهد له بالفردانية ــ يعني مولاي العربي ــ فقال: مقام سيدي محمد بوزيد مقام الأفراد، قال والفرد أكمل من القطب في العلم بالله كما لابن العربي الحاتمي، قال: هكذا سمعت من شيخه في بني زروال. اهـ.

ووصفه ابن عجيبة في شرح المباحث بالعارف الواصل المحقق الكامل، وفي شرح التائية: الإمام العارف الرباني قدوة السالكين ومنار الواصلين.

ومن كلامه: كيف يعطي العيان لمن همته متفرقة على الأكوان. كيف تتجلى الأسرار لمن سكن قلبه عالم الأغيار. فيض العلوم بحسب صفاء القلوب. ليس الصوفي من يترجم بكلام الحقائق ويتكبر على الخلائق، إنما الصوفي من فنى عن نفسه وصار أرضًا لأهل عالم جنسه. الصوفي من شهد الحق في كل شيء وصار عبدًا لسيده في كل شيء. العارف إذا استغرقه الشهود صار وحده في الوجود. افتقار العارف في الظواهر والبواطن إلى مولاه وافتقار الجاهل كذلك إلى هواه.

ومنها: أن طريق القوم والتصوف لا يدرك بالترفع والتكبر والتعزز، وإنما ينال بالتذلل وحط الرأس واحتقار النفس وقتلها بالمجاهدات والرياضات.

ومن وصاياه: لا ينبغي للإنسان أن يقنع بعلم الظاهر بدون أن يسلك طريق التصوف ويطلب مراتب أهل التحقيق، بل ينبغي الاقتصار منه على الضروري، ثم ينقطع إلى التبحر في علم الحقائق وإلا بقي طول حياته مريضًا عليلاً.

وللشيخ رائية وتائية كلاهما في آداب الطريق ووصايا نافعة ويلاحظ أنه لم يكن له إلمام بقواعد العربية، لأنه لم يتقدم له طلب للعلم ولذلك جاء في كلامه ما هو خارج عن قواعد النحو، لكن القوم ليس مقصودهم تقويم الألفاظ، وإنما مرادهم المعاني والحقائق، ولذلك قالوا في هذا المعنى:

لسان فصيح معرب في كلامه ... فيا ليته من وقفة العرض يسلم
وما ينفع الإعراب إن لم يكن تقى ... وما ضر ذا تقى لسان معجم

وبالجملة فالرجل من أفراد رجال الطريق، وآيته الكبرى وكرامته العظمى هو تربيته وتسليكه للعلامة الكبير العارف أبي العباس سيدي أحمد بن عجيبة الآتي بعده. توفي رضي الله عنه فاتح عام تسعة وعشرين ومائة وألف بقبيلة بني زيات الغمارية بتجيساس قريبًا من ساحل البحر الأبيض، وقد وهم من قال توفي ودفن ببني سلمان، وكان ذلك في حياة شيخه مولاي العربي وتأسف عليه لكنه استخلف بدله شيخًا آخر كبيرًا عالمًا متضلعًا، ذلك هو سيدي محمد الحراق الآتي.



مع الدولة العلوية

سيدي أحمد بن عجيبة

(أكبر عالم صوفي)

سيدي أحمد بن عجيبة هو العلامة الإمام الصوفي العارف المفسر، صاحب الصيت والشهرة في المشارق والمغرب، ذو التآليف الكثيرة والمآثر العديدة، سيدي أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الشريف الحسني من الشخصيات البارزة المشهورة في العالم الإسلامي، وخاصة بين الأوساط الصوفية. وقد كان يعيش أيام خلافة مولاي محمد بن عبد الله وولديه المولى اليزيد والمولى سليمان العلويين.

فقد ولد بقرية أعجيبش من قبيلة حوز تطوان، وذلك سنة ١١٦٠هـ، أو ١١٦١هـ. وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم، وعندما جوده وأتقنه وحفظ عدة متون علمية التحق لطلب العلم بالقصر الكبير بعد أن كان قرأ بعض المبادىء أيام قراءته للقرآن العظيم، وبقي بالقصر مدة من سنتين، ثم رحل لتطوان فتابع دراسته على كبار علمائها كالعلامة أحمد الرشتي والشيخ عبد الكريم بن قريش والفقيه محمد بن علي الورزازي والعلامة محمد ابن الحسن الجنوي العمراني وغيرهم.

واجتهد وكشف عن ساق الجد وانقطع للدراسة انقطاعًا كليًا حتى حصل ما لم يحصل غيره من العلوم والفنون من نحو وصرف وبيان ومنطق وكلام وفقه وتفسير وحديث وتصوف وأصول وتنجيم وغيرها. ثم رحل لفاس عاصمة المغرب في العلوم

الإسلامية في ذلك الابان فتابع دراسته العليا بها وتبرك برجالها وصلحائها، فحضر على الشيخ التاودي بن سودة والشيخ محمد بنيس والشيخ الطيب بن كيران وغيرهم.

ثم رجع قافلاً لتطوان فانقطع للعبادة ولزم الخلوة والعزلة وعمر أوقاته بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن والصلاة على النبي ﷺ حتى كان ربما ختم القرآن الكريم في الشهر أربعة عشر مرة ويصلي الضحى بنحو من خمسة عشر حزبًا من القرآن الكريم، وكان إذا أكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ ظهرت له قصور وزخاريف وأنوار فيعرض عنها، وكان في هذه الفترة قد قرأ عدة روايات كقالون والبصري والمكي وغيرها. وكان لا يحفظ لوح القراءة حتى يطالع التفسير ليقف على معاني كتاب الله تعالى، وكان تارة يتعبد بضريح سيدي عبد الله الفخار، ومرة بضريح سيدي طلحة الدريج.

وكان قد عزم على بيع كتبه وطلوعه للتعبد بضريح القطب ابن مشيش فرأى سيدي طلحة في منامه فشاوره في ذلك فأمره بالرجوع لقراءة العلم، فرجع لفاس للمرة الثانية ولكنه مع ذلك لم ينشرح صدره للطلب لاستغراق قلبه في الله، ثم رجع لتطوان فتصدى للتدريس ونفع الطلبة وإفادة الواردين، فمكث على ذلك مدة من خمس أو ست عشرة سنة وهو على حالته من العبادة والزهد والإنقطاع إلى الله تعالى والاستقامة الكاملة، وقد انتفع به في هذه البرهة من الزمان خلق كثير، حتى كان جل علماء تطوان من تلامذته وحصلت له في هذه الفترة عدة تأييدات وكرامات وهو بعد لم يدخل في أي طريق من طرق القوم حياهم الله تعالى.

ثم رحل لفاس لزيارة من بها من أشياخه وصلحائها، فمر في طريقه عند رجوعه على بني زروال فزار القطب مولاي العربي الدرقاوي وتلميذه العارف سيدي محمد البوزيدي رضي الله تعالى عنهما فبمجرد ما لقي البوزيدي وهو أول من لقيه قال له جعلك الله كالجنيد يتبعك أربع عشرة مائة مرقعة، فطلب منه الدعاء فقال له والله ليكونن لك أمر عظيم، والله ليكونن لك شأن عظيم، ثم قال له والله لتكونن جامعًا بين الحقيقة والشريعة. أما مولاي العربي فقال له عندما لقيه جعلك الله

كالجيلالي، فقال له البوزيدي قد قلت له كالجنيد فقال يجمع بينهما إن شاء الله تعالى ثم لما قدم لبلاده انقلبت أحواله ووجد في نفسه قوة عظيمة وحالة لم يكن يحس بها من قبل، ثم صار شيخه البوزيدي يرسل إليه أن اقدم إلينا فإن حاجتك عندنا ويقسم للناس على ذلك لكنه لم يقدر له القدوم عليه حتى قدم البوزيدي لتطوان فلقنه الورد وسلم له سيدي أحمد نفسه، وقال له افعل بـي ما شئت ومرني بما شئت فبرك عليه وقال لأصحابه إن أصحاب سيدي أحمد أصغرهم مثل الجنيد وسيدي أحمد متصف بالزهد والورع والتوكل والصبر والحلم والرضا والتسليم والشفقة والرحمة والسخاء والكرم، وعد له عدة مقامات، فقال له سيدي أحمد: وهذا هو التصوف، فقال له سيدي البوزيدي: هذا تصوف أهل الظاهر وبقي تصوف أهل الباطن ستعرفه إن شاء الله تعالى.

ولذلك فإن سيدي أحمد بن عجيبة رضي الله تعالى عنه مع ما كان عليه من صلاح ظاهره بالتخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل واتصافه بأوصاف عالية وأخلاق سامية، فقد كانت فيه بقايا من علل نفسانية وعلى الأخص فيما يتعلق بالرئاسة العلمية والجاه بين الأوساط التطوانية، فأمره شيخه برياضة نفسه ومجاهدتها من جديد وتخريب الظاهر وإسقاط المنزلة بين الأقران والمعارف وإذلال النفس وتهذيبها وقتلها والقضاء على ما بقي من بقايا أوصافها ليتسنى له التأهل لمعرفة الله عز وجل والدخول لحضرته.

فأمره أولاً بلبس المرقعة والزهد في الدنيا وإخراج كل ما فضل عن قوت يوم أو يومين لأهله والتصدق به على مستحقيه، فخرج عن ماله وباع كل ما كان يملكه حتى خزانة كتبه فلقد باعها وأنفقها على شيخه، وأمره بخدمة الفقراء وإطعامهم من عنده مع غسل ثيابهم ثم أمره بكنس السوق وحمل الأزبال على أكتافه ورميها خارج المدينة، وأمره بلبس جراب في عنقه وربما علق في عنقه سبع جرابات، وكان أيام الحفلات والمواسم العامة والاجتماعات يأخذ قربة ماء ويدور بها على الناس فيسقيهم ويطلب منهم أجرة ذلك تظاهرًا منه لهم بالرغبة في الدنيا، ثم يدفع ما يجمعه

لصاحب القربة أو غيره، وأمره بالسؤال فكان يجلس بأبواب المساجد مع الفقراء والعميان والنسوان ويمد يده للناس مع الإلحاح ومعارفه وتلامذته يغطون وجوههم وينفرون حياء منه، وأمره بركوب الحمار والتجول عليه في الأسواق والشوارع فكان يقصد ويتعمد المرور على خصوم الفقراء وأهل الانتقاد، ومن يعظمه من أقاربه وتلامذته ليستخرج منهم ما يقتل به نفسه، ولما طال هذا الأمر عليه استأذن شيخه في العزلة والصمت فأمره بلزوم السوق يومًا بيوم فكان يظل به طول نهاره مرة قاعدًا وتارة نائمًا.

وهكذا بقي في هذه المجاهدات والرياضات حتى قتل نفسه وهذبها وأصبحت طوع يده ذليلة خاضعة لأوامره ليست لها سطوة ولا عظمة ولا نخوة بعد أن كانت تصول وتجول وتعظم وترفع وتقدر وتحترم، ولقد حدثنا رضي الله تعالى عنه أنه كان قبل ذلك لا يمر بطريق إلا تساقط الناس على التبرك به وتقبيل يده لأنهم كانوا يظنون به الولاية العظمى والصلاح التام غير أن هذه الرئاسة والعظمة لا تليق بالعبودية، ولذلك توجه شيخه الطبيب البوزيدي لتحطيمها وقلع جذورها من قلبه وباطنه، فإن ذلك صنم خفي يعبده كل العظماء من علماء وغيرهم أعاذنا الله وأجارنا من ذلك.

وبعد أن فتح الله تعالى عليه الفتح الأكبر وطرق باب الحقيقة كما حدثنا عن نفسه خرج بأمر من شيخه للسياحة لإرشاد الناس وتذكيرهم وتلقينهم الأوراد، فتجول في كثير من قبائل المغرب حتى بلغ الرباط وسلا، ودخل معه في الطريق من كل قبيلة ما لا يحصون كثرة، ولكن الحسدة وخصوم الصوفية لم يزالوا ولا يزالون يقاومون السائرين إلى الله تعالى ويعاكسونهم ويؤذونهم في كل زمان ومكان، فبمجرد ما ظهرت الطريق بإرشادات سيدي أحمد بن عجيبة وانتشرت قام أعداء القوم فوشوا بهم للحكومة الحالية وقتهم ورموهم بفظائع وأكاذيب فسجن حبيبنا ابن عجيبة وأخوه سيدي المهدي وكل الفقراء بمدينة تطوان ومكثوا بالسجن مدة كانت أيامهم بها أعيادًا وانقلب السجن زاوية ودخل السجناء كلهم في الطريق وتابوا إلى الله على يد سيدنا ابن عجيبة رضي الله تعالى عنه، ثم أفرج عنهم بعد أن أرغمتهم السلطة بالرجوع عن

الطريق، وأقاموا عليهم شهادة لذلك ثم أخرجوهم من زاويتهم بتطوان وأقفلوها، فكان هذا الحادث من الأسباب التي تركت سيدنا ابن عجيبة يغادر مدينة تطوان التي قضى فيها زمنًا غير قليل في دراسته وتدريسه وبالتالي في عبادته ومجاهداته.

فها هو الآن يتركها ويهاجر للبادية فيذهب أولاً لبني سعيد فيبني بها دارًا ويسكنها برهة من الزمان، ثم يذهب لأنجرة فيبني دارًا أخرى بالزميج ولكنه وقف أمامه في هذه الأخيرة سكان قرية الزميج حجر عثرة فمنعوه من البناء ووشوا به أمره إلى عامل طنجة فمنعه من بنائها، فانتقل لموضع آخر فمنعوه كذلك من السكنى بل أحرقوا داره ونهبوا كل ما فيها من أمتعة وفراش وقلعوا ما كان قد غرسه من أشجار.

ولكن هذا الامتحان الذي كثيرًا ما يصاب به الأكابر من أهل الفضل لم يؤثر في عزم مولانا ابن عجيبة بل سكت تحت مجاري الأقدار وصبر واحتسب. ولم يمض غير أيام قلائل فبدل الله تعالى عامل طنجة الذي كان في صف خصومه، ووضع آخر بدله فانقلب الجلال جمالاً وأفرج عنه وعن أصحابه فعمر داره بالزميج واتخذها مقرًا لبعض أزواجه وبنيه كما كان له مثلها ببني سعيد ولا يزال بكل من القبيلتين أولاده رضي الله تعالى عنه. وكان قد اجتمع له أواخر عمره أربع نسوة وكان له من الأولاد نحو تسعة.

ولسيدنا ابن عجيبة مؤلفات وآثار كثيرة لا تخلو من فوائد رائقة وتحقيقات فائقة، فله شرح على الهمزية والبردة، وشرح الوظيفة الزروقية والحزب الكبير للشاذلي، وشرح أسماء الله الحسنى، وشرح المنفرجة، وشرح تائية الجعيدي، وتأليف في الأذكار النبوية، وتأليف في القراءات، وطبقات الأعيان، وشرح حصن الحصين، وشرح الحكم العطائية، وشرح المباحث الأصلية، وشرح الصلاة المشيشية، وشرح تائية شيخه ورائيته، وشرح الفاتحة، والبحر المديد في التفسير بالإشارة مع عبارات أهل الظاهر، وشرح نونية الششتري وحقائق التصوف، وشرح الأجرمية بالإشارة، وله قصائد وتوشيحات ضمنها فهرسته. وعلى كل حال فهو من محاسن علماء الصوفية وأئمتهم.

بعض مناقبه وكراماته:

لهذا البحر العظيم مناقب جمة وكرامات هامة، فأعظمها الاستقامة، فقد حدثنا عن نفسه أنه نشأ في عفة ورعاية وحفظ، وأنه حفظ من جميع المعاصي الكبار، وأنه لم يترك يومًا ما الصلاة في وقتها منذ عقل، وأنه نشأ وشب في عبادة الله تعالى، ولم يصبه ما يصيب الشباب، بل كان وهو لا يزال يطلب العلم يتهجد ويحيى الليل بالقرآن في الصلاة مع الانقباض عن الناس والعزلة والوحدة، وقد حدثنا عن نفسه أنه قال: وقد التقيت مع الخضر عليه السلام في مقصورة جامع الجعيدي، أخذتني غيبة فرأيته رجلاً ضخمًا كبير اللحية فقرب مني حتى مس شعر لحيته وجهي وتكلمت معه كلامًا غاب عني اليوم. قال: وقد كنا في بعض الأسفار ننزل بالإذن من الله ونسافر بالإذن صريحًا. قال: وكل من فهم عن الله وحصل له التوحيد الخاص نال هذا المقام . . . إلخ.

وأخبر عن نفسه أنه ذهب مرة لزيارة أمه على طريق الجبل فدخل وقت الصلاة ولم يجد ماء فقال في نفسه: كانت الأولياء ترى الكرامات كنبع الماء وغيره، اللهم ارزقني ماء نتوضأ به. قال: فسمعت صوت الماء فوق الطريق فعدلت فإذا ماء ينزل فتوضأت وصليت وانصرفت، ولما رجعت وبلغت لذلك الموضع لم نجد للماء أثرًا. وقال: إنه شاهد كرامات كثيرة أيام مجاهداته، لكنه لم يتذكرها لطول عهده بها، وقد ذكر جملة منها مع مرائي نبوية وغيرها في فهرسته، ومنها لخصنا ترجمته مع شيء قليل من غيرها، ولمترجمنا كلام هام في عدة موضوعات من علم التصوف تجده عنده في كتبه في التصوف ولا سيما شرح الحكم والمباحث[1] الأصلية، ففيها فوائد ومعارف وحقائق فاقرأهما ولا بد.

توفي رضي الله تعالى عنه بقرية بوسلامة من قبيلة بني سلمان الغمارية بقرب

---

(١) وكذا شرح تائية شيخه البوزيدي وشرح نونية الششتري، وشرح منظومة الرفاعي: «يا من تعاظم . . .» إلخ.
وكلها عندنا مخطوطة، وفيها فوائد رائقة غزيرة. وقد طبع جميعها.

دار شيخه البوزيدي، وذلك يوم الأربعاء سابع شوال سنة ١٢٢٤، في حياة شيخه البوزيدي وشيخ شيخه مولاي العربي، وبهذه القرية دفن ثم نقل بأمر من شيخه لقبيلة أنجرة لقرية الزميج بعد مدة ووقعت في السفر به ليلاً كرامات شاهدها أصحابه الحاملون له حينما تبعهم أهل قبيلة بني سلمان، فلم يحصلوا على طائل رحم الله الجميع ورضي عن سيدنا أحمد بن عجيبة وشيخه وشيخ شيخه ونفعنا بمحبتهم وحشرنا معهم في زمرة الحبيب المصطفى ﷺ.

* * *

سيدي أحمد بن إدريس

ومنهم العلامة الإمام أبو العباس سيدي أحمد بن إدريس الإدريسي صاحب الطريقة الإدريسية، العارف الكبير والولي الشهير القطب الكامل الجامع بين الشريعة والحقيقة.

وُلد بنواحي فاس سنة اثنتين وسبعين ومائة وألف. ولما حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد القرويين واشتغل بطلب العلوم الإسلامية حتى برع فيها وحصل ما قدر له منها من عربية وفقه وتفسير وحديث، وحضر على كبار علماء وقته وأصبح من النوابغ المدرسين بالقرويين، ثم أخذ الطريقة الشاذلية عن العارف بالله المربي الكامل سيدي عبد الوهاب التازي أحد كبار تلامذة العارف سيدي عبد العزيز الدباغ مع خموله وعاميته.

ولما اجتمع به وأخذ عنه انقطع لديه ولازمه وكان قبل أن يلتقي به قال لبعض شيوخه: إيتني به أجمعه برسول الله ﷺ، وكان يقول له: قصدي أن تعرفه يا أحمد ولو جاءك في صورة كذا وكذا. وبقي في خدمته وتحت تربيته إلى أن توفي. ثم صحب العارف سيدي أبا القاسم الغازي، فقال له: إن شيخي سيدي علي بن عبد الله ترك لك أمانة فهي وديعة عندي، وبقي في صحبته إلى أن توفي أيضًا، فتاقت نفسه لمن يصحب بعده فقيل له من الحضرة الإلـهية: لم يبق على وجه الأرض أحد تنتفع به إلا القرآن، قال فجلست سنين عديدة لا أشتغل بغير القرآن العظيم، ثم آخى رسول الله ﷺ بيني وبين القرآن وقال: أبدله ما فيك من العلوم والأسرار. وفتح عليه

الفتح الأكبر، وقال عن نفسه: اجتمعت بالنبي ﷺ اجتماعًا صوريًا ومعه الخضر عليه السلام، فأمر النبي ﷺ الخضر عليه السلام أن يلقنني أذكار الطريقة الشاذلية. وكان يقول: أخذنا العلم من أفواه الرجال كما تأخذون، ثم عرضناه على الله والرسول، فما أثبتاه أثبتناه وما نفياه نفيناه.

ومن أعظم كراماته أنه كان مرة غائبًا فجاء فوجد ولدًا له قد توفي فقال له قم بإذن الله تعالى فقام.

وعلى كل فالرجل كان من الأفراد علمًا وعملاً وحالاً ودلالة. وانتقل لمكة المكرمة سنة أربع عشرة ومائتين وألف فأقام بها ناشرًا للطريق نحوًا من ثلاثين سنة ثم رحل إلى اليمن فاستوطن صبيا إلى أن وافاه أجله وذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف.

وممن أخذ عنه من الأكابر سيدي محمد السنوسي والعارف سيدي محمد المدني ظافر أحد تلامذة مولاي العربي والعارف وارث سره سيدي إبراهيم الرشيد.

وله آثار ومؤلفات، منها: «العقد النفيس» من جمع بعض مريديه. ومنها: مجموعة الأحزاب والأوراد. ومنها: السلوك. وكلها مطبوعة، وأفرده بترجمة خاصة تلميذه سيدي إبراهيم الرشيد سماها: «عقد الدر النفيس في بعض كرامات ومناقب سيدي أحمد بن إدريس» رضي الله تعالى عن الجميع.



سيدي محمد الحراق

ومن أكابر أصحاب مولاي العربي والآخذين عنه والذين تفرعت عنهم الطريق الدرقاوية، العلامة الأديب العارف شيخ الطريقة ولسان الحقيقة الشريف أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد الحراق العلمي الموسوي ينتمي نسبة إلى سيدي الحاج موسى بن سيدي مشيش أخي مولاي عبد السلام رضي الله تعالى عنهم، كان أسلافه بمدينة شفشاون وبها ولد فيما بين سنة ١١٨٦هـ، ولا تزال دارهم معروفة لحد الساعة بشفشاون بالسويقة، ولا زال الزقاق يحمل إلى الآن اسم درب الحراق. وبهذه المدينة نشأ وحفظ القرآن الكريم، ثم اشتغل ببعض الحرف إلى أن جاوز العشرين من عمره فانكب على قراءة العلم ببلده، ثم شد الرحلة لمدينة فاس ليلتحق بجامعة القرويين. ويقول مؤرخوه: أنه لما سافر لفاس لطلب العلم شق على أبويه فراقه؛ إذ كان واحد أبويه، فسافرا معه فأقاما هناك معه لمؤانسته حتى أتم دراسته وأصبح متفوقًا على أقرانه في كثير من الفنون من تفسير وحديث وفقه وتصوف وأدب وغير ذلك.

انتقال الحراق لتطوان ومحنته وتصوفه:

ولا ندري كم أقام بفاس ولا متى توفي أبواه، غير أن الذي نعرفه هو أنه لما كانت سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف جدد أهالي تطوان الجامع الكبير فبعثوا للسلطان المولى سليمان العلوي أن يرسل إليهم من فاس عالمًا ممتازًا مرشحًا عنده يكون كمدرس بها ومعمر لها، فاستشار بعض كبار علماء فاس فأشار إليه باختيار صاحب الترجمة، ففي هذا التاريخ غادر مدينة فاس متوجهًا لمدينة تطوان حيث

سيقضي باقي عمره، وحيث سيكون مضجعه ومرقده الأخير، وكان الشيخ إذ ذاك في عنفوان شبابه فوق الثلاثين من عمره، وهكذا قضت الأقدار أن يتخذ الشيخ الحراق تطوان مسكنًا له لينشر فيها علمه ويقضي بها حياته. وبما أن الحراق كان جامعًا لشتات العلوم ووجد بتطوان من ينافسه ويحسده من العلماء تآمروا عليه وبيتوا له مكيدة كانت السبب في انقطاعه عن العلوم الظاهرة والاشتغال بالتصوف والانخراط في طريق القوم.

فيذكر مؤرخوه أنه كان خطيبًا بمسجد العيون والشيخ الحراق هو ذلك الأديب الفصيح والشاعر المفلق والخطيب البليغ، فهال أمره حساده ولم يطيقوا الصبر على مظهر الحراق ومكانته العلمية، فاتفقوا مع قيّمي المسجد بأن يدبروا حيلة حتى يدخلوا بيت الخطيب وقت خطبة الجمعة عاهرة جميلة مزينة، وفعلاً وقع ذلك كما بيتوا وشهد على ذلك كل من كان حاضرًا من مصلي الجمعة واندهش الشيخ وتحير في هذه العملية المدبرة فانصرف لمنزله ولزم الفراش ومرض مرضًا أشرف به على الهلاك، ورفعت القضية للقاضي عبد الرحمن الحائك، وكان من خصومه الألداء ومنافسيه، ثم لقائد المدينة ثم للسلطان المولى سليمان، وكانت النتيجة أن يسلب الشيخ من جميع مناصبه الإمامة والخطابة والتدريس والفتوى وأن لا يتعاطى شيئًا مما كان له، وهذا ما كان يريده خصماؤه وحسدته.

وفي هذه الفترة وهو ملازم داره مريضًا من هذه النكبة قال: سبحان الله، فما فائدة هذا العلم والجاه الذي لا يوصل صاحبه إلى الله ولا يعرفه بمولاه والله لئن عافاني الله لأدخلن في طريق القوم ولألجأن إلى باب الكريم آناء الليل وأطراف النهار عسى أن يمنحني العلم النافع والفتح الواسع، فكان من الصدف أن جاءه جماعة من الفقراء الدرقاويين فطلبوا منه أن يقرأ معهم بزاويتهم الحِكم العطائية فشرع في ذلك، وكان مولاي العربي هو الآخر بعث بغلة مسرجة مع جماعة من أصحابه وأمرهم باتباعها أين تقف، وكان وقته بغمارة في عزاء تلميذه البوزيدي وذلك سنة ١٢٢٩هـ. فذهب الجماعة وراء البغلة إلى أن دخلت تطوان فوقفت بباب الشيخ الحراق فطرقوا

الباب وخرج الخادم فاستأذنه وأخبره بالجماعة والبغلة فخرج إليهم وسألهم عن أمرهم فأخبروه بالواقع فركب البغلة وذهب معهم إلى أن وصلوا لغمارة فدخل على مولاي العربي فرحب به وفرح به غاية الفرح، وبمجرد ما اتصل به فتح الله عليه وأفاض عليه من الأسرار والمعارف ما الله أعلم به، ولما قيل لمولاي العربي في ذلك قال: إن سيدي محمد الحراق جاء مزيت الفتيلة فأوقدناها له.

وهكذا أصبح الحراق من كبار الصوفية بعد أن كان مع شهواته ينظر إلى عطفه معجبًا بنفسه وعلمه، وباتصاله بالصوفي العظيم مولاي العربي وجد علاجه وذهب مرضه وداؤه وأصبح يغني بالحقائق الإلـٰهية ويدندن حول خالص التوحيد وينظم الشعر الرقيق ويقول الأزجال حول الحضرة الإلـٰهية والجناب النبوي الكريم حتى ترك لنا ثروة عظيمة في الشعر الصوفي الرقيق المؤثر وقد جمع في ديوان خاص ظهر لعالم المطبوعات منذ زمان. وبعد تصوفه كون إخوانًا وانحاش إليه جماعة ممن كانت لهم به ثقة فصاروا يجتمعون في بعض دور الأصحاب وأحيانًا يجتمعون بالمسجد الأعظم فكان ذلك من الأسباب التي جعلته يؤسس زاويته الخالدة بباب المقابر لتكون موئلاً للإخوان الصوفية ومقرًا للدعوة إلى الله تعالى.

وسيدي الحراق يعتبر من إخوان العارف ابن عجيبة والعارف سيدي أحمد بن عبد المومن الغماري وغيرهما، وإن كان ابن عجيبة اجتمع بالحراق قبل تصوفه، وقد رأى وحضر ما حصل لابن عجيبة وفقرائه من تلك المحنة وكان الحراق إذا ذاك محايدًا بينما كان علماء تطوان ضد ابن عجيبة حتى زج به وبإخوانه في السجن كما تقدم، ولكن التاريخ يعيد نفسه فقد قضى أن مات ابن عجيبة بعد فترة قليلة من المحنة ويعيش الحراق بعده مدة فيحاك له أيضًا ما حيك لابن عجيبة، هذا لتصوفه وذاك لعلمه ورئاسته.

وهكذا فقد أصبح مولاي الحراق من الدعاة إلى طريق القوم المربين للمريدين المنقطعين إلى الله عز وجل، غير أن الشيخ الحراق لم يسلك الطريق كما سلكها ابن عجيبة من التجريد وتخريب الظاهر وحمل النفس على المشاق. . . والظاهر أن سبب

ذلك هو تأهل الحراق للفتح واستعداده للحضرة الإلـهية بذلك الحادث الذي حصل له وما نزل به من الانكسار واللجوء إلى الله بالاضطرار والله أعلم.

ولذلك فقد كان الحراق يعيش عيشة المترفين حتى بعد تصوفه، فقد زاره مرة أخوه في الله وفي الشيخ العارف سيدي الحاج أحمد بن عبد المومن، فلما دخل عليه وجد ستورًا ومتارب ووسائد وخدمًا ومنزلاً أنيقًا مشيدًا فقال له: ما هذا يا سيدي محمد؟ فأجابه قائلاً: ماءها ومرعاها والجنة وراءها. فقال له سيدي الحاج أحمد: لا يا سيدي محمد بل ماءها ومرعاها والحساب وراءها. ولكل مشرب، ومقامات أحباب الله وأوليائه كلها حلوة.

هذا وقد أخذ عن سيدي محمد الحراق جماعة من أكابر تطوان وفاس والرباط، وبذلك انتشرت طريقته في سائر مدن المغرب. ولم يزل على حالته تلك حتى لحق بربه في شعبان سنة إحدى وستين ومائتين وألف ودفن بزاويته المشهورة بباب المقابر بتطوان، وترجمته واسعة جدًا وأوسع ما هو مطبوع في ترجمته «النور البراق» في ترجمة الشيخ محمد الحراق للأستاذ داود، اختصره من أصله للفقيه السيد محمد بن العربي الدلائي الرباطي المتوفى سنة ١٢٨٥هـ.



سيدي أحمد البدوي زويتن

ومن أهل هذا العصر الذين أخذوا عن العارف مولاي العربي وورثوا سره الشيخ العارف الولي الغارف سيدي أحمد بن أحمد البدوي زويتن الفاسي صاحب الأتباع الكثيرة والزوايا بالمغرب.

كان والده ذهب للحج، وفي طريقه مر على طنطا بمصر وزار السيد أحمد البدوي، وسأل الله تعالى عند قبره أن يرزقه ولدًا صالحًا ليسميه باسم البدوي تفاؤلاً وتبركًا أن يكون مثله، فلما حج ورجع ولد له فسماه أحمد البدوي فظهرت عليه بركة التسمية؛ فإنه لما تعلم الكتابة وقرأ القرآن الكريم وتعلم ما يحتاجه من العلم انقطع للعبادة ومطالعة كتب القوم وجعل إمامًا بمسجد الشرابليين، ثم تاقت نفسه لمن يأخذ بيده فاتصل بالشيخ الأكبر مولاي العربي وذلك سنة خمس عشرة ومائتين وألف فانتفع به انتفاعًا عظيمًا وتربى به وتهذب وتأدب فكان من أكابر أصحابه وخواصهم وذوي الأحوال الصحيحة منهم، زاهدًا ورعًا متقشفًا متواضعًا صابرًا حليمًا.

وكان الشيخ يشهد له بالخصوصية ومقام الصديقية. وذكر بعضهم أنه لم يخلف بعده مثله في مقامه وحاله إلا نادرًا.

وقال تلميذه العارف سيدي محمد العربي المدغري، المتوفى سنة ١٣٠٩هـ. إنه أدرك درجة القطبانية الغوثية. قال ومن رأى رسائله وتآليفه في أنواع العلوم ـ خصوصًا علم الحقائق ـ لا يمتري في أنه قطب زمانه؛ لأن الأوصاف التي ذكر أهل الطريق للقطب والعلوم التي ذكروا أنه مختص بها كلها موجودة في الشيخ رضي الله تعالى عنه.

وقد تخرج على يديه في طريق أهل الله أقوام لا يحصون كثرة.

وقد انتشرت طريقته وبنيت الزوايا باسمه في كثير من مدن المغرب وقبائله لا سيما الصحراء، وظهرت بركة أنفاسه على أصحابه وسرى فيهم حاله فكانوا كلهم أتقياء ورعين خاشعين.

توفي بفاس في ذي الحجة سنة خمس وسبعين ومائتين وألف ودفن بالسياج تحت الطالعة الكبرى بطريق سيدي أحمد الشاوي الموصلة للعيون.



سيدي الحاج أحمد بن عبد المومن

من رفقاء سيدي محمد الحراق وإخوانه في الشيخ العارف الكبير القطب الشهير سيدي الحاج أحمد بن عبد المومن الحسني الإدريسي الغماري، أعجوبة عصره ونادرة زمانه ومفرد وقته في المعرفة والعلم وهداية الخلق مع كثرة الأتباع، وبعد الصيت وانتشار الذكر.

وُلد رضي الله تعالى عنه على رأس المائتين بعد الألف، وحفظ القرآن بالسبع وأتقن علم القراءات وتضلع منه غاية، ثم طلب العلم ببلده على رجل غريب من الأولياء بسبب غريب وهو أنه قصد ضريح ولي الله سيدي أحمد الفلالي، فكان يختم فيه كل ليلة ختمة كاملة من القرآن العظيم في الصلاة ويسأل الله تعالى أن ييسر له من يأخذ عنه العلم لأنه تحير في ذلك ولم ينشرح صدره لطلبه بفاس، فاستمر على ذلك أربعين ليلة ختم فيها أربعين ختمة، وصبيحة الحادي والأربعين نزل من ضريح الشيخ المذكور فوجد بالطريق رجلاً منكمشًا في مرقعته من شدة البرد فسلم عليه وسأله عن حاله فطلب منه الشيخ أن ينزل معه فنزل معه وأكرمه وبقي ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع قال له: أتعرف من أنا؟ قال: لا. قال: أنا من بلاد بعيدة جئت مخصوصًا من أجلك، أرسلني سيدي علي بن أحمد من جبل صرصر لأعلمك العلم. ففرح غاية بهذه الكرامة العجيبة التي أجاب الله بها دعوته على يد ولي مات منذ زمان، فلازمه مدة لا تزيد على ستة أشهر فلاحت عليه لوائح الفتح وفتح الله عليه في سائر العلوم المعقول منها والمنقول بحيث صار إمام وقته في تلك البلاد وما والاها في علوم الظاهر مع ما كان عليه من التقوى والصلاح والاجتهاد في العبادة.

ثم بعد هذا تعلقت همته بسلوك الطريق فأخذ أولاً الطريقة الناصرية على الشيخ محمد خمريش وأسس زاويته ببلده لذكر وظائفها ثم لما تحقق أنها طريق ذكر وتبرك لا طريق فتح وسلوك، جرد سيف العزم لطلب الشيخ المربـي فقصد الحجاز لأداء فريضة الحج والبحث عن القطب ومر في طريقه على القاهرة فاجتمع بالعارف الصاوي وأخذ عنه الطريقة الخلوتية بقصد التبرك، ثم لما وصل إلى عرفة بينما هو واقف بها إذ حاذاه رجل وقال له: أتدري من قبل الله حجه في هذا الموقف؟ قال: لا. قال: قبل حجتي وحجتك، وبسببنا قبل حجة الجميع. ثم قال له: والقطب الذي تطلبه تركته في بلدك وهو العربـي بن أحمد الدرقاوي. قال: فحصل لي من الفرح ما لا يعلمه إلا الله.

ولما رجع توجه لمقابلة الشيخ، ولما كان بالطريق مر على عين ماء فاغتسل منها وقال لمن كان معه: إني اغتسلت من علمي وعملي.

ولما اتصل بالشيخ فرح به فرحًا عظيمًا ولقنه الإسم المفرد بالكيفية التي أخذها عن شيخه القطب سيدي علي الجمل رضي الله تعالى عنه. ثم لم تمض إلا أيام يسيرة حتى لاح له الفتح وطويت له الطريق في العلم الباطن كما طويت له في العلم الظاهر وصار يترقى في المعارف إلى أن حل مقام القطبانية وورث مقام شيخه كما أخبر شيخه بذلك قبل وفاته، وبعد موته لبعض أصحابه وأذن له شيخه في التربية والتسليك فتصدر لذلك في حياة شيخه واشتهر، وبعد صيته، وأقبل الخلق عليه وقصدوه للانتفاع في علم الظاهر والباطن؛ فإنه كان طويل الباع في العلوم والمعارف، شديد الاستحضار، آية من آيات الله، إذا تكلم بهر العقول حتى قال بعض بني سودة لولده سيدي الصديق: لقد طفت بالمشرق والمغرب للبحث عن الشيخ ورأيت عددًا كبيرًا من المشايخ فما رأيت أفضل من والدك، ولا أعتقد أن يوجد من هو أكمل منه وأفضل إلا النبـي ﷺ.

ولما اجتمع بشيخ القراء في عصره العلامة سيدي إدريس البكراوي وبات يذاكره ليلة إلى الصباح في علم القراءات، قال له: ما كنت أظن أنه بقي من يذاكرني

في هذا الفن، وإذا مت أنا وأنت انقطع من يُتْقِنُهُ. فقال له الشيخ: لا تقل هذا، فإن فضل الله لا ينقطع.

وكان رضي الله تعالى عنه ذا جد واجتهاد في العبادة وعمارة الوقت حضرًا وسفرًا.

وكان ورده من القرآن ختمة لكل ليلة، وكان له ورد من صحيح البخاري يقرأه كل يوم بعد صلاة الصبح، وكان على قدم عظيم في الزهد والعزوف عن الدنيا والتقشف. وله كتاب نفيس في آداب المريد ورسائل عديدة مجموعة في مجلدة لطيفة هي غاية في الإرشاد والدلالة على الله تعالى.

وظهرت على يديه كرامات كثيرة جدًا:

منها: أنه أتى مرة إلى تطوان، وكان قائدها أشعاش سجن رجلاً، فجاءت والدته إلى الشيخ وطلبت منه أن يستشفع لولدها عند القائد فأجاب طلبها وتوجه إليه، فلما رآه القائد من بعيد عرف أنه يقصده في أمر فقال لحاجبه اصرفه عني بما تراه، فخرج إلى الشيخ ولقيه من بعيد قبل أن يصل إلى باب المحكمة سائلاً إياه عن مراده، فقال له: جئت مستشفعًا في ولد هذه المرأة. ثم غرز عكازه بالأرض وقال: الله، مادًا بها صوته. فصار القائد يشير إلى الحاجب نحو السجن، أي: اذهب وأخرجه، فذهب وأخرجه، وانصرف الشيخ، فتكلم القائد وقال لأصحابه: لولا أنكم بادرتم بإخراج الرجل من السجن لخرجت روحي؛ فإنه لما غرز عكازه في الأرض أحسست بها كأنها مغروزة في صدري حتى كدت أموت ولم يبق لي لسان أنطق به.

ومنها: أن تلميذه سيدي حلحول كان معه بتجكان مدة طويلة، قال: فبينا أنا ذات يوم جالس، إذا بالشيخ أتاني بكتاب مختوم، وقال: اذهب على بركة الله، فأخذت الكتاب وانصرفت ولم أدر لمن الكتاب ولا إلى أين أذهب فقصدت داري، فلما كنت بنصف الطريق قابلتني امرأة من مدشرنا فقالت: عظم الله أجرك. فقلت لها: فيمن؟ قالت: قد وقعت الدار على المرأة والأولاد ومات الجميع، وقد دفنوا.

قال: فعند ذلك فكرت في كتاب الشيخ وعلمت أنه لي، ففتحته فإذا فيه: وبعد، فما دمت تركن إلى أهل وولد ووطن وأخلاء ومسكن فلست بقائل لا إلـه إلا الله على الإطلاق، والسلام.

قال فرجعت إليه، فلما رآني قال قبل أن أكلمه: عظم الله أجرك، وفي سبيل الله ما نزل.

ومنها: أن جماعة من تلامذته بفاس دعوه في بعض قدماته إليها لتناول طعام الغداء، واتفقت دعوتهم في يوم واحد فأجاب الكل وحضر عند الجميع في وقت واحد.

ومنها: أنه دخل يومًا إلى المسجد لصلاة الجمعة وقد بقي لخروج الخطيب نحو ربع ساعة فافتتح يصلي ركعتين فختم فيهما القرآن بتمامه ورجل إلى جنبه يستمع ثم خرج الخطيب.

وله كرامات غريبة مذكورة في «سبحة العقيق»، وفي «المؤذن بأخبار سيدي أحمد بن عبد المومن» كلاهما لأبـي الفيض حفيده سيدي أحمد بن الصديق رحمه الله تعالى ورضي عنه.

والشيخ المترجم له هو جد الصديقيين بطنجة وتطوان وسلا وفاس وغيرها، وهو أحد من تفرعت عنه الطريقة الدرقاوية الشاذلية، ومن أجلّ من أخذ عنه العارف الكبير ذو الصيت الواسع والأتباع الكثيرين سيدي عبد القادر بن العارف أبـي العباس سيدي أحمد بن عجيبة، فالطريقة العجيبية إليه ترجع ومنه تفرعت.

توفي رضي الله تعالى عنه ضحوة يوم الأربعاء سابع عشر جمادى الأولى من سنة إثنتين وستين ومائتين وألف ودفن بتجكان وقبره مزارة عظيمة، ويقام له موسم كل سنة رضي الله تعالى عنه وعنا معه، آمين.



سيدي محمد بن جعفر الكتاني

وبعد هذا يأتي عَلَمٌ آخر من أعلام هذا القطر العزيز ذلكم هو الإمام العلامة المحدث الفقيه الصوفي العارف بالله شيخ شيوخنا أبو عبد الله سيدي محمد بن جعفر بن إدريس بن الطائع الحسني الإدريسي الكتاني الفاسي، ولد سنة أربع وسبعين ومائتين وألف تقريبًا ونشأ في حجر والده وحفظ القرآن وبعض المتون المتداولة.

وقرأ على والده في النحو واللغة والفقه والحديث والأصول والتوحيد وغيرها وسمع عليه الصحيح أزيد من عشرين مرة ولازمه وانتفع به كثيرًا وهو عمدته وإليه ينتسب، وأخذ عن جماعة آخرين كأحمد بناني ومحمد التاودي بن سودة وعبد الله بن إدريس البكراوي في آخرين، ورحل إلى الديار الشرقية فأخذ بمصر عن عبد الرحمن الشربيني وسليم البشري وأحمد بن محجوب الرفاعي، وبالحجاز عن حسين بن محمد الحبشي وحبيب الله الهندي وأحمد بن إسماعيل البرزنجي ومحمد أمين رضوان وغيرهم، وبالشام عن بدر الدين البيباني وجمال الدين القاسمي ويوسف بن إسماعيل النبهاني ومحمد أمين البيطار وغيرهم.

وكان ذلك في رحلات متعددة؛ فإنه حج سنة إحدى وعشرين ودخل مصر والشام ثم هاجر بأهله إلى المدينة سنة خمس وعشرين وأقام بالمدينة إلى سنة ست وثلاثين، حج فيها أربع حجات ودرس بالحرم النبوي. كتب السنة والسير وغيرها كالموطأ والصحيح والهمزية والبردة، ثم خرج منها مجبرًا مرغومًا بسبب الحرب العالمية الأولى، فسكن دمشق من سنة ست وثلاثين إلى أن رجع إلى المغرب سنة

خمس وأربعين وثلاثمائة وألف، وقرأ بالشام الصحيحين وسنن النسائي وشمائل الترمذي وجملة من مسند الإمام أحمد، وكان بالحجاز والشام معظمًا محترمًا معتقدًا مقصودًا بالزيارة والتبرك، وحصلت له شهرة كبيرة وإقبال عظيم في كلا القطرين وغيرهما. وكان يحضر دروسه بالجامع الأموي كل علماء دمشق لا يتخلف أحد منهم إلا الشيخ بدر الدين.

وكان رضي الله تعالى عنه إمامًا عالمًا عارفًا زاهدًا ورعًا ناسكًا خاشعًا متواضعًا محبًا في العلم وأهله، سيما علم السنة عظيم العناية به صارفًا جُلَّ أوقاته في خدمته مطالعة وكتابة ومذاكرة وتدريسًا وتصنيفًا، عاملاً بالسنة في نفسه وأهله وعياله، مقدمًا لها في الكثير على أقوال أهل مذهبه مع إعظامه واحترامه لسائر المذاهب واشتغاله بها وجمعه لكتبها واعتنائه بمطالعتها، بحرًا في التصوف وأخبار العلماء والأولياء والصلحاء يحفظ من كراماتهم وأحوالهم ما يملأ به المجالس ويعمر به الأوقات الطويلة، شديد التواضع حسن الأخلاق لين الجانب مع الكبير والصغير معظمًا للزائرين له مكرمًا لهم، كثير البر بهم، وربما خدمهم بنفسه، سمح الكف عظيم الجود مطعمًا للطعام لا يخلو بيته من الضيوف، حسن الظن، كثير الاعتقاد لا يتهم أحدًا في دعوى على أي حالة، كان ولوعًا بزيارة الأولياء دائم الطواف على الأحياء منهم والأموات، يشد الرحل البعيدة لزيارتهم، نقيًا ورعًا شديد الشكيمة في الدين لا يعرف لهوًا ولا مزاحًا ولا تساهلاً في أمر الله، تعتريه حدة وغضب إذا رأى ما يخل بالمروءة والدين، منور الوجه ذا سمت حسن ولين في الكلام، يكثر الأنين والتأوه والتفكر. له أذكار كثيرة يذكرها حضرًا وسفرًا.

طريقته الأصلية شاذلية درقاوية أخذها عن جماعة، منهم: مولاي عبد الرحمن بن الطيب بن مولاي العربي الدرقاوي... ومحمد بن علي الحبشي وسيدي علي شقور العلمي وغيرهم، وهي عمدته وطريقة أسلافه، ولكنه كان يتبرك بالجميع فأخذ الطريقة العليوية والخلوتية والنقشبندية والناصرية والريسونية والوزانية وغيرها وأخذ طرقًا أخرى خاصة عن رجال أخذوها عن النبي ﷺ من أهل المشرق

والمغرب. وحدث عنه شيخنا أبو العباس مولاي أحمد الصديق رحمه الله تعالى أنه وقع له مرة وهو بالطريق بين مكة والمدينة راكبًا على شقدف والسبحة بيده يذكر الله بها أن انفتحت له الطريق من محله إلى فاس حتى رآها وكأن شيخًا لطيفًا واقف بإزائي يقول ها هي الطريق سالمة ليس بها بأس فارجع إلى فاس فالتفت فإذا عن يميني شخص آخر خيل إلي أنه رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أريد منك أن نذهب. فسكت، ثم انجلى ما بي في أسرع وقت، والسبحة لا زالت بيدي والذكر في لساني لم ينقطع.

قال وكنت مرة أذكر الله تعالى بضريح مولاي إدريس الأكبر فرأيت شيخًا لطيفًا وقف بين يدي فقلت له: ما الذي قطع فلانًا عن الله؟ وسميت بعض من كان في الوقت ينسب إلى الصلاح ويحدث عن نفسه بأشياء. فقال: كثرة مزاحه مع الناس. وكان سؤالي له بلساني الذي أذكر به من غير قطع للذكر الذي كنت مشتغلاً به وكل هذا في اليقظة لا في النوم. اهـ.

وله مؤلفات كثيرة في الحديث والتصوف والتاريخ وغيرها، وهو من كبار شيوخ العارف سيدي محمد بن الصديق ونجله الأكبر مولاي أحمد رحمهم الله جميعًا ورضي عنهم وعنا معهم.

توفي رضي الله تعالى عنه بفاس سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وألف، ودفن بالقباب خارج باب الفتوح ثم بعد دفنه بعشرين شهرًا نقل إلى زاوية بنيت خاصة من أجله بداخل فاس وذلك سنة سبع وأربعين وثلاثمائة وألف. ولما فتح عليه وجد جسمه كما هو لم يتغير منه شيء، وفاحت منه رائحة المسك. وعلى كل فقد كان من أئمة الهدى ومن أفراد هذه الأمة رضي الله تعالى عنه.



سيدي محمد بن الصديق

ولنختم هذه التراجم بعلم من الأعلام، نادرة الزمان، القطب الكامل والفرد الجامع، الختم المحمدي أبـي عبد الله سيدي محمد بن الصديق الحسني الإدريسي الغماري صاحب الطريقة الصديقية ومؤسسها ووالد الصديقيين بطنجة.

وُلد سنة خمس وتسعين ومائتين وألف بقرية تُجكثان من قبيلة بني منصور الغمارية، وحفظ القرآن الكريم مبكرًا وقرأ بعض مبادىء العلوم في بلاده، ثم شد الرحل لفاس والتحق بجامعة القرويين.

وقرأ على كبار علمائه كالإمام العارف السيد محمد بن جعفر الكتاني، والعلاَّمة العارف شيخ الجماعة السيد أحمد بن الخياط الزكاري، والعلاَّمة السيد الفاطمي الشرادي، والعلاَّمة السيد محمد بن التهامي كنون، والعلاَّمة السيد أحمد بن الجيلالي، وفقيه المغرب المهدي الوزاني وغيرهم، وكان أيام إقامته بفاس نازلاً على شيخه العارف سيدي محمد بن إبراهيم، وكان قد قرأ معه الحكم العطائية والعهود المحمدية والمنن الكبرى ورسائل جده سيي الحاج أحمد، ولقنه الورد الشاذلي وتولى تربيته وتسليكه وتهذيبه، فعادت عليه بركته وبركة أجداده ففتح الله تعالى عليه الفتح الأكبر في العلمين الظاهر والباطن فأصبح أعلم أهل عصره وأعرفهم بربه.

ثم التحق بمدينة طنجة فتزوج بنت خاله السيد عبد الحفيظ بن عجيبة، وكان ذلك بإذن من شيخه فأقام بها واتخذها دارًا له فتصدى لنشر العلم والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتف حوله جماعة من أهالي طنجة فدعاهم

إلى اعتناق طريق القوم فلبوا دعوته فلقنهم الورد الشاذلي وجعلوا يجتمعون بزاوية العارف سيدي محمد الحراق.

ثم لما كثروا أسس زاويته التاريخية الحالية التي دفن بها وجعلها مقرًا لدعوته وللمنقطعين إلى الله فاشتهر أمره وطار صيته فقصده الناس للأخذ عنه وللانتفاع به، وتخرج على يده جماعات وجماعات في علم الظاهر وفي طريق التصوف، وقد أدركنا وصحبنا جماعة من أصحابه عادت عليهم بركاته وشملتهم نظرته، أثر العبودية والسعادة بادية عليهم وسيما الخير ظاهرة على وجوههم يستسقى الغمام بهم لصلاحهم وقيامهم بالعبودية الخالصة الصادقة.

حالته العلمية ومواهبه الفتحية:

كان رضي الله تعالى عنه إمامًا في سائر العلوم محققًا حافظًا متقنًا واسع الاطلاع مديد الباع قوي الحجة والعارضة فصيحًا فطنًا ذكيًا غاية في الاستحضار بل آية وأعجوبة من عجائب الدهر، فكان يبهر العقول بحيث كانت مجالسه العادية على الدوام كأنها دروس كبار العلماء الحفاظ الذين يتعبون في جمع ما يلقون فيها الساعات المتعددة. قال نجله الأكبر مولانا أحمد: ما رأيت من علماء عصره بالمغرب والحجاز ومصر والشام من يدانيه إلاَّ شيخنا الإمام سيدي محمد بن جعفر في التراجم في تراجم الأولياء ومناقبهم خاصة وشيخنا الإمام محمد بخيت في مسائل الفقه والمعقول خاصة. قال بل ما رأيت درسًا جامعًا لغرائب العلوم ونوادر الأخبار ونفائس الفوائد كمجالسه الدائمة . . . إلخ.

والعلوم التي كانت له فيها اليد الطولى هي: الفقه على سائر المذاهب والأصول والكلام والتصوف والتفسير والحديث والعلوم العربية والتاريخ والتراجم والطب والأنساب والسياسة الشرعية وسر الحروف وخواص الأسماء.

غير أن الذي كان متخصصًا فيه هو التصوف، فكان بحرًا فيه فهو علمه، ومن صدره تتفجر منابعه وعيونه، سواء تصوف الأخلاق والإرشاد والسلوك والعمل،

أو تصوف العلم بالله والحقائق وأهل الفناء في وحدة الشهود أو وحدة الوجود، فكان على قدم راسخ في ذلك، وقد أخبر عنه جماعة من أولياء عصره بأنه بلغ القطبانية، ومن علو شأنه في ذلك أن شيخه سيدي محمد بن إبراهيم بايعه وطلب منه تلقين الورد، فلما امتنع من ذلك تأدبا مع شيخه أقسم عليه في ذلك وقال له: ما أنا إلاَّ عبدك بلغت الأمانة التي أودعها جدك سيدي الحاج أحمد عند شيوخي وهم أودعوها عندي، وأنا قد رددتها إلى محلها. ثم أمر أصحابه أن يتلقنوا منه ذلقن الشيخ جميعهم امتثالاً لأمر شيخه.

وكان العارف سيدي الطاهر التسولي يقول لتلامذته: لا تدعوه إلاَّ سيدي محمد الكامل. وحدثني شيخي العلاَّمة ولي الله الشريف سيدي أحمد بوزيد رحمه الله أنه سأل مرة الشيخ عما يقال في سيدي أحمد التيجاني. فقال له: كنت مرة بالزاوية التيجانية عقب صلاة العشاء فرأيت رسول الله ﷺ يقظة خرج من المحراب فقمت وسلمت عليه ثم خرج وراءه سيدي أحمد التيجاني فسلمت عليه، وقلت له: أحق ما يقوله أصحابك أنك الختم؟ فقال له: وأنت الختم أيضًا، هكذا سمعت منه والله على ما نقول وكيل.

وفي ذلك شهادة من سيدي أحمد التيجاني بمحضر رسول الله ﷺ بأن الشيخ ختم، وهذا مقام خاص لا يصله إلاَّ أكابر العارفين، وكان رضي الله تعالى عنه أوائل أمره يكثر من التعبد والرياضة ومجاهدة النفس خلاف أواخر حياته، وهذا شأن الواصلين الكمل.

بعض أخلاقه وأوصافه:

كان رضي الله تعالى عنه كامل الذات ذا نور وبهاء وهيبة، إذا رؤي ذكر الله لا يكاد أحد ينظر إليه، وكان أعداؤه إذا رأوه سقطوا على يده يقبلونها بدون أن يشعروا، شديد الحياء لا يكاد يكلم إنسانًا وهو ينظر إليه، ولا يواجه أحدًا بما يكره، ولا يمتنع من شي طلب منه، ويتحمل ضرر الثقلاء وكثرة كلامهم، ولا ينصرف عنهم

حتى يكونوا هم الذين ينصرفون، ولا يعارض أحدًا ولا يرد عليه كلامًا ولا يكذبه في خبر ولو تحقق كذبه، وكان لا يحضر المحافل العامة، فإذا حضر كان على غاية من الكمال والتواضع.

وكان على أدب كامل مع الله وشريعته وسنَّة نبيه المطهرة، وقافًا عند حدود الله، لا يخالف نصًا من نصوص الشرع ولا يخرج عن طريقة الآداب الشرعية في شيء أصلاً، حتى كتب العلم كان يتأدب معها فلا يضع كتاب نحو أو تاريخ أو لغة فوق تفسير أو حديث بل يضع كتب التفسير العليا ثم التي تليها كتب الحديث ثم الفقه والتصوف وهكذا.

وكان سليم الصدر والنية، كثير التصديق، حسن الظن لا يتهم أحدًا بكذب أو خديعة.

وكان من أزهد الناس في هذه الحياة وأبعدهم عما يقرب إليها بل ما سمع بأحواله في الزهد منذ أمد بعيد حتى بلغ به الحال فيه أنه كان لا يهتم بشؤون البيت ولوازمه الضرورية، ولا يفكر فيه ولا يسأل القيم عماذا أنفق وعما بقي، ولا يكاد يحمل معه النقود لا حضرًا ولا سفرًا ولا يأكل في اليوم إلاَّ أكلتين يفطر في الصباح ويتغدى بعد العصر، ولا يتعشى، وكان يلبس من الثياب ما وجد، لا يختار منها شيئًا ولا يتخذ ثوبًا للزينة كالعادة، وهكذا كان يأمر أولاده وزوجاته ويقول لهم: إنكم لن تزالوا في نعمة وسعة وستر أحياء وأمواتًا ما فعلتم ذلك.

ومن زهده وعدم اكتراثه بالدنيا أن كثيرًا من أصحابه كانوا يهدون له الأثلاث، فكان يردها ولا يقبلها منهم، وتوفي والده سيدي الصديق فما سأل عن إرثه ولا فكر بل تركه لإخوته، وجاءه مرة مندوب إسبانيا وقدم إليه أربعين ألف ريال إسبانية ليوافق على تولية بعض الظلمة الجائرين على القبائل الغمارية، فقال له: لو ملأت لي هذه الغرفة ذهبًا ما وافقت على تولية رجل يظلم الناس ويسلب أموالهم . . . إلخ.

وعرضت عليه فرنسا مساعدات له ليوافقها على مرادها فرفض ذلك.

أما توكله على الله فكان توكل العارفين من أفراد هذه الأمة الذين أطلعهم الله على اللوح المحفوظ فشاهدوا فيه رزقهم وحصل لهم بذلك الاطمئنان التام، فكان لا يهتم برزقه ولا يذكره على لسانه مع عظم نفقته وكثرة العائلة التي كانت تزيد على عشرين نفسًا زيادة على الضيوف الذين لا يخلو منهم يوم ولا يزرع ولا يتجر ولا له وظيفة ولا مرتب إلا ما كان يأخذه من الأوقاف مما لا يكفي نفقة يوم واحد، ومع هذا فكان إذا فتح عليه بشيء وجاء سائل أو محتاج دفعه إليه برمته أيًا كان عدده، بل كان يستدين ليساعد من يأتيه في حاجة، وله في ذلك أخبار وحكايات غريبة.

أما ورعه فكان عجبًا فيه، وقافا عند الشبهات شديد التحفظ والتيقظ حتى أنه كان لا يتناول طعام الكفار ولا حلواءهم. ولما سافر إلى القاهرة لحضور المؤتمر الإسلامي لم يتناول طول سفره ما كان يقدم إليه من فاخر الأطعمة في الباخرة، بل كان يقتصر على ما لا شبهة فيه كما أنه كان لا يستعمل دواء الكفار خوفًا من أن يكون فيه خمر أو نجاسة، مع أنه كان يأمر غيره بالتداوي وتناول الدواء، وكان لا يترك ثوبًا أو آنية في بيته فيها صورة ولو غير مجسمة.

ومن ورعه أنه ما أخذت له صورة فوتغرافية أصلاً، وكان لا يكثر من تناول الشهوات ولو كانت مباحة ويذم من يتبع ذلك، وذلك لفقدان الحلال الخالص.

وكان يحترم آل البيت الأطهار ويجلهم ويتأدب مع أشياخهم وأولادهم وحملة القرآن وطلبة العلم ويبالغ في إكرام الجميع ولو كانو غير مستقيمين، وإذا بلغه عن أحد كلام قبيح فيه أو إذاية له فرح لذلك ولا يتغير ولا يضجر ولا يضيق، وكان إلى جانب ذلك شديدًا على الكفار وخاصة فرنسا وإسبانيا المستعمرين لبلادنا، فكان يعاديهما عداوة سافرة ويسب فرنسا في دروسه على ملا من الناس والجواسيس وله معهما مواقف فلينظرها مبسوطة من أرادها في «سبحة العقيق» بأخبار سيدي محمد بن الصديق المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط، وفي مختصره «التصور والتصديق» وهو مطبوع، ولم يزل معاكسًا لهم حتى لقي الله تعالى حتى إن حاكم فاس

الفرنسي بول أودينو كتب مقالاً نشرهُ في جريدة لا مجيس مرو كان بتاريخ سابع عشر أبريل من سنة سابع وعشرين وتسعمائة وألف عنوانه: «مولاي التقي» ذكر فيه أن جميع شيوخ المغرب خدموا فرنسا إلاّ الشيخ الدرقاوي بطنجة.

وكان الشيخ رضي الله تعالى عنه أول رجل قام في وجه فرنسا بالمغرب عندما أسسوا مدرسة بطنجة فألقى بمناسبة ذلك بالزاوية الناصرية خطبة عظيمة بليغة مسهبة حذر فيها المسلمين من إدخال أولادهم لمدارس الكفار وذكر لهم أن هذه أول لبنة يضعونها للقضاء على القرآن ودين الإسلام وإفساد أولاد المسلمين، وقامت لذلك قيامة فرنسا حتى همت بنفيه وجلائه من طنجة. لكن الله تعالى رد كيدها في نحرها وخاب سعيها وسلمه الله تعالى منها، وهكذا كانت مواقفه مع إسبانيا، فقد خرج بنفسه للقبائل الغمارية والجبلية يحرض أهلها على جهاد الإسبان ويأمرهم بالصمود، وحضر معهم بنفسه وقعة دار ابن قريش المشهورة، وكان من المساعدين للأمير ابن عبد الكريم في حركته بالمال والرجال كما بسط ذلك سفيره العلاَّمة عبد الكريم في حركته اللوه في مذكرته، وقد طبع هذا القسم في رسالة مؤخرًا تحمل اسم «نبذة تاريخية عن حياة الشيخ سيدي محمد بن الصديق».

ثم إنه لما رأى الأمور في تدهور والمسلمين في تخاذل واتصال بالعدو، ودخلت الخيانة بين رئاسات المجاهدين دخل داره ولزم بيته فلم يخرج منه مدة من خمسة عشر عامًا إلاَّ مرة واحدة خرج في سفره للقاهرة لمؤتمر الخلافة، ثم لم يخرج حتى توفي رضي الله تعالى عنه.

وكان لشدة بغضه للكفار مع ما يطالبه الشرع شديد الكراهة للتشبه بالكفار بعيدًا عن ذلك ولو في الشيء اليسير، ويبالغ في الزجر عن ذلك والنهي عنه، ويتعجب[1] من حال علماء مصر في التشبه بهم في لبس أحذيتهم وهيئة فرشهم ومساكنهم وقص

---

(١) كان يتعجب من علماء مصر فقط لأن هذا الداء كان لم يتسرب بعد إلى علماء المغرب، ولو رأى علماء مغربنا وما آل إليه أمرهم من الإغراق في اتباع حضارة أوروبا وانحلالهم من أخلاق الإسلام وتفرنجهم وتفرنج أولادهم وبناتهم ونسائهم و و و، لكان تعجبه أعظم وأعظم.

اللحي وحلقها، ويقول: ما شموا رائحة العلم ولا وصل شيء منه إلى قلوبهم، وإنما هم سماسرة الشر والفساد يحترفون بالعلم ويأكلون به ويضلون من يقتدي بهم لظنهم أنهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ومعاذ الله أن يكونوا ورثة الأنبياء مع ما هم عليه من هتك الشريعة، وخراب الدين، فكان لا يتصور أن تقطع الخبز بالسكين على مائدته أو يلبس حاجة ما فيه تشبه بالكفار لولده الطفل الرضيع ابن شهرين فضلاً عمن فوقه.

ولما دخل دار بعض كبار العلماء ومشايخ الإسلام في مصر ورآى هيأته الفرنجية المنكرة، كان يتعجب ويضحك من صنع الله بهم ولا ينقضي عجبه منهم.

وكما كان يبغض الكفار وما يؤول إليهم كان يبغض الظلمة وأئمة الجور، ويحذر من الركون إليهم وينهى كل من يحبه عن العمل لهم والتوظيف معهم وخاصة خطة القضاء أو الشهادة في الوقت الذي كان لا يزال القضاة يحكمون بالفقه الإسلامي، وكان يأمر بالتجارة والتكسب بالحرفة، ويقول: لأن يبيع الإنسان الفحم والحطب والنعناع ويدور به في الأسواق والشوارع خير له في دينه ومروؤته من تولية القضاء، والشهادة اليوم لغلبة الشر والفساد. بل كان يجعل مجالسة القضاة والعدول دليلاً على فساد الأخلاق والتهور في الدين، بل نهى بعض أنجاله مرة عن المرور من الشارع الذي فيه دكاكين العدول.

بعض كراماته:

هذا باب واسع جدًا، فإنه لا يكاد يوجد أحد من أصحابه المتفرقين إلاَّ وعنده في هذا الباب أخبار ووقائع، إما شاهدها بنفسه أو سمعها ممن شاهدها.

فمن ذلك: أنه لما كان بفاس صعب عليه علم الأصول، فرأى في المنام القطب الشعراني يقرأ معه جمع الجوامع من أوله إلى نهايته، فلما استيقظ أصبح يفهمه ولم يقرأه بعد ذلك على أحد، وصار إمامًا فيه.

ومنها: أن بعض أصحابه شكى إليه مرضًا بزوجته فأمره بإطعامها اللوز المدقوق بالزعتر، وقال: إنها ستلد فكان كما قال.

ومنها: أنه لما ولد له آخر أنجاله قال لزوجته إن والدي مات وترك ولده فلانًا ابن شهرين وأنا كذلك سأترك ولدي هذا ابن شهرين، فمات بعد شهرين.

ومنها: أن امرأة من أقاربه كان توفي لها ولد ولم تلد عشر سنين، فتنبأ لها: إنك ستحملين قريبًا بولد ذكر فسميه حمزة، فكان كما قال.

ومنها: أنه في السنة التي توفي فيها قام ذات ليلة في منتصف الليل على عادته وكانت الزوجة نائمة فانتبهت على سماع حركة وجلبة وأخذ وعراك شديد وبعدها سقط الشيخ سقطة منكرة فقامت فزعة فإذا هو جالس يلهث لهثًا عظيمًا، وإذا حاجِبُهُ مشجوج ووجهه وصدره مكسوان دمًا فسألته عن الواقع فأجابها بأنه سقط على الحصير، فقالت: كيف يحصل مثل هذا الجرح العظيم من السقوط على الحصير مع أني كنت أسمع حركة وجلبة على إثرها استيقظت فأصر على ذلك وهو يضحك ويمسح الدم عن وجهه. ولما شاع خبر ذلك سأله بعض من له مزيد اختصاص فأخبره بأن وليًا لله تعالى من أهل اليمن كان يتعرض لبعض مصالح المسلمين فحصل بيني وبينه نزاع أدى إلى المضاربة والمقاتلة فقتلته[1] بعد أن شجني. ثم بعد هذا الحادث بسنة توفي.

ومنها: ما حدَّث به بعض الأشراف الصالحين من أهل فاس قال: جاءه الشيخ من طريق الطي ومكث في ضيافته ثلاثة أيام ما خرج من الدار ولا رآه أحد وهو مقيم بطنجة.

ومنها: ما ذكره نجله الأكبر سيدي أحمد في التصور والتصديق وغيره، أنه لما كان بالقاهرة كان يفعل أشياء أو يعزم على شيء فيأتيه منه كتاب من المغرب بعد العزم بيومين أو ثلاثة يحذره منه ويذكر له عاقبته أو يأمره به ويؤكد عليه فيه.

ومنها: ما حدثني به أستاذنا العلاَّمة الشريف السيد محمد المنتصر بن الزمزمي

(١) هذا شيء يحصل بين أولياء الله الذين مكنهم الله في التصريف في هذا الكون ويقع ذلك منهم بالأرواح من طريق الخطوة والغيب ولا يعرف هذا إلَّا من وصله أو شاهده أو تحققه بإيمانه وتصديقه لمن يصدر منهم.

الكتاني أنه كان نازلاً ضيفًا على الشيخ مع والده وأخيه الناصر، فقال له الشيخ يومًا: هل رأيت رسول الله ﷺ يومًا ما من حياتك في المنام، فأجاب: لا. فقال له: كيف لم تره وأنت ولده، أتحب أن تراه هذه الليلة؟ قال: نعم، فأمره أن ينام بالزاوية على طهارة مع تقديم أذكار النوم، ففعل. قال: فلما نمت رأيت كأن رجلاً مقبلاً راكبًا على فرس وحوله جموع من الناس، فقيل لي: هذا رسول الله قم لتسلم عليه... في رؤيا طويلة. قال: فلما أصبحت ولقيت الشيخ جعل يضحك، ويقول: رأيته قص عليَّ الرؤيا... قال: وأخبرني يعني في تلك المدة أنني سأسكن الحرمين الشريفين ... إلخ.

وكان ذلك من أكثر من ستين سنة تقريبًا وهو الآن يتردد بين الحرمين الشريفين مقيم بهما منذ سنين.

والأخبار في هذا الباب واسعة فمن أراد المزيد فليرجع إلى «التصور والتصديق» أو أصله «سبحة العقيق».

وظائفه وأوراده:

كان للشيخ رضي الله تعالى عنه وظائف وأوراد يذكرها ويحافظ عليها ويأمر بها أصحابه.

وله وظيفة خاصة به طويلة يتعاهدها صباحًا ومساءً وأوراد من الاستغفار والهيللة والاسم المفرد يذكرها في أوقاتها الخاصة، وكان لا يفتر عن ذكر الله تعالى له سبحة لا تفارقه حتى عند النوم، وهذا عدا تلاوة القرآن الذي كان يتهجد به كل ليلة ويتلوه آناء الليل وآناء النهار وكثرة الصلاة على رسول الله بدلائل الخيرات وغيره.

أما أصحابه فكانوا على قسمين: أهل النسبة والتبرك وهم أكثرهم، وأهل السلوك والتربية وهم أقلهم.

أما القسم الأول فكان يلقنهم أن يذكروا صباحًا ومساءً: مائة من الاستغفار، ومثلها من الصلاة على رسول الله، ومثلها من (لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير). ووظف لهم وظيفة صغرى تقال عقب

صلاتي الصبح والمغرب، وهي: خمس من الاستغفار، وخمس من الصلاة على رسول الله، وخمس من لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له . . . إلخ، وخمس وعشرون من حسبنا الله ونعم الوكيل وخمس من سورة الإخلاص. ثم وظيفة أخرى متوسطة، وهي المتداولة بين الإخوان الصديقيين وهي: مائة من الاستغفار، وعشر من الصلاة على الحبيب، ومثلها (اللهم يا لطيف نسئلك اللطف فيما جرت به المقادير)، ثم اللطيف تسع وعشرون ومائة، ثم بعض التوسلات، ثم الصلاة المشيشية يتخللها مائة أو أكثر من الاسم المفرد، ثم حزب النووي، ثم حزب البحر للشاذلي، ثم الوظيفة الزروقية، وفي الأخير أمرهم بقراءة يس، وكان يحضُّهم كثيرًا على المحافظة على ذلك ويحذر من تركها والتكاسل عنها.

وله وصايا في هذا الشأن ذكر بعضها مولانا أحمد في «التصور والتصديق».

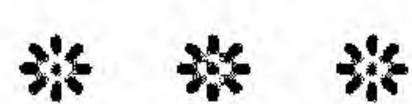
أما القسم الثاني من أصحابه فكان يأمرهم بدخول بيت مظلم مع لزوم الصوم والفطر على شيء بسيط مما لا روح فيه أو خرج من روح، والإكثار من ذكر الاسم المفرد ــ الله ــ على الكيفية المعروفة عند القوم، ولا ينام إلاَّ عن غلبة ولا يخرج إلاَّ لحاجة من طهارة أو صلاة، وكان يكلف شخصًا خاصًا بمن يدخله الخلوة.

وكان في أصحابه المتسببون أصحاب الحرف والتجار وغيرهما والمنقطعون المتجردون في الزاوية للعبادة وتلاوة القرآن وحفظه.

وبالجملة فقد كان من محاسن المشايخ المتأخرين علمًا وعملاً وحالاً وتربية.

وله رسائل وبعض الفتاوى ذكر بعضها نجله في «التصور والتصديق»، ولم يتصد للجمع والتأليف، بل قال في مقالة له: إن مولاي أحمد سينوب عنا في ذلك.

وهكذا عاش وقضى حياته في هذه المدينة إلى أن أجاب داعي ربه سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وألف. ودفن بزاويته العامرة وخلف عدة أولاد ذكورًا وإناثًا من بينهم سبعة من العلماء، ثلاثة من علماء الحديث النبوي وباقيهم كل له تخصصه، وهذه وحدها من أعظم كراماته رضي الله تعالى عنه وعنا معه آمين.



الفهـرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

❁ ❁ ❁